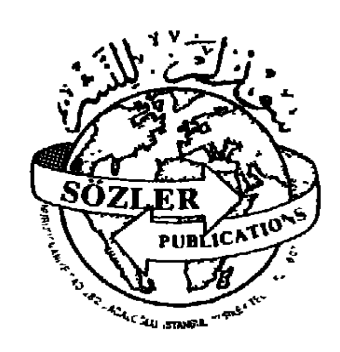
بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي



١٠ شارع يوسف عباس - مدينة التوفيق
مدينة نصر - القاهرة - هاتف : ٢٦٣٦٦٨٤

بديع الزمان سعيد النورسي

في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي

إستانبول (٢٧- ٢٩ /١٩٩٢)

■ البحوث العربية ■

الأساتذة المشاركون

● اديب ابراهيم الدباغ
● محمد رشدي عبيد
● أحمد بهجت
● د. عبدالودود شلبي
● د. عبدالرحيم السايح
● د. عمادالدين خليل
● حسين علشور



رقم الإيداع ١٠٧٥٥ / ٩٣
977-5323-07-X

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الدكتور احمد عبد الرحيم السايح

الحمد لله رب العالمين . الذي جاء على كل حي بما اليه حاجته ، ووهب الانسان عقلاً ، به انكشف القناع عن المجهول. وأشرقت على النفس اسرار الموجودات ، وتجلت معرفة صانع الوجود.

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين. محمد رسول الله، قدوة أهل الحق، والباحثين عن اليقين.

اما بعد

فإن لكل مقصد وسيلة، ولكل غاية بداية. وعلى قدر عظم المقصد والغاية تكون الوسيلة والبداية.

ولقد كانت العقيدة في حياة المسلمين هي النافذة التي يطلون منها على العوالم الحية. بكل شعب هذه العوالم ، وجنبات جوانب العيش فيها. كما كانت العقيدة ذاته هي المنظار الذي ترى بواسطته كافة حقائق العلوم والوجود، وتفسر على ضوئه مجراها ومرساها.

وان مصدر الفاعلية في عقائد ومبادئ احتوتها رسالة الإسلام كان الاساس الفكري والروحي لإطار تربوي توجيهي، يحدد لإنسان العقيدة، المؤمن بها، والمؤتمن على سيادتها: اسلوب الإنطلاق والتناسق والتبلور.

ولا يخفى على احد ان تحديد المواقف التي يلتزمها المؤمن بالاسلام، في مختلف الاحوال والظروف امر يقع في الصميم من مهمات اصحاب اهل العزم.

والمواقف العملية التوجيهية لا تكون عملية ما لم تحكم بحركة الانسان وتواجداته ، وانطلاقاته. والا فهي مواقف بعيدة عن ساحات المخمصة، والممارسة، والاستيعاب..

ولقد كانت حياة الإمام بديع الزمان سعيد النورسي حافلة بالمواقف العملية، آهلة بالخصوبة والعطاء..

ولقد كان رضوان الله عليه من أعظم الشخصيات الاسلامية التي برزت في الامة الاسلامية. لتعيد إلى المسلمين شروق الاسلام، وإشراق مبادئه ، وحقائقه. ويقول رضي الله عنه: «لو ان لي ألف روح لما ترددت ان اجعلها فداءً لحقيقة واحدة، من حقائق الاسلام».

لقد كان سعيد النورسي على يقين من ان عصره هو عصر إظهار الحقائق الاسلامية، وتقوية الايمان امام الغزو الثقافي والفكري الذي شنته وتشنه الدوائر الحاقدة على الإسلام.

وان الامة الإسلامية في اشد الحاجة الى التعرف على هؤلاء الرجال ودراسة ما تركوه من آثار وتراث. لان الانطلاقة الصحيحة لامة تخطو الى الجد لا بد وان تسترشد بهؤلاء الاعلام، الذين اضاءوا الدنيا بعملهم وعلمهم.

ولقد كان المؤتمر العالمي «تجديد الفكر الاسلامي في القرن العشرين وبديع الزمان سعيد النورسي» المنعقد في استانبول «٢٧ – ٢٩ ايلول

١٩٩٢م» – وثبة هائلة، دلت على عطاء الحضارة الاسلامية في انطلاقاتها.

لقد وجد علماء الإستشراق والفكر العالمي، وعلماء الدراسات الاسلامية، والادب، والجمال، والبلاغة، والتربية في هذا المؤتمر ضالتهم التي كانوا ينشدونها، لدراسة فكر بديع الزمان سعيد النورسي وكلياته ورسائله..

واستطاع هؤلاء العلماء الذين شاركوا في المؤتمر ، من المشارق والمغارب ان يقدموا دراسات وبحوثا حول فكر بديع الزمان سعيد النورسي هي ذخائر افاضت على مسامع رجال الفكر والعطاء. ودلت على ان بديع الزمان سعيد النورسي عالم موسوعي، متعدد الجوانب. في مصنفاته، ورسائل كليات النور.

وقد شارك في المؤتمر علماء ومفكرون من تركيا وامريكا والمانيا وانكلترا وايطاليا فضلاً عن الاساتذة الذين قدموا من الدول العربية واعدوا بحوثهم ودراساتهم باللغة العربية، والقوها في المؤتمر باللغة العربية. وكانت هذه البحوث تتحدث عن سيرة بديع الزمان، وفكره ، ودوره في المجتمع، وأثره ، وتأثيره، وملامحه التربوية ، ودعوته الاصلاحية، والجمال في كلماته ، وتأمله في الطبيعة، وفلسفته في الحياة. مما جعل هذه البحوث تكون في مجموعها: كتاباً متكاملاً ، يضم العناوين التالية:

١– هوامش على فكر بديع الزمان سعيد النورسي وسيرته الذاتية للاستاذ اديب ابراهيم الدباغ.

٢– سعيد النورسي: الرجل والدور للاستاذ احمد بهجت.

٣- الإمام بديع الزمان سعيد النورسي وأثره في ترسيخ الايمان للدكتور احمد عبد الرحيم السايح.

٤- ملامح تربوية من رسائل النور للاستاذ محمد رشدي عبيد.

٥- الامام بديع الزمان سعيد النورسي: المصلح الذي تجسدت في دعوته كل حركات التجديد والاصلاح للدكتور عبد الودود شلبي.

٦- رؤية جمالية في «الكلمات».. للدكتور عماد الدين خليل.

٧- الاستاذ سعيد النورسي والدفاع الاستراتيجي من خلال التأمل في الطبيعة للاستاذ حسين عاشور.

وقد رأينا ان تطبع هذه المجموعة «من البحوث التي قدّمت باللغة العربية» في كتاب يضمها لتكون مرجعاً مفيداً يلقى اضواء مشرقة حول فكر بديع الزمان ، واشراق كلياته ورسائله.

وهذه البحوث والدراسات التي يضمها هذا السفر الجليل اعدها علماء ومفكرون وكتاب متخصصون مما جعل لهذه البحوث اهميتها.

نأمل ان يجد فيها رواد المعرفة، وطلاب الثقافة واصحاب الرسائل العلمية، العلامات المضيئة في طريق الامة.

الدكتور عبد الرحيم السايح

الاستاذ بجامعة الازهر وجامعة قطر



أديب ابراهيم الدباغ

- من مواليد ١٩٣١ الموصل/ العراق
- عمل في التعليم تسعة وعشرين عاماً.
- مارس الكتابة في الصحف والمجلات منذ الخمسينات.
- نشر مقالاته الفكرية والوجدانية في العراق وخارجه.
- اهتمّ بالنورسي منذ سنة ١٩٨٠ وكتب في فكره وسيرته الكتب والمقالات والأبحاث.
- وله خمسة كتب منشورة.

بِسّمِ اللهِ الرَّحْمَـنِ الرَّحِيم

هوامش على فكر
بديع الزمان سعيد النورسي
وسيرته الذاتية

لأنّ مـا بيننا وبين « النورسي » بعـداً مكانياً وزمـانيـاً فلربما نراه ـ نحن العرب ــ أفضل مما يراه المقـرّبون منه والملتفـون حوله، كأي بـناءٍ عالٍ لا يَقْدُرُ عُلُوَّهُ إلا الناظرون اليه عن بعد، وأما المحيطون به، والمقيمونَ حوله، فقد يفوتهم تقدير علوه، واستبانة ارتفاعه.

فـالعـرب اليوم بـأزاء واحد من المفـكرين الموهوبين الذين لا يحسن بأحد منهم من المعنيين بشؤون الدين والإيمان أن يتجاهله.

وأنا على يقين بأن رسـائله المتـرجمـة الى العربـية سـتصـبح مع الزمن مَنْجَمَ أفكار إيمانية يجود على الطالبين بكل جديد ونفيس منها.

ومنذ اثنتي عـشرة سنة وأنا أقـرأ « النورسي » وأتعلم منه، واسـترشـد بآرائه وأفكاره فيما يَعُنُّ لي من قـضايا الدين والإيمان، وقد خرجت من قراءاتي بالآتي:

إننا بازاء رجل يفور روحه بأسرار الإيمان، ويتفطّر فؤاده بفجر اليقين، ويلتهب رأسه بأفكار العقيدة، وهو قادر على ايقاظ هوامد أفكارنا، وبعث الحياة في مَوات نفوسنا وشلل أرواحنا، وقد أوتي فضيلة النطق بكل جليل وجميل من الأفكار. وإن شهاباً ثاقباً من سماء روحه كفيل بإشعال هشيم نفوسنا، وجعلها تتلهب شوقاً الى الله، وتحترق محبةً فيه. ولم يتأت له ذلك الاّ بعد أن خاض تجارب روحية كثيرة، أخصبت كيانه، وأمرعت فؤاده، لعلّ من أهمها تلك التجربة الذاتية التي شكلتْ منعطفاً جديداً في مسيرة تاريخه الفكري والروحي، فهو حين أنكر نفسه، ورأىٰ منها ما يريب، استنفر شجاعته، واستجمع كلَّ قوىٰ وجوده لتسعفه في الانسلاخ عنها، والتنكر لها، ولم يتردد لحظةً في نحرها بسكين همته ومواراتها التراب والتكبير عليها أربعاً.

لقد فعل «النورسي» هذاحين أَشْكَلَتْ عليه نفسُهُ، وَغُمَّ عليه هدفه، ولم يعد يعرف من هو..؟ وماذا يريد..؟ وما هي حقيقة رسالته في هذه الحياة..؟ وما السبيل اليها..؟

وعندما وَضُحَ الهدف، واستبان السبيل، وقُذِفَ في رُوْعِهِ أنّ رسالته إنما هي انقاذ الإيمان في هذا العصر المقفر الجديب، ألقى بسعيد القديم وباستشرافه الى الدنيا في تابوت الموت، وقذف به الى يَمّ الماضي السحيق، وما لبث «سعيد الجديد» أن نهض بدلاً عنه، نافضاً عنه تراب الدنيا، ليبدأ رسالة إنقاذ الإيمان، بنفسٍ قوية لا تُهْزَمُ، وعزمٍ ماضٍ لا يَكِلّ، وفؤادٍ صارمٍ لا يُضَلّ.

لقد رأىٰ الرجل بقلبه البصير الصادق، وبصيرته المتوقدة الحادّة، أن سبب ما يعانيه المسلمون من عوابس الخطوب، وكالحات المحن، يرجع بالأساس الى غياب الوعي الإيماني العميق، وانطفاء العقل المسلم القادر على صنع الأفكار المستنيرة، وتسطح الفهوم والمدارك، وخدر المسلمين بأفيون الدنيا، وفقدانهم للحس بمخاطر ما يحيط بحياتهم... لذا لم ير من الرجولة والمروءة بمكان أن يستبق الأحداث، ويزج بطلابه الذين لم يبلغ الوعي الديني عندهم مرحلة النضج والكمال، لينافسوا الدنيويين على دنياهم في معارك السياسة، قبل أن يموت فيهم - مثله - ايّ استشراف اليها، ومحبة بها، لأنه يرىٰ أن الدنيا بأسرها لا تساوي قطرة دم واحدة من مسلم تهدر في سبيلها... فما يريده سعيد الجديد مرحلياً هو أن ينشئ جيلاً واعياً مشبعاً بحقائق الإيمان، مستقلاً بالحمل الفادح، ثابتَ الوطأة، قائمَ الصُلبِ، أَيّدَ الركن، يملك الدنيا بيده ولا يدعها تلج الى قلبه، يرىٰ الاستشهاد في سبيل حقيقة من حقائق الإيمان شرفاً لا يعدله شرف... الى هذا الهدف كان يرمي في كل ما كتبه في «رسائل النور». غير أنه لم ير مندوحة في مجاهدة الاعداء الآتين من وراء الحدود، لأن الأمر هنا لا يحتاج الى كبير وعي، ولا الى مزيد علمٍ وفقْه، فمعلوم من الدين بالضرورة أنه اذا ديست أرض المسلمين من قِبلِ الكفار فالجهاد فرض عين على كل مسلم، فسارع الى تشكيل فرق الانصار من طلابه ومن المتطوعين، وكان ظهير الجيش النظامي في حربه مع الروس، وقد أبلىٰ البلاء الحسن كما شهد له بذلك الاعداء قبل الاصدقاء، حتى إنه جُرح وأُسر وبقي في الاسر حتىٰ قيام الثورة الشيوعية سنة ١٩١٧م.

وفي خطبته الشامية ذائعة الصيت لخص « النورسي » أمراض المسلمين، وذكر اليأس والقنوط والشعور بالإحباط كواحد من هذه الأمراض التي داءت بها عقولهم وأرواحهم، فشلّت جوارحهم عن الحركة، وقرّحت آمالهم وأحلامهم، وجمّدت نبض الحياة في عروقهم.

وقد دعا « النورسي » المسلمين لينهضوا ويغالبوا هذا العصر العصي الذي يبدو وكأنه مدسوس على الدنيا في حين غرّةٍ من أهلها، ليهدم بمعاوله كُلَّ منارات الهدىٰ، ويطمس على كل ما يمكّن للجنس البشري ان يسترشد به من معالم الحق والعدل والخير.

فالتفاؤل والأمل هو ينبوع قوة المسلمين، وسرّ استعصائهم على ضربات الزمن الوجيعة، وهو النور المسكوب عن وجدان الغيب ليشرق بسنائه فوق ليالي اليأس والحزن والألم.

ورسائله كلها تنبض بروح الأمل في مستقبل المسلمين الآتي، إنه يخاطب جيل عصره الذي لا يرى المستقبل، لأن عيونه في قفاه، ويطلب منهم إن لم يستجيبوا له فلا أقلَّ من أن يتواروا ويتركوا الطريق فسيحةً لأولئك القادمين الآتين ببيارق الاسلام الخفاقة، إنهم جيل المعجزة الاسلامية التي لا تنقضي عجائبها، وها أنذا أنقل اليكم صوت « النورسي » وهو يخاطب موتىٰ هذا الجيل وينهرهم قائلاً: (ايها الموتىٰ... ايتها القبور التي تمشي على رجلين... أيتها الأجداث المتحركة فوق أديم الأرض... أنتم أيها المنخورون المهزوزون المنهزمون... ابتعدوا... تنحّوا عن طريق الأجيال القادمة... افسحوا الطريق للاحياء الممتلئين حياةً بروح الاسلام... وامضوا أنتم الى قبوركم التي تنتظركم... تواروا واتركوا المكان لجيل البطولة والابطال القادمين...).

وفي «بارلا» ذلك المنفىٰ القصي، وجد «النورسي» نفسه رهين غربتين، غربته عن عصره وزمانه، وغربته عن موطنه وأهله وصحابه، حيث لا خل ولا صاحب، ولا سلوة ولا عزاء، ولا مأوىٰ له على ظهر الأرض يؤويه ويضمه الى صدره، فقد صدّت عنه الدنيا، وجفاه زمانها، فجنح بطبعه الفطري الى الآخرة، وتوجّه اليها، وامتلأ خياله بصورة العالم الأبدي الذي يرجو ان يكون المكان الذي يؤويه يوماً ما، ويضم عليه جناحي حنانه ورحمته. يقول في وصف غربته عن عصره، أنقلها عنه بشئ من التصرف:

(ماذا أفعل...؟ ان قدري دفعني الى هذه الدنيا في زمان غير زماني... إنه شتاء الاسلام الكابي الحزين... ولا حيلة لي الا أن أبذر بذور الربيع القادم الذي لا يريد أن يبصره هذا العصر... وحين تنبت هذه البذور وتتسنبل ويأتي ربيعها أكون أنا قد فارقت الدنيا، لكني سوف، أتنسم نسمات ربيع الاسلام وأنا راقد في قبري... فاستشراف مستقبل الاسلام الزاهر هو عزائي وسلوتي في غربتي...).

لقد ذاق الرجل ألواناً من الأحزان، وأُلبس أثواباً من الشجىٰ والآلام، الا أنه كان ستّاراً لشجوه، كتوماً لمصيبته، متلفعاً بعظمته، مستغرقاً في سكينته، منطوياً على آلامه، مستغنياً بنفسه، مستقوياً بربه، مستعلياً على الخوف، قاهراً الجبن والمسكنة، لأنه يرىٰ أن ضعف الفريسة ومسكنتها لا تثير، إشفاق المفترس ورحمته، بل تزيد في شراسته، وتقوي شهيته للفتك والقتل والافتراس، لذا لم يسجل عليه طوال حياته أنه ضعف وهان واستكان أمام جبروت أصحاب الحكم والسلطان.

ولكن كيف استطاع أن يجعل من « بارلا » القصية البعيدة مدرسة تشع منها أنوار « رسائل النور »...؟!

لكي نفهم هذا لابدّ أن أحدثكم عن شخصية « النورسي » القوية المشعة... فالشخصية القوية ـ شأنها شأن طاقات الطبيعة وقواها ـ مجموعة قوىً وطاقات خفية غامضة، تُكنُّهَا النفس الانسانية، نحسُّ أثرها وتأثيرها فينا وفي الآخرين، دون أن نعرف شيئاً عن ماهيتها وكنهها. وقصارى القول فيها: إنها هبة إلهية، ومنحة ربانية، يمنحها الله سبحانه وتعالىٰ للصفوة من الناس ـ ومنهم النورسي ـ مِمَّنْ رسم لهم القدر أن يحتلوا مراكز الاشعاع في المكان الذي يوجدون فيه، وهي تمثل الاستثناء من المكرور والعادي من الشخصيات.

فالشخصيات القوية من ذوي البناء المحكم المتين الذين يصعب اختراقهم، يملكون قوىً خارقة ـ تنبعث من ذواتهم، وتقتحم أقفال القلوب والعقول، وهم بكِتْلِهم الثقيلة في موازين الرجولة يشكلون مراكز ثقل يشدون اليهم مَنْ يلتقونهم من الناس، فلا غروَ أن يصبحوا طاقات مشعة في المجتمع، يلتف حولهم الناس، ويخطبون ودَّهم، وينصاعون لأمرهم، ولسان حالهم يقول:

اذا كان قد فاتنا أن نرقىٰ رقيهم، فلا أقلَّ من أن نقبس من عظمتهم، وندين لهم بالمحبة والطاعة والولاء.

وهكذا انجذب الى الرجل مَنْ يخدمه ويقرأ رسائله، ويتتلمذ عليه، ويستكتب هذه الرسائل ويسيح في طول البلاد وعرضها، فيسقي نورها ظِماء الإيمان وجياع العقيدة والاسلام.

ولكن ما هو هدف «رسائل النور»؟ وما المحور الذي تتمحور حوله، وتتموضع إزاءه...؟ انه باختصار شديد «الانسان».. هذا الانسان الذي تريد له أن يدرك أن دنياه لا تقلُّ غرابةً عن آخرته، فكل شئ فيها غريب وعجيب ومعجز، إلا أن مداومة النظر للدنيا، والائتلاف الدائم بينه وبين اشيائها، يجعله يفقد شداهة النظرة البكر، وقوة حدتها ونفاذها، وذكاء لمحاتها، الأمر الذي يدفعه للاستغراق في المألوف من دون إعمال العقل فيه، ظناً منه أن كل مألوف معلوم، وشتان بين أن نألف أو أن نعلم كما ينبه «النورسي».

وكما أن «الدنيا» موجودة يصدمنا وجودها، ونتحسسها بأحاسيسنا وعقولنا، فكذلك «الآخرة» موجودة، وهي ليست بأقلَّ حقاً ووجوداً من الدنيا، ولكن رؤيانا لها، وشعورنا بها ـ هنا في الدنيا ـ يكون بالروح الطاهر، والقلب المتبتل الخاشع، وهذا ما تسعىٰ رسائل النور الى أن تمنحنا إياه.

وإذ كان «الانسان» هو لبُّ الدنيا الذي تتوجه اليه رسائل النور بمعارفها، فإن الدنيا قشرته، أو بالأحرى إن الدنيا لا شئ، بينما الانسان كل شئ، ومآله الأخروي هو أعظم الاشياء، وأكثرها أهمية وخطورة.

فما يعتلج في نفوسنا من توق الى الخلود والبقاء، ونفور من الموت والعدم، دليل على وجود البقاء والخلود خارج عالمنا اكبر من كل دليل وأعظمه، كما يقول «النورسي».

لأن «الانسان» ـ كما هو معلوم ـ لا يشتاق الى عدم لا وجود له، ولا يرتبط معه بسبب من الأسباب؛ إن هذا الشوق هو عذاب الروح

المستطاب الذي يجعل الأنسان ينظر الى بشريته بشيءٍ من الحزن لأنه سجين هذه البشرية التي كان مقدراً لها أن توجد على هذه الأرض لتعاني الاغتراب، وتكابد عذابه، وربما الى هذا اشارة في قوله ﷺ، وقد سئل عن سنته: (والشوق مركبي... والحزن رفيقي... وقرة عيني في الصلاة...) لأنها ـ أي الصلاة ـ رسول أشواقه ﷺ الى الله تعالى ربّ ذلك العالم الأخروي البعيد، القريب، الذي نحسه في تجليه على أرواحنا بأنواره وأندائه في لحظات صفاء الروح، وفي أوقات استضاءة القلب بنور الله. كما أن لهذا العالم الغيبي امتدادات نسبية في عالم الشهادة ـ كما يقول النورسي ـ تظهر أوضح ما تظهر في الانسان، خلاصة هذا العالم، وأرقىٰ مخلوقاته، فكيانه ـ باطنه وظاهره ـ مرآة كبرىٰ تعكس بنسبيتها شؤون الغيب المطلقة.

فوجود الانسان النسبي يرمز الى وجود مطلق،

وعلمه النسبي يرمز الى علم مطلق،

وقدرته النسبية ترمز الى قدرة مطلقة،

وإرادته النسبية ترمز الى إرادة مطلقة،

وهكذا، فكل ما هو نسبي من الصفات عند الانسان، يقابله ما هو مطلق فيما وراء هذا العالم.

وحيث أن الموجودات ـ حتىٰ الجامد منها ـ مفطورة على حب الكمال، والارتقاء من الأدنى الى الأعلى، ومن المحدود الى اللامحدود، ومن النسبي الى المطلق، ولما كان الانسان أرقىٰ هذه الموجودات من ذوي العقل والشعور، صار همه الانعتاق من سجن

النسبية اكبر همومه، وشوقُهُ الى المطلق اعظم أشواقه، كما يشير «النورسي» فكيف لا تعاني أشواق المسلم الغربة في هذا العالم الذي تحكمه النسبية، ويهيمن عليه السلب والموت والفناء والعدم..؟.

إذن فكيف الخلاص من براثن عالم السلب هذا..؟ وكيف النجاة من حبوسه الضيقة المحدودة..؟ ولماذا نموت ظامئين ونحن على مقربة من نهر الأبدية العذب..؟ ان الخلاص والنجاة ـ كما يرى النورسي ـ إنما يكون بالتعلق بشدة بأمراس الغيب، والاستمساك بقوةٍ بحباله الممدودة الينا، فباب الغيب العظيم المشرع لكل مشتاق وراغبٍ إنما هو القرآن الكريم الذي يملك المداخل لجميع العقول البشرية على اختلاف نوازعها.

فالوقوف الدائم على مشارف عوالم القرآن سيجعلنا نبصر حبال الإنقاذ النورانية الممدودة الينا لنتعلق بها بقوة، ونعضَّ عليها بالنواجذ.. انه يخترق بنا أعماق الزمان الأبدي الذي لا نهاية له، ويطلعنا على ما يحتويه من صور الجلال والجمال ليزداد حبنا له، وشوقنا اليه.. فمَنْ يحب الخلود ويسلك اليه سبيل القرآن يخلدْ.. ومَنْ يحبّ البقاء ويتعلق قلبه بالباقي الابدي الأزلي يذقْ حتماً وقطعاً طعم البقاء، كما يقول «النورسي».

كما أن للغيب صوراً جَمَّةً، وتشكلات لا حصر لها في العوالم والأكوان، وفي الأحياء والجمادات.. فالقرآن الكريم يشير الى هذه الحقيقة، ويعلمنا أنه التجلي الأعظم لصفة الكلام الإلهي المتنزل على قلب سيدنا محمد ﷺ ، وأن الصفات الألهية الأخرى: القدرة، الحكمة، الارادة، العلم، الحياة، لها تنزلاتها وتجلياتها على قلب

الكون. فالعوالم والأكوان خاضعة ومستسلمة لهذه الشريعة الكونية التي تعمل بصمت وخفاء في الأشياء. فتقدم الانسان العلمي يتوقف على فهم دساتيرها ونواميسها، واكتشاف أسرارها كما يقول «النورسي».

لذا غدا، إهتمام المسلم بالكون بديهياً، ورغبته في فهمه والتوغل في أسراره من أوجب واجباته الإيمانية، لأنه بمقدار ما يجهل منه يكون جهله بربه، وبمقدار ما يجهل منه يكون جهله بعقله، وعلى قدر ما يفوته من العلم به يكون مقدار ضعفه وتأخره العلمي.

فالشريعة الكونية ينبغي لها أن تنزل عقل المسلم، وتسري في حسّه جنباً الى جنب مع شريعة الكلام الألهي، أي «القرآن الكريم» ومن تداخل الشريعتين ونفاذهما في بعضهما وتفاعلهما داخل عقل المسلم ووجدانه، تولد حضارة الاسلام عن جديد كما يرىٰ «النورسي».

غير أنه ومنذ دخول العالم الاسلامي شتاءه الحضاري القاسي، وعقل المسلم لم يعد عقلاً حركياً فاعلاً، إنه في حالة استرخاء دائم، وجمود مستمر، بل هو مريض معتل لم يعد يستجيب للتحدي والاستفزاز، ولم يعد ذلك العقل المشدود دائماً، اليقظ الصاحي أبداً، المتهئ في كل وقت لالتقاط إيماءات الكون، واستلام إشارات الطبيعة، ولم يعد عقلاً مغامراً يستهويه المجهول، ويفتنه المستور، حتىٰ لكأنه يخاف الحقائق ويستهولها، فيتحاشاها ويهرب منها، وبذا لم تعد حياتنا الإيمانية وحدها مهددة باليبس والنضوب، بل غدا إدراكنا نفسه مهدداً بالشلل والجمود.

و« رسائل النور » تسعىٰ لكي تعيد الى عقل المسلم صحوه الغائب، وتدير في مغاليقه مفاتيح الأفكار، وترجع لخلاياه الكسول الحيوية والنشاط، وتشحذ قدرته على دقة الملاحظة، وذكاء اللمحة، وسعة النظرة والخيال.

وهذه هي أشـراط ولادة الفكر الإيماني الحي الذي بشّر به « النورسي » وتحدث لطلابه عن إرهاصاته وتباشيره.

غير أن المفكر الاسلامي الموعود والمرصود لمواصلة المسيرة التي بدأها « النورسي » لا يمكن أن ينجم من فراغ، أو يسقط من هواء، بل لابد له من أرض صالحة يستنبت فيها.. ولا أحسب أرضاً صالحة يمكن أن تنشق عن نبتة هذا المفكر الواعد مثل رسائل النور المفعمة بالمنقول الألهي، والمؤيد والمعزز بالمعقول الكوني، فطينة أرضها مزيج من الائتلاف الحميم بين الشريعتين الكونية والقرآنية، وحين يأتي هذا المفكر ـ وهو آتٍ لا محال ـ فإن إحدى الحوادث الكبرىٰ في تاريخ الاسلام والمسلمين تكون قد ولدت، الأمر الذي يوجب على المسلمين الاحتفاء بمولده كما كانت قبائل العرب تحتفي بمن ينبغ فيها من شعرائها. و « النورسي » لا يرىٰ شيئاً أشدّ سقوطاً، وأشنع انحداراً، من أن يتجرد رأي الانسان في هذه الخليقة من أي معنى الهي، لذلك فليس من شأننا نحن المسلمين ـ أو من شأن مفكرينا ـ أن نعقل حقائق الاشياء بالعقل المجرد وحده ـ كما يريدنا الغربيون أن نفعل ـ بل بالعقل المستضيء بالإيمان، وبالبصيرة المستنيرة بالقرآن. فحضارة الاسلام ـ كما بشّر بها النورسى ـ لا تبنيها اليوم الاّ عقول موسوعية كبيرة وعميقة، لا يقوى على اختراق حصونها الفكرية خارق أياً كان، ولا تنشؤها الا

أرواح جبارة شامخة، تستعصي في سموها وجلالها على عاديات الأيام، وفادحات الدهور، ولا يعلو بناؤها، ويرتفع شأنها، الا بالانسان المؤمن البصير الواعي الذكي اللّماح الذي ينذر حياته كلها من أجل أن يسهم في إقامة صرح هذه الحضارة ولو بلبنة واحدة.

والجمال والجلال هما جوهرا هذه الحضارة التي لها ميزتها وتفردها واختلافها عن سائر حضارات الأرض، فالجمال هو روحها، بينما الجلال هو جسمها.. الجمال هو بستانها، والجلال سياجه.. الجمال هو الحق والعدل والخير، وهو الرحمة والصدق والشرف والكرم والمروءة والبر والمعروف وكل المحامد والمناقب، أما الجلال فهو سيفها البتّار الذي يحميها مِمَّنْ يروم اختراق بستانها، والعبث بزهره وثمره.

وفي رسالته العجيبة «الاسم الأعظمَ» يبين «النورسي» آثار فاعلية اسماء الله الحسنى في الانسان والكون والحياة، وآيات تجليها بمعانيها وصفاتها على الموجودات.

ويشير الى أن إسميه تعالى «الجميل والجليل» يؤثران في الكون، فهو جميل تقطر ألوان الجمال من كل جزء من أجزائه، وصورة من صوره، وهو كذلك جليل مهيب يبعث الاحساس بالرهبة والروع والاستهوال ازاء كبره وسعته وامتداده.. وحضارة الاسلام انما تبنىٰ على مثال الكون في جماله وجلاله.

ولأن «رسائل النور» هي فلذة من كبد الكون، وقطعة من فؤاده، ترىٰ بعينه وتسمع بسمعه، وتعقل بعقله لذا فلا غرابة إذا ما رأينا الجمال والجلال يسريان جنباً الى جنب في كلماتها وسطورها، فبينا تكون

مغموراً بفيض من جمال المعاني الإيمانية التي يتفجر عنها وجدان النورسي، حتىٰ لتخال أنك بأزاء أديب كبير ذي روح شاعري، إذا به ينقلك فجأة وربما عبر سطر واحد الى عالم الجلال الألهي الذي يروعنا ويجعل قلوبنا تبادر الى السجود خاشعة على اعتابه.. وهكذا مهما قلبت من صفحات هذه الرسائل طالعتك فيها رقة في شدة، ورأفة في قوة، ورحمة في عز، وتواضع في شموخ، ولطف في متانة، وعقل في قلب، وقلب في عقل... وإنك لتحس بقلب «النورسي» الكبير وهو يترنم شجى ووجداً، وترىٰ دموعه تفيض حزناً ولوعة على الانسانية المعذبة بعذاب البعد عن الله، إنه ليستقطر دموع النوع البشري على النوع البشري نفسه الذي سيواجه عذاب العدم في آخرة الوجود والبقاء، مالم يتب ويعد الى الله تعالى. إنه أخو البشر، وشقيق الانسان، تُبْكيه مأساتُه، أياً كان وفي اي مكان من هذه الأرض.

وهو حين يُذَكِّرُ الانسانَ الجحود بمآله المفجع في الآخرة، لا ينسىٰ ـ في الوقت نفسه ـ أساس مهمته، الا وهي تحبيب الله الى خلقه، قبل تخويفهم منه، اي الجمال ثمّ الجلال.

فالجمال والجلال هما القاعدة الحضارية التي تنطلق منها «رسائل النور» لبناء المسلم الجديد المؤهل للقبول في صف نبلاء الفكر ممّن تودع بين أيديهم أمانةُ ارساء أسس الحضارة الاسلامية الآتية.

فلطف الجمال هما يحول بين «الأنا» في دواخلنا وبين الكبر والعجب والطغيان، وهيبة الجلال تُنْهِضُ «الأنا» من وهاد الضعف والسقوط والذلة والقنوط.. الجمال يغرينا بسمو الفكر، وشرف العدل، وحب الحق، وعشق الفضيلة، وأداء الأمانة، والشغف بالواجب. بينما

يفجر الجلال فينا ينبوعاً دفّاقاً من القوة، ويهبنا البسالة والشجاعة ويمنحنا الحمية والأنفة والاستعلاء على الجبن والخوف.

وما زال «الأنا» في الانسان المعاصر، هو المعضلة الكبرىٰ المستعصية على الحل، وهو ما فتئ في طغيانه أو انسحاقه يشكل سوساً ينخر في انسانية الانسان، وقد أعيا علاجه الفلاسفة والحكماء، وحار فيه الاخلاقيون والتربويون. لأن الدواء الذي يقدمونه له هو من صنع «الأنا» المريض نفسه، فيأتي معلولاً لا جدوىٰ منه.

أما الدواء الذي تقدمه «رسائل النور» فهو مزيج من الجمال والجلال الإلهيين، وهو موزون بميزان من رفع السماء ووضع الميزان، وخلق «الأنا» في الانسان، وجعله مناطاً للتكليف والسؤال، وهو دواء علته، وبلسم مرضه، الذي يفي بحاجته، ويحفظ له دوام الاستقامة والاعتدال، وباعتداله تعتدل الدنيا، أما إذا فرّط أو أفرط فعلىٰ الدنيا العفاء، لأن «الأنا» في الانسان منبع كل خير في العالم اذا اعتدل واستقام، ومنبع كل شر في الدنيا اذا جنح وانحرف. واذا كان ما من جميل الا ويمازج جماله مهابة الجلال، ووقار العظمة والكبرياء، وما من جليل الا وله من الجمال نصيب، فكذلك فان كل ذي حياة ــ ولا سيما الانسان ــ تشع من حياته معاني الاسماء الإلهية الحسنىٰ، وصفاتها الجميلة والجليلة، كما يرىٰ النورسي.

وبهذا صار «الانسان» آية كبرى من آيات الله تعالىٰ، لأنه يعكس أضواء هذه الاسماء على ما يحيط به من الموجودات والأناسي، فيصبح كل انسان مرآة أخيه، يبصر فيها نفسه، كما ورد في الحديث الشريف: «المؤمن مرآة أخيه» ووجب ان نحصي اسماء الله الحسنىٰ ونستقصي

فعلها وتأثيرها في أنفسنا لنتخلق بأخلاقها، ونحيا بصفاتها ومعانيها، ولعل الى هذا الاشارة في قوله تعالىٰ بـ ﴿ **وفي انفسكم افلا تبصرون** ﴾.

وحين نبصر، ونتعمق بأبصارنا في النفس الانسانية، نكتشف دواعي القلق على الانسان في تقلب قلبه من النقيض الى النقيض. فقد يكون على بساط الجمال، وفي حضرة أنسه، فإذا به يتحول بين عشية وضحاها عن ذلك ليقع في قبضة الجلال وتحت هيبته وسطوته. فاستغراق النفس بالجمال لا يعني خلاصها نهائياً من جرثومتها الأمارة بالسوء. كما أن طغيان هذه النفس، وانغمارها بالموبقات لا يعني خلوها من أصل التقوى والصلاح.

فلربما استقام المنحرف، وانحرف المستقيم، والى هذا السر يشير ﷺ بدعائه : «اللّهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي عل دينك».

فالنقائض والأضداد من سنن الله في موجوداته ـ كما يرى النورسي ـ فالنهار يخفي في ضميره سواد ليل بهيم، والليل يطوي تحت جناحيه اشراقات الضحىٰ واضواء الظهيرة، وصقيع الشتاء يحتفظ في جوفه ببذرة الربيع، وكل ضعيف يطوي في احشائه نطفة قوته، وكل قوي تستتر فيه نبتة ضعفه.

فالنورسي يهيب بالضعفاء الا يستسلموا لضعفهم، ففي دواخل ضعفهم قوة، عليهم ان يكتشفوها وينموها، ويحذر الأقوياء من الغرور بقوتهم، ففي قوتهم عوامل ضعفهم التي ستوردهم موارد الهلاك في يوم ما، ومانظنه شراً بقصر أنظارنا قد ينطوي على خير كثير لا نبصره، وقد تكشف عنه الأيام في قابل الزمان.

وعلى ضوء هذه المقدمات يفسر «النورسي» الكثير من وقائع التاريخ الاسلامي، ويكشف عن أسبابها وأسرارها التي أفادت المسلمين رغم ما يبدو في ظاهر أمرها من كونها وقائع مأساوية كان ينبغي لتاريخ المسلمين ان يتنزه عنها، حتىٰ إنه ليرى؛ أن ما نجم من مذاهب الابتداع لا تخلو هي الأخرىٰ ـ رغم باطلها ـ من حبة حق أو حبات، أو جزئية منه او جزئيات، وبهذه الحبة او الجزئية اعتقدها أصحابها، وها انذا أنقل اليكم ما يقوله بهذا الصدد مخاطباً طالب الحقيقة والباحث عنها:

(يا طالب الحقيقة:

إن الشريعة تنظر الى الماضي والى المصيبة غير نظرتها الى المستقبل والى المعصية.. إذ تنظر الى الماضي وما وقع فيه من المصائب بنظر القدر الألهي، فالقول هنا قول الجبرية.

اما المستقبل والمعاصي فتنظر اليهما بنظر التكليف الألهي، فالقول هنا قول المعتزلة.

وهكذا تتصالح الجبرية والمعتزلة.

ففي هذه المذاهب الباطلة تندرج حبة من حقيقة لها محلها الخاص بها، وينشأ الباطل عن تعميمها..).

والقدر ـ مهما اختلفت المفاهيم حوله ـ فهو ملح الحياة، فمن دونه تفقد الحياة طيب مذاقها في أفواه البشر، ومن غير القدر ومفاجآته، تستوي أيام الحياة وتتشابه أزمانها، ما كان منها، وما هو كائن، وما سيكون، ويصبح الماضي والحاضر والمستقبل لوناً حياتياً واحداً مملاً،

وصورة للعيش واحدة مضجرة، وبذلك يفقد الانسان اهتمامه بالزمن، وتضيع منه لذة معاناة التوجس والترقب لما يمكن ان يأتي به المستقبل من احداث السلب او الايجاب.

وهذا «الملح الغيبي» هو الذي يمنع بحر الحياة من أن يتوقف ويأسن ويتعفن، فلولا الاقدار لسكنت الحياة سكون الموت، وهمدت همود القبور، فمن صراع اقدار البشر واحتكاك بعضها ببعض، تتجدد شرارات الحياة، وتتوهج المجتمعات، وتنهض الدول، وتقوم الحضارات، ويجري التاريخ البشري نحو اهدافه وغاياته المرسومة والمقدرة.

فالتاريخ في مفهوم «النورسي» يصنعه رجل الساعة، وبطل الموقف الذي يمده القدر بقوة خفية يستطيع بها أن يلوي عنق الاحداث ويسخرها في خدمة هدفه وغايته.

وللنورسي قول في «القوة» قد يبدو غريباً للوهلة الأولىٰ، ولكن عندما نتأمله ونتعمق فيه، ونسبر غوره، نجده من أصدق أقواله، وأكثرها انطباقاً على الحق والحقيقة، وله عليه شواهد من التاريخ الاسلامي خاصة، والتاريخ الانساني عامة، فهو يرى أن القوى سواء كانت قوى عقلية أو نفسية او جسدية او علمية مادية، حتىٰ لو بدت غير اخلاقية، فأنها تكتسب بعض خواص الحق، فمهما كانت استعمالاتها، وفي أي سبيل كان تسخيرها فهي تنطوي على خاصية من خواص الحق، وبهذه الخاصية تنتصر ولو كانت بيد الباطل الغشوم، والى هذا السر يرجع انتصار الباطل القوي على الحق الضعيف.

ورغم علمنا أن الحق أو الحقيقة ـ أية حقيقة ـ قادرة على الدفاع عن نفسها، وشق طريقها الى الحياة مهما كانت السدود والعوائق، الا أننا للأسف الشديد قد نشكل بعض هذه العوائق دون قصد منّا.

فهناك فواصل حادة بين الحق الذي نؤمن به، ونرغب بالانتصار له، وبين قصور الجهد الذي نقدمه في سبيله.. بين القمة الشامخة التي يقف فوقها، وبين ضعف الأفكار التي نحاول ان نقدمها للآخرين من خلالها.. بين أن نعتبره موقفاً سياسياً محلياً نخوض به مضامير السياسة، وبين أن نعتقده موقفاً حضارياً عالمياً نقارع به أفكار العالم وحضاراته التي تغزونا وتريد تجميد حضارتنا وتحجيم أثرها وتأثيرها فينا.

فالنورسي منذ قيامه مرةً أخرىٰ في إهاب «سعيد الجديد» وهو يرىٰ ان قضية الاسلام الملحة ليست قضية صراع سياسي يمكن ان يغلب فيه، أو أن يكون مغلوباً، إنما هو صراع حضاري رهيب لا يمكن أن يُغْلَبَ فيه إذا عرفه العالم على حقيقته واعتقده وآمن به.

لذا فهو يرىٰ أن «اوروبة» التي تمثل قمة حضارة اليوم يمكن أن تخفي في رحمها جنين الاسلام اذا هي فهمته واستوعبته وان هذه الرحم ستنشق عن هذا الوليد يوماً ما ليدرج في احضان الغرب، وينمو ويكبر ويبلغ أشده.

فإذا كانت «أوروبه» ـ في إبّان حضارتنا ـ قد آنست في الشرق ناراً عظيمة فقالت لأهلها:

(امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس او أجد على النار هدى) فلما جاءتها اقتبست من نورها أقساماً وذهبت بهذه الأقباس

فأنارت بها عقول أذكياء أبنائها، فإذا بهذه القبسة الحضارية تنمو وتكبر وتبلغ من النضج ما يشاء الله لها أن تبلغ.. ثم تعود الينا من أبوابنا المشرعة وتتعرض لنا بسحرها ومفاتنها.. فإذا بنا نعرف منها وننكر، فهي قريبة الى نفوسنا في بعض جوانبها، وغريبة بعيدة عنا في بعضها الآخر.. نعرف منها روحها المغامر الطلعة، لأنه روحنا المفقود.. ونعرف منها شغفها بالمجهول، وشوقهاالى كشف الاستار عن المعارف والعلوم لأنه شغفنا وشوقنا الموؤد.. ونعرف منها علومها في الحياة والفلك والطب والنبات والحيوان، لأن جذور هذه العلوم ممتدة في عقول الأفذاذ من علماء حضارتنا.. ولكننا ننكر منها عقلها المغرور الجحود، وقلبها المتفسق، وجسدها الذي يغلي بالحسيات، وعقيدتها في التجسيد والتثليث.

تُرَى أيمكن ان يعيد التاريخ نفسه، وتعود «أوروبة» الغارقة في وثنياتها من جديد تبحث في «اسلامنا» عن صفاء العقيدة في التوحيد والتنزيه..؟! هذا ما يؤمله «النورسي»، وهو يرى ـ أي النورسي ـ في خبر نزول عيسى عليه السلام الى الارض في آخر الزمان، وأنه يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، إشارة الى عودة المسيحية الى أصول عقيدتها في التوحيد، جوهر الاسلام، وجوهر كل الاديان التي سبقته، وبذلك تستأنف حضارة التوحيد نهوضها من جديد.

فمن المعلوم أن «الدين» هو الذي يقود مسيرة الحضارات في فجر تاريخها الصادق، ويهيمن عليها، ويعمر ضميرها، ويرسي قواعد سلوكياتها واخلاقياتها، حتى إذا قويت واشتد ساعدها وعلا ضحاها ودلفت الى ظهيرة عمرها جاء دور العقل لينشر سلطانه فوقها،

ويستحكم فيها، ويتحكم بها، وربما صار وثناً يتعبد له الناس من دون الله تعالىٰ.. ثم تمضي في سيرها حتىٰ تميل شمسها نحو الزوال ثم الغروب، فإذا بالعقل يتخلى عن عرشه، ويتركه للحس ليتربع فوقه ويصبح هذا الحسّ سيد العقل وسلطانه بعد أن كان خادماً له.

ولا يعني هذ التقسيم الاعتباري لأدوار الحضارات أن هناك حواجز وفواصل ظاهرة وحادة بين دور ودور. فقد تتداخل الأدوار بعضها ببعض، غير أن طابعاً عاماً يظل يميز الأدوار، ويدفعها بشارته، ويعطي كل جزء زمني منها صفته الغالبة عليه.

والدور الحسي الذي يطغي اليوم على حضارة الغرب، قد فجّر حسيّات الانسان الى آخر مداها وطاقاتها، وفجّر مع ذلك حسّ الأرض والسماء، وأثار خفايا الارض بترابها ومائها وهوائها، فإذا بها تتزلزل وتلقي بأثقالها وأسرارها بين يديه ليبتني من عناصرها مدنيته الحسيّة الباردة المفتقرة الى دفءِ الروح وشفافية الدين والإيمان.

وقد واكب هذه الحسية أدبها وفنها اللذان يزينان للانسان الاستغراق حتىٰ آخر حبّة حسٍّ فيه في شهواته وملذاته.. ولعلَّ ثمار هذه الحسيّة ترجع في جذورها الى ذلك التصور الحسّي الشاذ للألوهية والربوبية في العقيدة التي يدين بها أبناؤها.

غير أن للنورسي موقفاً من الحسية يخالف به مَنْ يرىٰ أنها انتكاسة في النفس الانسانية لا ينبغي للانسان ان يهبط اليها، لأن الحس والشعور مترشحان عن الحياة بل هما خلاصتها، فليس إماتة الحواس وتعطيل وظيفتها هي طريق الانسان للارتقاء الروحي كما يرى البعض،

بل على العكس من ذلك يرى: أن الحسّ الانساني بأذواقه وألطافه ومسرّاته والآمه، إذا وعىٰ وأدرك، وذاق وتألق، وتهذب ورهف وثقُف، صار سبيل الانسان الى المعارف الإلهية وطريقه الى الارتقاءات القلبية والروحية، لأن ما من لطيفة من لطائف الانسان أو جارحة من جوارحه، الا ويمكن أن تصبح طريقه الى الله تعالى إذا أحسن توظيفها في الغاية المرجوة.

فالسمع والبصر والفؤاد والعقل، كل هؤلاء موضع الخطاب القرآني، وهي مناط التكليف في الدنيا والمسؤولية في الآخرة.

فالاسلام أو بالاحرىٰ حضارة الاسلام إنما هي وحدة واحدة تبدأ بالعقيدة وتنتهي اليها، فالروح والعقل والحس، يتداخل بعضها في بعض وتمشي جميعها جنباً الى جنب في كافة مراحل تطورها، لذلك كانت الآخرة ـ بجنتها ونارها ـ بناء حيّ تتعذب فيها حواس الانسان او تتنعم، كما أن غالبية معجزات الأنبياء عليهم السلام معجزات حسيّة تتحدى أسماع الناس وابصارهم.

لأن النبي أو الرسول إنما يتعامل في إتيانه بالمعجزة مع مادة الكون المشاهدة والمحسوسة ففي خرقه لبعض النواميس والسنن الكونية ساعةَ الحاجة اليها ليس أمراً مستغرباً من إنسان هو جزء مهم من هذه النواميس والسنن ولكنه ليس حبيسها ولا سجينها، غير أن الكون هو سجين نواميسه، وحبيس سننه.

فالنبي او الرسول عليهما السلام قد يكسر بمعجزاته جانباً من هذه الأغلال والقيود التي تكبل الكون، فيستجيب لهذا الكسر أو الخرق ـ

شأن الانسان الحبيس ـ استرواحاً وتخفيفاً من بعض قيوده الثقال ولو للحظة واحدة.

وهذه المعجزات وإن كانت قد أعطيت للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، لتحدي أقوامهم، وتوكيد نبوتهم ورسالتهم، الا أن فيها الى جانب هذا الهدف الأهم أهدافاً أخرىٰ تنطوي ـ كما يرىٰ «النورسي» ـ على اشارات علمية، وبشارات بمستقبل علمي زاهر ستحققه البشرية يوماً ما في تاريخها الطويل، كما أنها ـ أي المعجزات ـ ترسل للبشرية من مكانها وزمانها البعيدين حافزات لقواها العقلية كي تطور قدراتها العلمية، وتحاول اللحاق بقدر المستطاع الانساني بالنهايات التي حققتها المعجزات.

فإذا كان «النورسي» قد ربط هذا الربط الذكي بين المعجزة وبين العلم، الا أنه يرى أن «القدرة» هي روح المعجزة وقوامها، بينما «الحكمة» هي روح العلم وقوامه، فالمعجزة تقع بالأمر الألهي: «كوني» فتكون، بينما العلم لا يأتي الا بالجهد والصبر والعمل الانساني الدؤوب.

فالعلم من وجهة نظر «النورسي» يطلعنا على مظهر من مظاهر قوة الله وعظمته الكامنة في لغزه، والجارية في خفاياه، وهو جدير بالمؤمنين قبل غيرهم، لذا يجب أن يكون في كل طوبه من صرحه العظيم قلب مؤمن وحسّ مسلم، وعقل عابد، لا قلب كافر، ونفس ملحد، وقد آن لهم أن يكفوا، أن يكونوا من طالبيه لدى الآخرين، بل من صانعيه لانفسهم بأنفسهم، فهو الحق القوي الذي يحتاجونه اليوم حاجتهم الى الماء والهواء.. ولأن العلم هو النَفَسُ المنفوث من وحي الله، والمودع في

شأن الانسـان الحبيس ـ استرواحاً وتخـفيفـاً من بعض قيوده الثـقال ولو للحظة واحدة.

وهذه المعـجزات وإن كـانت قـد أعطيت لـلأنبيـاء والرسل عليـهم الصلاة والسـلام، لتحدي أقوامـهم، وتوكيد نبوتهم ورسـالتهم، الا أن فيـها الى جانب هذا الهـدف الأهم أهدافاً أخـرىٰ تنطوي ـ كمـا يرىٰ « النورسي » ـ على اشـارات علمـيـة، وبشـارات بمسـتـقبل علمي زاهر ستحققه البشرية يوماً مـا في تاريخها الطويل، كما أنها ـ أي المعجزات ـ ترسل للبـشرية من مكانها وزمـانها البعـيدين حافـزات لقواها العـقلية كي تطور قـدراتها العلـميـة، وتحاول اللحـاق بقـدر المستطاع الانسـاني بالنهايات التي حققتها المعجزات.

فـإذا كان « النورسي » قـد ربط هذا الربط الذكـي بين المعجـزة وبين العلم، الا أنه يـرى أن « القـدرة » هي روح المعـجـزة وقـوامـهـا، بـينمـا « الحكمـة » هي روح العلم وقـوامـه، فـالمعـجـزة تقع بالأمـر الألهي: « كـوني » فتـكون، بينمـا العلـم لا يأتي الا بالجـهـد والصبـر والعـمل الانساني الدؤوب.

فالعلـم من وجهة نظر « الـنورسي » يطلعنا على مظهر من مظـاهر قوة الله وعظمته الكامنة في لغزه، والجـارية في خفاياه، وهو جدير بالمؤمنين قبل غـيرهـم، لذا يجب أن يكون في كل طوبه من صـرحه العظيم قلب مؤمن وحسّ مسلم، وعقل عابد، لا قـلب كافر، ونفس ملحد، وقد آن لهـم أن يكفـوا، أن يكونوا من طالبـيـه لدى الآخـرين، بل من صـانعيـه لانفسهم بأنفسهم، فهو الحق القويِ الذي يحتاجونه اليوم حاجتهم الى الماء والهواء.. ولأن العلم هو الـنَفَسُ المنفوث من وحي الله، والمودع في

كمـا أن دماغ الانسـان ـ الشبـيه بمجمع مـركزي للبث والاسـتقبال السلكي واللاسلكي ـ هو بمثـابة مركز معنوي لـهذا الكون، يستقبـل ما في الكون من عـلوم وفنون ويكشف عنهـا، ويبـثـهـا ايضـاً، فإن قلب الانسان كذلك هو محور لما لا يحد من حقائق الكون والمظهر لها، بل هو نواتها».

والنورسي في هذه التجـربة الفريدة إنما يفتح الطريق لاحـبةً لمنْ يريد سلوكـهـا، ويرسي مـعـالـم فكر وجـداني كـوني النظـرة، إيماني الملمح، يمكن لكـل أديب او متـأدب او صـاحـب قلـم أن ينهل منه، ويـحـذو حـذوه، وينسج عـلى منواله، في إثراء «أدب الإيمان» ومنـحـه الابعـاد الكونية التي تعمق رسوخ قدمـه، وترفع من علو صرحه، في هذا العصر الذي غدا الكون فيـه موضع نظر الانسان، ومحل فكـره، وحقل علمه، ومسار سفره، وساحة تجاربه؛ في طي الأزمان واختصار المسافات.

وقـد اسـتطاع النـورسي أن يوظف بمهـارة فـائقـة الملاحـم الكونيـة، ودلالاتهـا الـرمـزية في تربيـة «الوجـدان الإيماني» الـذي يرئ في هذه العلوم وتطبيقاتها بعض ما أومأ اليه الدين وأشار اليه منذ أيامه الأولى.

فتـربية وجـدان المسلم، وتلوينه بلون العـصر الذي يعايـشه من دون مسخـه او استلاب أصالتـه، كان وما يزال من أبرز اهتمـامات المفكرين والمربين منذ بواكير الاسلام الأولى،

وحـتى يومنا هذا، وقـد سجل التـاريخ، اسـماء جـمهـرة كـبيـرة من هؤلاء المربين في مخـتلف عصـوره وأزمانه، كانوا قـد أسهـمـوا بقدر أو بآخر في تشكيل هذ الوجدان وتهيئته لمتطلبات زمانهم.

والنورسي شأنه شأن المربين الآخرين قد كرس معظم جهده لتربية وجدان المسلم في هذا العصر الكوني الذي يظلنا، ويسيطر على اهتمامات العلماء والمفكرين وقادة الرأي على مختلف مناحيهم واتجاهاتهم، فهو يرفض للمسلم أن يحيا على هامش العصر، أو على حافاته البعيدة منزوياً طلباً للسلامة والنجاة من تكاليفه ومسؤولياته، بل يريد له ان يحيا في قلبه، وفي الحشاشة من لبه، يتأثر به، ويؤثر فيه.

ونقطة الانطلاق في منهاج « النورسي » التربوي تبدأ من « الحياة » التي تتلبس الانسان، وكلّ شئ حي، مروراً بالكون، ووصولاً في نهاية المطاف الى خالق الكون والانسان: ﴿ **وإنّ الى ربّك المنتهىٰ** ﴾.

فالحياة في الانسان شئ جميل ومقدس، تكتسب قدسيتها من قداسة المانح والمعطي خالق الحياة، فاذا اقتنع الانسان بقداسة الحياة التي بين جنبيه، واعتقد نفاستها وعظمتها، وطهارة منبعها، حرص عليها، ولم يلوثها او يدنسها، ولم يفرط بها، أو يتهاون في شأن ترقيتها، او يحقرها ويهبط بها، أو يحسّها عبئاً ثقيلاً يرغب ـ أحياناً ـ بالتخلص منها، أو ينزل بها منازل الحيوان، أو يجعلها في خدمة مَنْ يعطي فيها ثمناً أعلى، او يركسها وينحط بها الى درك الدنس والخنا والخسة والجريمة.

فالحياة ـ كما يصورها« النورسي » ـ: (هي خلاصة مترشحة من هذا الكون.. والشعور والحسّ مترشحان من الحياة، فهما خلاصتها، والعقل مترشح من الشعور والحس فهو خلاصة الشعور).

فاذن الجهل بالكون يعني جهلنا بالحياة نفسها، كما أن معرفة أي جزء منه تستلزم معرفة شاملة بأسراره، مما يهئ للانسان فرصة التعلم،

وهكذا يدخل دائرة التعلم انْ لم يكن مؤهلاً ليصبح من مبدعي العلماء، الأمر الذي يدفع به الى روح عصره غير بعيد ولا منكفئ ولا هامشي على زمانه ووقته. ومع ذلك فإنه ينبغي الا يغيب عن بالنا بأن «العلم» إنما يأخذنا الى ما هو نسبي وتقريبي من الاشياء، فمازال العلم حتى هذه الساعة عاجزاً عن اكتشاف أصول الاشياء وحقائق كنهها وماهياتها، وإن كانت له اليد الطولىٰ في اكتشاف علائقها بعضها مع البعض الآخر، اذ لا يوجد في العلوم ما هو مطلق الصحة، ففي الكثير منها اجزاء افتراضية، حتى أن القوانين العلمية نفسها ليست من الحقائق المطلقة.. غير ان النفس البشرية تسلك بنا سبيل المطلق على الدوام، فهي تبحث وتفتش عن «المطلق» الذي يملؤها عظمة وخشوعاً وجلالاً..

ولا يتصورنَّ أحد ـ كما ينبه النورسي ـ أن البحث عن المطلق وانبعاث الاشواق اليه، والتعلق به، من حيث كونه يشكل عنصراً مهماً من عناصر مكونات «وجدان المسلم» يعني الهروب من العقلي الى «اللاعقلي»، أو الانسلاخ من المنطقي الى «اللامنطقي» كما يريد أن يوهمنا بعض المحسوبين على العلم والعقل.

فما من حقيقة دينية ــ اذا ما فحصت جيداً ــ الا وتنطوي على عناصر عقلية، كما أن اشد الفلسفات عقلية تشتمل على كثير من العناصر الدينية اذا تعمقنا أصولها وأساسياتها. وفي الغالب ترى أنصار المذهب الوجداني يأتون بأدق البراهين العقلية كما هو مشاهد مثلاً عند «الغزالي» و «النورسي» وغيرهما.

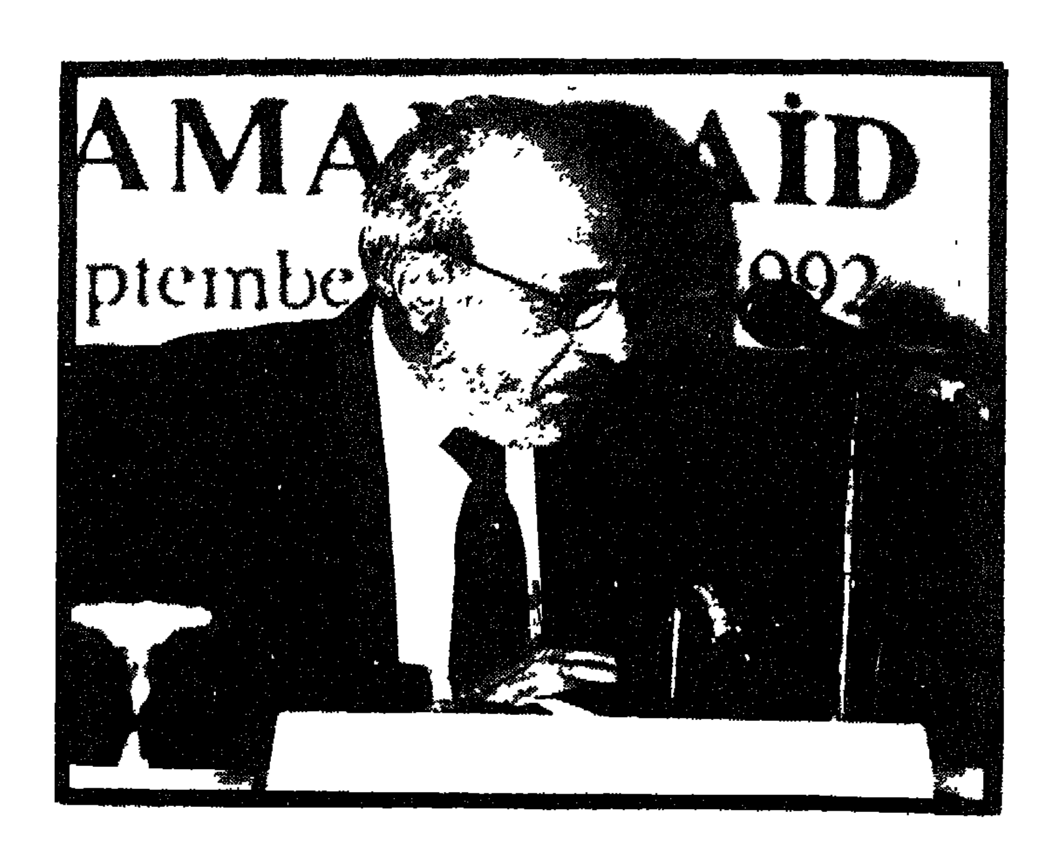
فإبعاد الدين عن الدائرة المنطقية والعقلية مسألة فيها نظر، فالدين الحق الذي لم تصبه يد التحريف، او تدخله عناصر غريبة عنه، هو دين عقلي لا يجافي العقل، أو يناكف المنطق، وما «علم الكلام» الاسلامي في زمانه الا مرحلة متقدمة من مرحلة «عقلنة الأسلام» وصورة من صور هذه «العقلنة» ما قبل عصر العلم الحديث، وقد أمكن تطوير هذا العلم ـ كما فعل النورسي ـ ليلاءم العصر العلمي والكوني الذي نعيش أيامه.

ونكاد نلمس صدق هذا الكلام فيما نضح عن فكر «النورسي» من «وجدانيات» ارتفع ببراهينها العقلية حدّ اكثر العقول منطقيةً، وسما بها سمواً يكاد يلامس صفاء اعظم الارواح الشاعرية شاعرية، ففي كلامه عن تدفق الحياة وسريانها الموسيقي المتناغم في أوصال الكون، وماتبثه من عزاء في نفوس المغتربين بإيمانهم وعقيدتهم يقول مخاطباً طلبته:

(لو سكن طنين البعوض، وهدأ دوي النحل، وصمتت كل الاصوات، فلا تأسوا ولا تحزنوا، ولا تخمد أشواقكم، أو تضعف همتكم أبداً.. لأن الموسيقىٰ الالهية العظيمة التي تجعل بنغماتها الكون في رقص وانتشاءاً، وتهز بأشجانها أسرار الحقائق، لن تسكن أبداً، ولن تهدأ... بل تستمر قويةً عاليةً هادرة تعلن عن مبدع الوجود الذي ينتهي اليه كل موجود).

أجل، إنها لن تسكن ولن تهدأ.. وتظلُّ تهتف بكم ومعها صوت النورسي آتياً من وراء الغيب:

«انهض من جديد أيها المسلم العجوز.. شقَّ اكفان عجزك.. وانفض عنك تراب قبرك.. انبعث فتياً ممتلئاً حياة وقوة وعزماً ايها الشيخ الفاني.. عد أيها الغريب المتواري وراء الزمان فقد طال شوق الدنيا اليك.. توارَ يا شتاء الروح.. وتفتح يا ربيع العقل.. وازدهري بأزهار الايمان ايتها النفوس المجدبة.. تهللي يا غربة الاسلام.. وابتهجو وابشروا يا خدام القرآن.. يا غرباء هذا العصر.. فرسولكم ﷺ قد قال فيكم: (بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً، فطوبىٰ للغرباء).



احمد بهجت

- واحد من نجوم الصحافة المصرية والعربية، وكاتب له اتجاهه الاسلامي.
- يعمل نائباً لرئيس تحرير جريدة الاهرام القاهرية، وله عمود يومي شهير اسمه صندوق الدنيا، وهو عمود يقرأه يومياً مليون قارئ.. هو عدد قراء الجريدة.
- كتب ٣٥ كتاباً منها ما هو اسلامي بحت ومنها ما هو نقد اجتماعي ومنها ما هو ادبي ساخر وقد ترجمت له ٤ كتب الى اللغات الانكليزية والفرنسية والهندية والصربو الكرواتيه.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سعيد النورسى

الرجل والدور

في الدنيا ناس كثيرون يلعنون الظلام.. ولكن.. ماأشد ندرة القادرين على اضاءة شمعة وتبديد الظلام..

ولقد كان الصوفى التركى المجاهد المجدد سعيد النورسى واحدا من هؤلاء القادرين النادرين..

لقد اختار رسائل النور اسما لمباحثه

كان يدرك اهمية النور في حياة البشر... وكان يعرف ان النور الخارجى اذا كان لازما لحركة البشر، فان النور الداخلى لازم لحركة الضمير الانسانى والفؤاد.. وبغير هذا النور الداخلى لايهتدى الانسان لدوره على الارض، ولايعرف له ربا في السماء..

ولد سعيد النورسى في قرية نورس احدى قرى خيزان التابعة لولاية بتليس شرق الاناضول سنة ١٨٧٦ ميلادية.. وكان ابوه صوفياً ورعاً يضرب به المثل في الامانة..

وكان الاب اذا عاد بمواشيه من المرعى ربط افواهها لكى لا تأكل شيئاً من مزارع الآخرين..

واتجه الابن الى العلوم الدينية والمدنية ونبغ فيهما معاً واشتهر بذكائه واخلاصه.. وقد ولد سعيد النورسى في عهد السلطان عبد الحميد الثانى، اى في اواخر عمر الدولة العثمانية الآيلة للسقوط، وعاصر تكالب الاعداء وتزاحمهم للقضاء على هذه الدولة..

كان الحقد الاسود على الاسلام يحركهم، وكان شخص دولة الخلافة هو الرمز الذى وجهت اليه سهام الحقد المسموم..

ورغم ما بذله السلطان عبد الحميد ليبقى دولة الاسلام على قدميها خلال ٣٣ سنة، الا ان المؤامرة كانت احكم من ان تترك دولة الخلافة تحيا، وكان اعوان الغرب والدوائر الاجنبية قد زرعوا عملاءهم باحكام في قلب الدولة، وكان كل شئ مهيأ لاسقاط رجل أوربا المريض، وهو الاسم الذى اطلقه الغرب على السلطان عبد الحميد ودولة الخلافة التى يمثلها ويرمز اليها.. ولم يستطع السلطان رغم نيته الطيبة ان يحول دون وقوع المؤامرة وسقوط دولة الخلافة.. او يحفظ اسمه من التشويه الذى شوهته له دعاية الغرب. ومن هذا الجو الدرامى المشحون ولد سعيد النورسى فحمل هموم الامة وساهم في تنويرها.

كان الوعى لاينقص سعيد النورسى، كما كانت الشجاعة صفة من صفاته النادرة التى التصقت بشخصيته وصارت جزءاً متمماً لشخصيته..

من دلائل وعيه وشجاعته ما كان من أمره مع العريضة التى قدمها للسلطان عبد الحميد، وهى عريضة طالب فيها بفتح المدارس التى تعلم العلوم الرياضية والطبيعية والكمياء، الى جوار المدارس الدينية في شرق الاناضول، حيث يخيم الجهل والفقر على سكانه..

وقد اعجب السلطان بوعيه واستدعاه، وخلال هذا اللقاء انتقد سعيد النورسى نظام الامن والاستخبارات بقصر يلدز حيث كان يعيش السلطان، الامر الذى اثار نقمة حاشية السلطان التى لا تمثل فكرة السلطان فحولوه الى محكمة عسكرية..

وفي هذه المحكمة تكلم بجرأة كبيرة، وتحدث عن السلطان بوصفه السلطان المظلوم، وكان قصده انه مظلوم لان حاشيته وكثير من معاونيه لايفهمونه ولا يحاولون خدمته بل ويخربون افكاره... واحالته المحكمة الى الاطباء الذين احالوه بدورهم الى مستشفى طوب طاش للمجانين، ثم افرج عنه بعد ان ثبت انه اعقل من اطبائه وسجانيه ، واستدعاه وزير الداخلية ودار بينهما هذا الحديث :

قال الوزير: ان السلطان يخصك بالسلام، مع مرتب ألف قرش« عشر جنيهات »

بديع الزمان: لم اكن ابداً متسول مرتب.. ولن اقبله ولو كان الف ليرة، انتم تعرضون عليّ رشوة لأصمت.. ولن أصمت.

قال وزير الداخلية: انك بهذا ترد الارادة السلطانية، والارادة لاترد.

قال بديع الزمان: اننى ارد لكى يستاء السلطان ويستدعينى، وعندئذ اقول له قولة الحق..

قال الوزير: ان العاقبة لن تكون سارة.

قال بديع الزمان: تعددت الاسباب والموت واحد.. لئن اعدمت فسوف ارقد في قلب الامة، اننى اريد ان اوقظ ابناء الامة، وانا افعل

ذلك بوصفي فرداً من هذا البلد، وليس قصدي ان اقتطف من ورائه مرتباً.. انني معذور عندما ارفض المرتب .

قال وزير الداخلية: ان ما ترمي اليه من نشر المعارف في بلدك هو موضع دراسته في مجلس الوزراء حالياً.

قال بديع الزمان: اذن لماذا يتأخر نشر المعارف، ويستعجل في امر المرتب، لماذا تؤثرون منفعتي الشخصية على المنفعة العامة للامة؟

حين كان سعيد النورسي في الثلاثين من عمره، زار استانبول في هذه الفترة «الشيخ بخيت المطيعي» مفتي الديار المصرية.. واراد علماء استانبول الذين عجزوا عن الزام النورسي بحجتهم، ان يقابل الشيخ هذا الشاب التركي الذي اعياهم قياده..

وقد حدث اللقاء، وكان السؤال الذي وجهه الشيخ المطيعي هو التالي:

– ما رأيك في الحرية الموجودة الآن في الدولة العثمانية، وماذا تقول في مدنية اوربا..

قال سعيد النورسي: الدولة العثمانية حبلى حالياً بجنين اوربا وستلد يوماً ما، اما اوربا فهي الاخرى حبلى بجنين الاسلام وستلد يوماً ما. وامام هذا الجواب الموجز العميق قال الشيخ بخيت:

– انني اوافق على كلامه، وانا احمل هذا الرأي نفسه.. ولا معنى للمناظرة مع هذا الشاب..

والحق ان بديع الزمان سعيد النورسي عاش حياة صعبة، فالى جوار عطائه في الدروس وجهده الذي كان يبذله فيه، فقد ظل طوال حياته

هدفاً لمطاردة السلطة، او هدفاً لمحاكمات عديدة.. وحكم عليه بالاعدام اكثر من مرة، وكانت عناية الله تعالى تنقذه في اللحظات الاخيرة..

ولم يكن النورسى يتردد في قول الحق حتى في أحرج الظروف..

كان خورشيد باشا الحاكم العسكرى يحاكمه بتهمة عقوبتها الشنق... قال له:

– انت ايضاً تدعو الى تطبيق الشريعة.. الاتعرف ان من يطالب بهذا يشنق..

وقف النورسى وقال للمحكمة كلاماً ختمه بقوله:

– لو ان لى الف روح لما ترددت ان اجعلها فداء لحقيقة واحدة من حقائق الاسلام.. لقد كانت هذه الحكومة تخاصم العقل ايام الاستبداد، اما الآن فانها تعادى الحياة ذاتها، وما دامت الحكومة هكذا فليعش الجنون وليحيا الموت وللظالمين عاشت جهنم..

ولقد كانت حياته سلسلة من المحاكمات والنفى والابعاد وتحديد الاقامة.. وكانت جريمته الواحدة التى حوكم عنها عشرات المرات انه رجل يدعو الى الله، ويدعو الى ان يكون الاسلام حاكماً في قلوب الناس، وان تكون شريعته قانوناً مطبقاً في الحياة...

ولقد كان هذا الحق الطبيعى في هذه السنوات هو اخطر تهمة يمكن ان توجه لانسان بعد ولاية مصطفى كمال اتاتورك..

وفي هذه السنوات الحالكمة في حياة تركيا، الغيت الخلافة، والغيت قوانين الشريعة واستبدلت بالقوانين الاجنبية. والغيت الحروف

العربية واستخدمت بدلاً منها الحروف الاتينية — حتى يفصل النظام بين الناس ومنابع شريعتهم في لغتها العربية — وتحول الاذان من اللغة العربية الى اللغة التركية، واصبح محرماً على الناس ارتداء ملابس الشيوخ، وتم قهر الناس على لبس الملابس الافرنجية بالقبعة.. واعلنت علمانية الدولة.. وبدأ اضطهاد المشايخ ورجال الدين، واصبح الامر بالرغبة في تطبيق الشريعة الاسلامية جريمة كبرى تتصل بأمن الدولة العليا ولها عقوبتها وهى الشنق.

في هذا الجو المسموم تم حذف دروس الدين من المدارس، كما حذفت كلمات الخالق.. والرب.. والله جل جلاله من كتب المدارس، ووضعت بدلا منها كلمات الطبيعة والتطور والوطنية والقومية..

كان الهدف هو محو مفهوم الاله ومحو فكرة الخالق من الاذهان، واصبحت النظرة الى المتدينين تعتبرهم جماعة من الافاقيين الذين يصدقون في وجود شئ وراء الطبيعة..

سنة ١٩٣٢ نشرت في استانبول بتركيا دائرة معارف الحياة، ماذا كتبت دائرة المعارف هذه — او بمعنى اصح دائرة الجهالات — تحت كلمة لفظ الجلالة «الله»..

كتبت دائرة المعارف التركية في عهد العلمانية تقول «ان الفكرة التى تريد الاديان الموجودة حالياً ان تبثها هى ان الله واحد، وانه هو الذى خلق الكون، ولكن التقدم العلمى بدأ يوضح لنا شيئاً فشيئاً ان هذه الفكرة باطلة، وانه لاوجود لشئ اسمه «الله»، وقد انتشرت فكرة عدم الاعتقاد بالله بين اوساط المثقفين».. هذا ما كتبته دائرة المعارف التركية..

في هذا الجو الكئيب كان الاسلام يتعرض لحرب علنية تشنها الحكومة بكل اجهزتها.. وفي هذه السنوات الحالكة السواد، اشعل سعيد النورسى شمعة لتبديد الظلام، وقال في تقديم نفسه «اننى لست شيخ طريقة، فالوقت الان ليس وقت طرق صوفية، بل وقت انقاذ الايمان». لقد كان انقاذ الايمان هو القضية التى لاتتحمل التأجيل لحظة واحدة.

بدأ سعيد النورسى كفاحه من اجل انقاذ الايمان.. ومر في كفاحه باكثر من مرحلة كما يحدثنا هو نفسه في كتاباته..

في المرحلة الاولى حاول خدمة الاسلام عن طريق الخوض في غمار السياسه..

كان يسبح ضد التيار ويحاول صد التيارات المعادية للاسلام عن طريق العمل السياسى، قابل السلطان عبد الحميد ونصحه، وكتب المقالات السياسية في جريدة وولقان، وحاول التأثير في رجال الاتحاد والترقى لدفعهم الى الجانب الاسلامى، وحاول في انقرة التأثير في اعضاء مجلس النواب وتقوية الجانب السياسى فيهم، وتعرض للقبض والتحقيق والمحاكمة اكثر من مرة..

ثم ادرك بذكائه وحكمته استحالة خدمة الاسلام بالدخول في معترك السياسة ودهاليزها وصراعاتها العقيمة..

لقد اغلقت المدارس الدينية وتحولت مئات المساجد الى مخازن او اسطبلات او مراكز للشباب.. وهكذا اطلق سعيد النورسى الحياة السياسية وقال كلمته الشهيرة في ذلك «اعوذ بالله من الشيطان والسياسة».

وقد لاحظ سعيد النورسى خلال خوضه غمار العمل السياسي انه في حاجة الى استخدام الادوات المتاحة، وهم البشر، وكان هؤلاء البشر على قدر من الانتهازية. كما كان ايمانهم ناقصاً، وتساءل سعيد بينه وبين نفسه هل يمكن خدمة الاسلام باناس لايملكون ايماناً كاملاً، هل يمكن خدمة الاسلام بنفوس لم تعرف الاسلام جيداً ولم تتشرب به..

الا يكون ذلك اكبر تشويه لصورة الاسلام واكبر اذى يمكن الحاقه به..

ان هذا ما يريده الغرب المتربص بالاسلام..

بهذه النظرة العميقة والمتأنية، وبعيداً عن الحماس والارتجال، ادار ظهره لعالم السياسة، وكتب يقول عن نفسه «لقد خاض سعيد القديم غمار السياسة ما يزيد على عشر سنوات، لعله يخدم الدين والعلم عن طريقها، ولكن محاولته ذهبت ادراج الرياح..

لماذا.. لان اغلب السياسة خداع واكاذيب، وهناك احتمال ان يكون الشخص آلة بيد الاجنبى دون ان يشعر، ومضى سعيد النورسى يعدد اسباب تركه للعمل السياسى وختم كتابته بقوله.. لاجل هذا كله فان سعيداً القديم قد ترك السياسة ومجالسها الدنيوية كما ترك السيجارة وقراءة الجرائد.

صرف سعيد النورسى همه لاملاء رسائل النور على تلاميذه ومحبيه..

كانت الرسائل في جوهرها محاوله ناجحة للدعوة الى الله، عن طريق ايقاظ القلب وتنويره بالاسلام..

وتبدو رسائل النور رسائل عادية لشرح مفاهيم الاسلام، والدعوة الى الله، ولكنها في حقيقتها تفسير قيم للقرآن الكريم، وهو تفسير تجتمع له خصائص لا تجتمع لغيرة من التفاسير..

اهمها ان القرآن الكريم كان هو وحده استاذ النورسى ومرشده، فلم يغادره الى كتاب آخر، ولم يتخذ غيره مصدراً.

ولقد قيل: كيف تعتبر رسائل النور تفسيراً للقرآن الكريم مع انها لا تشبه التفاسير المتداولة.؟

ان الجواب على هذا السؤال: ان التفسير نوعان:

الاول: هو تفسير اللفظ والعبارة والجملة في الآية الكريمة.

الثاني: هو اثبات الحقائق الايمانية للقرآن الكريم اثباتاً مدعماً بالحجج والبراهين.. ولقد كان تفسير النورسى من النوع الثانى.

ان القرآن الكريم بحر لا تنتهى كنوزه.. ان لكل تفسير عصره، وكل عصر يقدم تفسيره طبقاً لعلوم العصر واكتشافاته ورحابة معرفته..

ان الله تبارك وتعالى يقول ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم، وانه لقسم لو تعلمون عظيم** ﴾.

ان فهم القدماء وتفسيرهم لهذه الآية، لايشبه فهم المحدثين لها. ان فهم المحدثين والمعاصرين اعمق.. لقد كشف التقدم في علم الفلك ان الشعاع الضوئى لبعض النجوم يستغرق اربعة الاف سنة ضوئية لكى

يصل الى الارض، وهذا يعنى ان الشعاع سوف يسير بسرعة ٣٠٠ الف كليومتر في الثانية لمدة أربعة الاف سنة.

هنا نفهم عظمة القَسم الالهى بمواقع النجوم.. وهنا يتضح معنى الآية عند المعاصرين اكثر من اتضاحه عند القدماء...

وهكذا عكف سعيد النورسى على املاء رسائل النور، واستمر في مهمته حتى دخل في المرحلة الثالثة من نشاطه حين بدأ تدريسه الجماعى لرسائل النور.. اضافة الى قيامه بنصح السياسيين ورجال الحكم باتباع الاسلام، دون ان يدخل بنفسه في معترك السياسة.

* * *

في العشرينات من هذا القرن..

نشبت ثورة في الاقاليم الشرقية في تركيا بقيادة الشيخ سعيد پيران، وكان هذا زعيماً بارزاً في العشائر الكردية..

وكانت هذه الثورة موجهة ضد سياسة مصطفى كمال اتاتورك الذى اثار نقمة الشعب ضده بسبب موقفه المعادى للاسلام..

وقبيل اندلاع الثورة ارسل الشيخ سعيد پيران رسائل الى الاستاذ سعيد النورسى يطلب منه الاشتراك معه في الثورة ضد حكومة انقرة، فرفض لعدم رغبته في اراقة دم المسلمين الابرياء في حركة لا امل فيها.. وجرى بينه وبين حسين باشا رئيس احدى العشائر الكردية هذا الحوار:

حسين باشا: اريد ان استشيرك في امر، ان جنودى حاضرون والخيول موجودة وكذلك الاسلحة والذخائر. وانا انتظر امراً منكم.

سعيد النورسى: ماذا تقول.. ومن ستحارب؟

حسين باشا: سنحارب مصطفى كمال

سعيد النورسى: من هم جنود مصطفى كمال؟

حسين باشا: ماذا اقول.. انهم جنود!!

سعيد النورسى: ان جنوده مسلمون من ابناء هذا الوطن، هم اقرباؤك واقربائى، من تقتل..ومن يقتلون.. فكر وافهم.. انك تريد ان يقتل الاخ المسلم اخاه المسلم.

حسين باشا: الموت افضل من هذه الحياة...

سعيد النورسى: وما ذنب الحياة.. اذا كنت قد مللت حياتك، فما هو ذنب المسلمين المساكين؟

حسين باشا: (حائرا) لقد أفسدت عزيمتى ورغبتى، كيف اقابل عشيرتى التى تنتظر عودتى.. ماذا يكون رأيهم في، انهم سيظنون اننى جبنت.. لقد ضعيت قيمتى بين عشيرتى.

سعيد النورسى: لايهم ان تكون قيمتك صفراً عند الناس، مادمت مقبولاً عند الله تعالى

حسين باشا: نحن نريد تطبيق الشريعة الاسلامية

سعيد النورسى: اتريد تطبيق الشريعة الاسلامية.؟ ان تطبيق الشريعة لايكون بهذه الطريقة...

لم يكن سعيد النورسى يرغب في عدم اراقة دم المسلمين فحسب، وانما ايضاً كان لايثق بهؤلاء الاشخاص ومدى وعيهم الاسلامى ومدى قدرتهم على تمثيل الاسلام..

ولهذا السبب الجوهرى ورد في حواره مع حسين باشا قوله:

– يا حسين باشا.. لو قلت لك تعال مع جنودك الثلاثمائة لتطبيق الشريعة، فان جنودك وهم طريقهم الى هنا، سيقومون بنهب وسلب وقتل كل من يمرون عليه في الطريق، وهذا مخالف للشريعة، كيف تطبقون الشريعة عن طريق مخالفتها.

* * *

كان وعى سعيد النورسى بالعدل عميقاً، ومن هنا كان وعيه بالاسلام عميقاً... لم يكن على استعداد لان يظلم تحت اى شعار من شعارات الانصاف او العدل، كان يريد ان يكون شعاره منطبقاً مع أفعاله، وان تكون اقواله هى الترجمة الفعلية لافعاله..

ورغم رفضه الاشتراك في حركة الشيخ سعيد پيران، واقناعه رؤساء العشائر الكردية بعدم الاشتراك في قتال جنود مصطفى كمال، رغم ذلك لم يسلم موقفه هذا من غضب حكومة انقرة..

وهكذا ارسلوا اليه مجموعة من الجنود والضباط لاعتقاله.. ومن هناك نقل الى استانبول.. ثم عاد ينقل الى مدينة بوردور .. ثم الى مدينة اسبارطة. واستغل الاستاذ سعيد النورسى هذه الفترة في تأليف رسائل النور.. وهى رسائل كانت تستنسخ باليد، ويتداولها الطلاب والمحبون، وتنتشر وسط الناس انتشار النار في الهشيم..

وبعد ان كانت الحكومة تتبعه وحده .. بدأت تطارده وتطارد معه رسائل النور.. حدث هذا في حياته وبعد وفاته..

استمرت مطاردة رسائل النور، واصبح من المشاهد المتكررة والمألوفة مشاهد المحاكمات التى تقيمها الدولة لطلاب رسائل النور على اختلاف نوعياتهم وتخصصاتهم.

وعبثاً حاولت الحكومات المتعاقبة ان تطفئ هذه الشعلة التى اشعلها سعيد النورسى واستمدها من القرآن الكريم.

في صباح يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٦٠، الموافق للخامس والعشرين من ايام شهر رمضان سنة ١٣٧٩.. لم ينهض الأستاذ سعيد النورسى لصلاة الفجر، وكشف تلاميذه الغطاء عن وجهه ليعرفوا الحقيقة..

لقد انتقل الاستاذ الى الرفيق الاعلى..

كان الاستاذ في أورفة..

وانتشر الخبر فيها فتجمهر الناس آلافاً حول الفندق الذى يسكن فيه، وبدأ سيل من وفود المعزين يتقاطر على المدينة..

وانهمر المطر رذاذاً وهم يشيعون الاستاذ الى مثواه الاخير في مقبرة «أولو جامع»..

لم يكن هذا المثوى هو المثوى الاخير، فبعد شهرين من وفاته، وقع انقلاب عسكرى اطاح بالحزب الديمقراطى وسيق اعضاء الحكومة الى المحكمة التى سميت بمحكمة الدستور، واعدمت هذه المحكمة رئيس الوزراء عدنان مندريس واثنين من وزرائه، وحكمت على الباقين بالمؤبد والسجن.. وبدأت الحكومة الجديدة في مطاردة التيارات الاسلامية في تركيا ومنها حركة طلاب النور..

بعد مرور خمسة اشهر على وفاة سعيد النورسي، استدعى شقيق الاستاذ الى الوالي حيث خاطبه الجنرال جمال تورال قائلاً:

– ان زواراً عديدين يأتون لزيارة قبر شقيقكم، ولما كنا نعيش في ظروف دقيقة، رأينا ان ننقل رفات شقيقكم – بمعاونتكم طبعاً – الى مكان آخر.. نرجو ان توقع هذه الورقة.

رفض شقيقه في البداية، ولكنهم اجبروه على توقيع الورقة، واتجهوا نحو طائرة عسكرية الى قبره..

وهناك حفروا قبره، واخرجوا جثمانه ووضعوه في تابوت، وحملوا التابوت الى طائرة عسكرية ذهبت به الى مدينة اسپارطة، وهناك دفنوه في مكان لا يعرفه احد..

هذه قصه مجاهد مسلم عاش ٢٨ عاماً من عمره في السجون والمنفى، ولكنه استطاع وحده – بتوفيق من الله وفضل – ان يهز تركيا من ادناها الى اقصاها وان ينطلق خارجها، وان يقذف الرعب في قلوب اعداء الاسلام، وان يحمل بيده شعلة من النور في عصرنا، وان يترك مدرسة تحمل النور وتبدد به ظلام الحياة.



الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح

● استاذ بقسم العقيدة والفلسفة. بكلية أصول الدين جامعة الأزهر. ومعار حالياً للعمل أستاذاً بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر..

●له مؤلفات تزيد على خمسة وثلاثين كتاباً، طبعت في مصر والسعودية وقطر وسوريا ولبنان.

- عضو اتحاد الكتاب بجمهورية مصر العربية.
- وعضو الجمعية الفلسفية المصرية.
- وعضو مؤسسة الحضارة بالمملكة الأردنية الهاشمية.
- يكتب بحوثاً ومقالات لأكثر من عشرين مجلة وصحيفة. و له برامج إذاعية وتليفزيونية في دول الخليج.
- شارك في عدة مؤتمرات عالمية.

الإمام بديع الزمان

سعيد النورسي

وأثره في ترسيخ الإيمان

لقد ظهر سعيد النورسي في فترة حرجة.. كانت أحوج ما يكون إلى الإمام سعيد. لتنمية الإحساس بالحياة، والقدرة على الإشباع العاطفي البناء، والمساهمة الفعالة في ترسيخ الأيمان.

وسعيد النورسي ولد في قرية «نورس» قريبةً من بحيرة «وان» شرقي تركيا عام ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م. ومن هنا اكتسب لقبه: «النورسي».

وسعيد النورسي ولد من أبوين كريمين فاضلين.. فقد كان والده الشيخ «ميرزا» ورعاً، يضرب به المثل في التقوى، والصلاح.. وقد نقل عنه: «أنه لم يذق حراماً ،ولم يطعم أولاده إلا من حلال» ومما يذكر أن أمه «نورية» كانت كذلك قمة في الورع. وينقل عنها أنها قالت: «ما أرضعت أطفالي إلا وأنا على طهر ووضوء».. في هذا البيت الذي يسوده الإيمان، وفي ظل هذه الأسرة الكريمة.. ترعرع سعيد النورسي ونشأ. وبعد سن الطفولة انخرط في سلك طلب العلم، في المدارس الدينية، وهي مؤسسات للتعليم العالي. يمكن اعتبارها مكافئة أو مناظرة للجامعات أو الكليات أو معاهد الدراسات الإسلامية المعاصرة..

وقد اكتشف العلماء والمدرسون الذين أشرفوا على تعليم سعيد.. أن سعيداً يتمتع بمواهب فائقة. فقد أكرمه الله، بذاكرة قوية وحادة، تمكنه من استذكار القطع العربية الصعبة، واستظهارها في وقت قصير جداً.

ومما يروى في هذا الصدد.. أنه كان يستظهر عدداً كبيراً من المراجع الإسلامية الشهيرة.. كما كان يتمتع بقوة ادراك حاد. ساعده ذلك على أن يسير مسافات كبيرة، في مجال العلوم، في مدة زمنية وجيزة. تأخذ من الآخرين سنوات طويلة لدراستها.. ومن ثم استحق أن يطلق عليه اسم: «بديع الزمان»..

لقد سطعت شخصيته ببوارق النبوغ والذكاء، منذ حداثة سنه، وتلقى العلوم الإسلامية، على أشهر علماء عصره، وتبحر في هذه العلوم بجهده الشخصي، ونال إجازته العالمية. وهو ابن أربع عشر سنة.

وقد شغفته العلوم الحديثة، واستأثرت بإهتمامه، فانكب على دراستها منذ سنة ١٨٩٣م في «وان» فدرس الرياضيات،والفلك، والكيمياء، والفيزياء، والجيولوجيا، وغير ذلك من علوم،وألف في البعض منها.. ولما عين عضواً في أعلى مجلس علمي في الدولة العثمانية، وهو: «دار الحكمة الإسلامية» ألف في تلك الفترة، نحو أحد عشر مؤلفاً، حول العقيدة وقضايا الإيمان.

وعندما تعرضت الأمة الإسلامية لتكالب شرس، أدرك سعيد النورسي: أن ميدان الجهاد بالنسبة له، قد انحصر في تربية النفوس على الإيمان.

ـ تربية تجعل الإنسان ايجابيا. يعيش في حركة فكرية، ونفسية، وجسدية، بناءة بعيداً عن السلوك التخريبي.

ـ تربية تؤهل الإنسان للعطاء، وتنمي فيه القدرة على الإنتاج، والإبداع. بما تفتح له من آفاق التفكير والممارسة.

ـ تربية تعد الإنسان إعداداً إنسانياً ناضجاً لممارسة الحياة، بالطريقة التي يرسمها ويخطط أبعادها الإسلام. لأن الحياة في نظر الإسلام: عمل، وبناء، وعطاء،وتنافس في الخيرات.

ـ تربية تجعل الشخصية الإسلامية، شخصية متزنة، لا يطغى على موقفها الإنفعال، ولا يسيطر عليها التفكير المادي، ولا الانحراف الفكري، المتأتي من سيولة العقل وامتداد اللامعقول.

ـ تربية تبني الإنسان على أساس وحدة فكرية، وسلوكية، وعاطفية، متماسكة، على أساس من التنسيق، والتوافق الفكري، والعاطفي، والسلوكي،الملتزم الذي لايعرف التنافض، ولا الشذوذ.

ـ تربية تجعل الإنسان يشعر دوماً أنه مسئول عن الإصلاح. وأنه يجب عليه أن ينهض بمسئوليته، ويقود نحو شاطئ العدل والسلام.

ومما يكاد أن يكون معروفاً. أن أخطر ما تتعرض له الأمة، هو هدم شخصيتها الإسلامية، هدماً عقدياً، وثقافياً، وسلوكياً، وعاطفياً..

ولعل طبيعة الهدم، لم تنشأ إلا من جراء، انهدام الشخصية الإسلامية. وما أعقب ذلك من غياب الروح الرسالية، التي تتدفق بالحركة نحو الكمال، وتشع بالرشد والهداية، ولهذا نجد أن الإمام سعيد النورسي، ينكب على إملاء «رسائل النور» على طلابه

ومحبيه. ورسائل النور جاءت تضع العلامات المضيئة في الطريق.. لتكون الكلمة أداة بناء، تساهم في صنع الخير، وإشاعة الود، والمحبة، بين الناس، ولما كان الإمام سعيد النورسي يدرك تماماً. أن المبادئ الإسلامية بمفاهيمها الأساسية، ومناهجها التربوية، تصنع شخصية متميزة. لها سماتها، وتوجهاتها، وغاياتها الخاصة التي تميزها بوضوح. عنى في «كليات رسائل النور» بهذه المبادى.. ولما كانت الشخصية الإسلامية تتميز:

- بالاتجاه العقلي.
- والتوجه المستمر نحو الكمال.
- والنزوع القيادي.
- والايجابية.
- والاتزان.
- والالتزام.
- والإحساس الإنساني.

فإن الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، وضع في سائر مؤلفاته ورسائله. كل ما من شأنه، أن يكون أساساً، للشخصية الإسلامية، وقواعد يشاد عليها وجودها، وتبنى عليها كل مظاهر تحققها وتجسدها..

محاسن الإيمان:

في المبحث الأول، من الكلمة الثالثة والعشرين. من مجموعة الكلمات من «كليات رسائل النور». نجد أن بديع الزمان يقول: «نبين من آلاف محاسن الإيمان خمسة محاسن فقط في خمس نقاط»:

ـ النقطة الأولى: إن الإنسان يسمو بنور الإيمان إلى أعلى عليين. لأن الإيمان انتساب»

ـ النقطة الثانية: أن الإيمان ينورالكائنات أيضاً. وينقذ الزمان الماضي والمستقبل من الظلمات.

ـ النقطةالثالثة: ان الإيمان نور وقوة.

ـ النقطة الرابعة: ان الإيمان يجعل الإنسان إنساناً.

ـ النقطة الخامسة: أن الإيمان يقتضي الدعاء» (١)

ولايخفى على أحد، أن هذه المحاسن، التي جاءت في خمس نقاط. هي قوة دافعة، تسند الضعيف أن يسقط، وتمسك القوي أن يجمح، وتعصم الغالب أن يطغى ويفجر، وتمنع المغلوب أن ييأس.

إن هذه المحاسن التي جاءت من آلاف محاسن الإيمان. تملأ النفوس بالفضائل وتزكيها، وتقوم الضمائر، وتسدد العزائم، وتزكي القلب، وتغذي العقل.

وإذا وقفنا عند النقطة الأولى من نقاط محاسن الإيمان، والتي تتضمن: «أن الإنسان يسمو بنور الإيمان إلى أعلى عليين» وجدنا أن بديع الزمان يتابع ذلك بقوله: «ذلك لأن الإيمان يربط الإنسان بصانعه الجليل، ويربطه بوثاق شديد، ونسبة إليه. فالإيمان إنما هو انتساب. لذا يكتسب الإنسان بالايمان قيمة سامية»(٢)

فالايمان ـكما ترىـ ليس في واقع منهج بديع الزمان التربوي سوى سلوك هادف وواعي. سلوك ليس خيالياً أو وهمياً. بل إنساني وعملي.

يبلغ أقصى درجات الدقة في التحقق، حينما يرقى بالسالك. ومما يكاد أن يكون معروفاً أن في الإنسان قابلية التأثر، وهو يملك القدرة على التأثير. فكان لا بد من صيانة «قابلية التأثير لديه» لكي لا يكون مجالاً رحباً للمؤثرات الخارجية المنافية للفطرة السليمة، والذوق الرفيع، والكمالات الإنساينة الكريمة.

ولأن الانسان يملك القدرة على التأثير فيما حوله. أصبح من الضروري أن يظل هذا الإنسان سليماً لتظل تأثيراته سليمة. ولا يمكن أن يظل الإنسان سليماً إلا في ظلال الإيمان ..

وقد لا يخفى أن النفس الإنسانية، تسعد، وتشقى، وتصح، وتمرض، وتتسامى، وتتسافل، وهي كذلك كالجسم بحاجة إلى وقاية قبل الإصابة، وبحاجة إلى علاج إذا سقطت فريسة الأوبئة، التي تنتاب النفوس المظلمة، التي فقدت مناعتها، فخارت قواها..

ولا توجد مدرسة. تتناول بالرعاية، والعناية: النفس الإنسانية، كمدرسة الإيمان الذي يسمو بصاحبه إلى أعلى عليين.

إن الإيمان يخط المسار، ويضع المنهاج، ويستجيب لنوازع النفس الخيرة، وينميها، ويحول بين النفس وبين دواعي الشر والانحراف. بما وفر من قيم فعالة تعالج ما قد يبتلي به الإنسان، من إصابات سلوكية تؤدي به إلى الهاوية.

فبالإيمان تتقد جذوة الحب الإلهي في نفس الإنسان المسلم. فيرتقي إلى عوالم الإنشراح، وساحات القرب، ويجوب رياض اليقين..

ـ أما النقطة الثانية من نقاط محاسن الإيمان، فإنها تنطلق من: أن الإيمان ينير الكائنات وينقذ القرون الخالية والآتية من الظلمات الدامسة..

ولقد كان الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي، في هذه النقطة، بليغاً أقصى درجات البلاغة، ويعلم الله أنني وقفت طويلاً أتأمل هذه الحكمة. التي انطلقت لتؤكد صلة المؤمن بالكائنات والوجود. وتبين في وضوح. أن الوجود كله عابد بطبيعته، منصاع لوظيفته.. ولا يسعه إلا أن يطيع ربه. في ولاء. لايشوبه استنكاف، ولا يطاوله تأب.. بل إنه جميعاً من أعلاه إلى أسفله، يهتف في البداية، من عالم الأزل، بلغة المقهور، أمام عظمة القاهر، وهتاف العابد، تجاه قدسية المعبود. بما سجله الحق في قوله: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾

إن هذه النقطة التي تبرز صلة المؤمن بالكائنات، ودور المؤمن في الإنقاذ، والإصلاح، والصلاح، تجعل سلوك الفرد المسلم،قائماً الى أساس الإختيار اليقظ الواعي. بعيداً عن العادة الآلية، التي تجعل من السلوك سكوناً رتيباً، لا يعبر عن وعي الإنسان، وارتباطه بخالقه.

وكم هو سهل هدم الموقف الإنساني، والانسحاب من الفعل، مهما يكن خيراً وضخماً. عندما يبني هذا الفعل على أساس من الآلية والاعتياد. بعيداً عن الوعي، والقناعة، والاتجاه الذاتي اليقظ.

لذلك جاء كليات رسائل النور للإمام بديع الزمان. تحرص في نقاطها على تثبيت قواعد الفعل، في أعماق الذات الإنسانية. وكأن

الإمام بديع الزمان يريد أن يضمن استمرار الإنسان المسلم على فعل الخير، وبناء الحياة الإيسانية على أسس من الوعي، والاخلاص. وبمنأى عن النفاق، والرياء،والاحتيال.

- والنقطة الثالثة من نقاط محاسن الإيمان: «أن الإيمان نور، وهو قوة أيضاً فالإنسان الذي يظفر بالإيمان الحقيقي. يستطيع أن يتحدى الكائنات، ويتخلص من تضيقات الحوادث. مستنداً إلى قوة إيمانه، فيبحر متفرجاً على سفينة الحياة، في خضم أمواج الأحداث العاتية، بكمال الأمان، والسلام، قائلاً: توكلت على الله..

فالإيمان إذاً يقتضي التوحيد. والتوحيد يقود إلى التسليم. والتسليم يحقق التوكل. والتوكل يسهل الطريق إلى سعادة الدارين.

ولا تظنن أن التوكل هو رفض الأسباب وردها كلياً. وإنما هو عبارة عن العلم بأن الأسباب هي حجب بيد القدرة الإلهية. ينبغي رعايتها ومداراتها. أما التشبث بها أو الأخذ بها. فهو نوع من الدعاء الفعلي، ومن ثم فطلب المسببات، وترقب النتائج، لا يكون إلا من الحق سبحانه وتعالى».

وأن المتأمل أبعاداً وأعماقاً، فيما ذكره الإمام بديع الزمان في النقطة الثالثة، من نقاط محاسن الإيمان. يرى أنه أمام نقاط تقود الإنسان إلى الطريق السليم، ويتبين له بوضوح. حرص الإمام بديع الزمان، على سلامة صدور المؤمنين.. فإن أبرز ما يرتفع بقيمة الإنسان، هو إيمانه بربه ومعرفته به. ولا يصل الإنسان إلى كمال الإيمان إلا إذا أيقن: أن الله وحده هو مصدر العطاء والمنح لهذا الوجود.

ولا يتكامل هذا الإيمان في جنان صاحبه إلا إذا علم علم اليقين أن الله وحده هو كل شئ، المتفرد على سائر خلقه بالحياة الأزلية، والبقاء، والوجود. وأن ماعداه ليس سوى أعراض تستمد قيمتها، وحيويتها، وكيانها من إشعاع جلاله، وشمول قيوميته.

والانسان لا بد له من إدراك هذه الحقيقة، والإيمان بها، والعمل بمقتضاها، بحيث تنعكس بكل إشراقاتها عليه، في كل ما يأتي وما يذر، يعتمد على ربه، ويستمد منه العون..

الإيمان –كما يقول بديع الزمان– يقتضي التوحيد، والتوحيد يقود إلى التسليم، والتسليم يحقق التوكل، والتوكل يسهل الطريق إلى سعادة الدارين».

نعم الإيمان يقتضي التوحيد، لأن الإيمان الحق يطبع أصحابه بطابع الصلة القوية بالله، ويمنحهم طاقات من الثقة فيه لا مثيل لها. ويصب في وجداناتهم من دفقات اليقين مايعلو فوق الريب.

والتوحيد يقود إلى التسليم، والتسليم يحقق التوكل، لأن التوكل أحد شعب الإيمان وموجباته، وأحد خصائصه، ومنحه ومعطياته. به تتجدد الثقة بين الخلق والخالق، وتتوثق الصلة بين أهل الأرض وخالق الوجود.

إن التوكل من خير صفات الإيمان، التي يتصف بها المؤمنون. حيث بها يستعلي المؤمن على كل هون، ويتأبى على كل ضيم، ويقف قلعة شماء في وجه الأهواء وصخرة عاتية. لايلين مع الهوى، ولا يتأثر بأي إغواء أو غواية. ولا يرى على نفسه سلطاناً غير سلطان الله.

ودعوة الإمام بديع الزمان إلى التسليم الذي يحقق التوكل. دعوة إلى كل ما ينهض بالمسلمين. ويربطهم بأسباب الثقة والعزة والسعادة، في شتى نواحي الحياة. والتوكل برهان إيمان الأمة، وآية إسلامها، ومناط عرفانها بربها،وتوحيدها لخالقها، الذي تلوذ به، وتلجئ إليه، وتعتصم به، وتتوكل عليه ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾

وإذا انتقلتُ إلى النقطة الرابعة، من نقاط محاسن الإيمان، وجدت فيضاً، يؤكد أن الإيمانَ، يجعلُ الإنسان إنساناً حقاً، بل يجعله سلطاناً. لذا كانت وظيفته الأساس: « الإيمان بالله تعالى والدعاء إليه، بينما الكفر يجعل الإنسان حيواناً مفترساً في غاية العجز» (٥).

ويذكر الإمام بديع الزمان دليلاً واضحاً، وبرهاناً قاطعاً، من بين آلاف الدلائل على هذه المسألة، وهي التفاوت والفروق، بين مجيء الحيوان والإنسان إلى دار الدنيا.. وقبل أن أذكر الدليل الذي فاض به الشيخ بديع الزمان. أقرر أنني وقفت طويلاً متتلمذاً على هذا الحكيم، الذي يسعى إلى ترسيخ الإيمان، وبيان اكتمال الإنسانية الذي لن يكون بغير الإيمان.

يقول الإمام بديع الزمان في هذا الدليل: «نعم إن التفاوت بين مجيء الحيوان والإنسان إلى هذه الدنيا، يدل على أن اكتمال الإنسانية وارتقاءها إلى الإنسانية الحقة. إنما هو بالإيمان وحده.

وذلك لأن الحيوان حينما يأتي إلى الدنيا، يأتي إليها كأنه قد اكتمل في عالم آخر، فيُرسَلُ إليها متكاملاً، حسب استعداده.. فيتعلم في

ظرف ساعتين أو يومين أو شهرين جميع شرائط حياته، وعلاقاته بالكائنات الأخرى، وقوانين حياته، فتحصل لديه ملكة.. فيتعلم العصفور زو النحلة -مثلاً- القدرة الحياتية والسلوك العملي، عن طريق الإلهام الرباني، وهدايته سبحانه، ويحصل في عشرين يوماً على ما لا يتعلمه الإنسان إلا في عشرين سنة.

إذاً الوظيفة الأساس للحيوان، ليست التكمل والاكتمال بالتعلم، ولا الترفي بكسب العلم والمعرفة. ولا الاستعانة والدعاء بإظهار العجز.. وإنما وظيفته الأصلية: القيام بالعمل حسب استعداده.أي العبودية الفعلية.

أما الإنسان فعلى العكس من ذلك تماماً، فهو عندما يَقدِم إلى الدنيا، يقدمها وهو محتاج إلى تعلم كل شئ وإدراكه. إذ هو جاهل بقوانين الحياة كافة جهلاً مطبقاً. حتى قد لا يستوعب شرائط حياته خلال عشرين سنة. بل قد يبقى محتاجاً إلى التعليم والتفهم مدى عمره.

فضلاً عن أنه يُبعث إلى الحياة. وهو في غاية الضعف والعجز. حتى أنه لا يتمكن من القيام منتصباً إلا بعد سنتين من عمره. ولا يكاد يميز النفع من الضر، إلا بعد خمس عشرة سنة. ولا يمكنه أن يحقق لنفسه منافع حياته ومصالحها ولا دفع الضرر عنها إلا بالتعاون والانخراط في الحياة الاجتماعية البشرية».

والنتيجة الضرورية التي يستخلصها الشيخ بديع الزمان، أن وظيفة

الإنسان الفطرية إنما هي التكمل «بالتعلم» أي الترقي، عن طريق كسب العلم، والمعرفة، والعبودية «بالدعاء».

أي أن يدرك في نفسه ويستفسر:

- برحمة مَن وشفقته. أُدارى بهذه الرعاية الحكيمة؟

- وبمكرمة من وسخائه أربى هذه التربية المفعمة بالشفقة والرحمة؟

وألطاف من وجوده أغذى بهذه الصورة الرازقة الرقيقة؟

فيرى أن وظيفته حقاً هو الدعاء، والتضرع، والتوسل، والرجاء. بلسان الفقر، والعجز، إلى قاضي الحاجات.(٦)

أما النقطة الخامسة من نقاط محاسن الإيمان. فإن الشيخ بديع الزمان. يقول فيها: «كما أن الإيمان يقتضي الدعاء، فيتخذه وسيلة قاطعة، ووساطة بين المؤمن وربه، وكما أن الفطرة الإنسانية تتلهف إليه بشدة وشوق، فإن الله سبحانه وتعلى، يدعو الإنسان، إلى الأمر نفسه. بقوله: «قل ما يعبؤا بكم بي لولادعاؤكم» وبقوله تعالى: «ادعوني أستجب بكم»..

ولا يخفى على باحث أو دارس، أن هذه النقطة، تتصل بالنقطة الرابعة، من نقاط محاسن الإيمان، وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً. فالعلاقة بين الإيمان والدعاء علاقة لا انقطاع فيها.. لأن الدعاء تعبير طبيعي عن إحساس نفسي، وشعور حي لدى الإنسان. والمؤمن بالله سبحانه وتعالى، يعرف مصدر توجهه، ومبدأ حياته. وهو الله سبحانه. فيتوجه إليه بروح مؤمنة، مملوءة بالأمل، والثقة، والرجاء. في حين يظل نقيضه الكافر بالله يعيش حالة من الحيرة والضياع، والبحث غير المجدي، وهو

يعيش الإحساس ذاته. ولكن لايدري إلى أين يتوجه لا يعرف الجهة التي يبثها هذا الإحساس والالم، ولايستطيع اكتشاف الرحمة والحنان، الذي يغمر عوالم الوجود، ويتسع للتجارب مع هذا الإحساس.

لذلك فهو يحمل هذا الإحساس بين جنبيه: وخزات تباعد بينه وبين الاستقرار، والطمأنينة. ويأساً يسد أمامه، منافذ الرجاء، والخلاص.. فالدعاء هو من مقتضيات الإيمان بالله، لإنه وسيلة لربط الإنسان بالله، والتوجه إليه، والاعتراف بين يديه، وإظهار حاجة الإنسان وفقره وضراعته، ورغبته في إصلاح نفسه، وانعاش حياته.

وإذا كان الدعاء هو من مقتضيات الإيمان بالله -كما أشار إلى ذلك الشيخ بديع الزمان- فإن الفطرة الإنسانية -كما يقرر بديع الزمان- تتلهف إليه بشدة وشوق. لأن الإحساس بالحاجة والشعور بالحيرة، والرغبة في التوجه إلى قوة تساعد على الإنقاذ والخلاص، إحساس بشري عام.

فما من إنسان إلا وينتابه العجز والحيرة، ويشعر بالضيق، ويحس بالحاجة إلى قوة تسعفه، وتنقذه من محنته، وحيرته، وتقطع يأسه، وشعوره بالعجز، والضياع في هذا العالم.

والنفس البشرية، ذات الأبعاد المختلفة، والاعماق، والأغوار المعقدة الغامضة.. لايمكن ملؤها بالحاجات المادية وحدها. مهما يغالي الإنسان في الإشباع المادي.

والإنسان بطبيعة تكوينه، وحقيقة وجوده. يتعرض في حياته لمشاكل ونكبات، وآلام، وإحساس بالخيبة، وقصور عن الأهداف.

فليس كل شئ في الحياة يتحقق للإنسان كما يريد، ولا كل شئ يجري وفق مشيئته. وبذا تبقى الحاجة قائمة، والرغبة غير مشبعة، والشعور بالحاجة متعاظماً في نفس الإنسان..

وتلك حكمة الله الخبير.. جعل كل ذلك ليبقى الإنسان مرتبطاً بخالقه، متوجهاً إليه..

ومن اللفتات التي لفت إليها بديع الزمان في الدعاء. قوله: «إن استجابة الدعاء شئ وقبوله شئ آخر. فكل دعاء مستجاب. إلا أن قبوله وتنفيذ المطلوب نفسه منوط بحكمة الله سبحانه..» (٧)

والدعاء عبادة يتعبد بها المسلم،، ويتقرب بها إلى الله سبحانه..

والدعاء تعتبير عن إيمان المسلم، واقراره بأن الله هو خالق كل شئ.

وتلك نقاط محاسن الإيمان، التي اختارها الإمام بديع الزمان سعيد النورسي من بين آلاف المحاسن، لتكون علامات مشرقة.

والشيخ بديع الرمان اختارها من بين آلاف المحاسن، لتكون حقائق المحاسن، دافعة للإنسان المسلم إلى أن ينطلق، وهو مسوق بقيم ومواريث لها في وعيه فاعليتها القوية.

الحقائق الايماينة والعقائد الإسلامية:

مما يحسن أن أشير إليه، أنني وقفت طويلاً، أبحث عن عنوان لهذا المحور، الذي يتناول العقائد الإسلامية. وكلما وضعت عنواناً، بدأ لي أن فيه قصور، وغيره أفضل منه. وشاء الله سبحانه وتعالى، أن تقع عيناي على كلام للإمام بديع الزمان سعيد. يقول فيه: « إني أخال أن

لو كان الشيخ عبد القادر الكيلاني، والشاه النقشبندي، والإمام الرباني. وأمثالهم، من أقطاب الإيمان، رضوان الله عليه أجمعين.. أجل لو كان هؤلاء في عصرنا هذا، لبذلوا كل ما في وسعهم لتقوية: «الحقائق الإيماينة والعقائد الإسلامية»، ذلك لأن منشأ السعادة الأبدية فيهما. وأن أي تقصير مهما كان فيهما يعني الشقاء الأبدي، إذ لا يمكن الدخول إلى الجنة دون إيمان» .(٨)

وما أن انتهيت من التأمل في هذا الكلام، حتى وجدت نفسي أمام العنوان الذي يصلح ويكاد أن يكون واضحاً. أن القرآن الكريم دعا بإلحاح، إلى الإيمان بالحقائق الكبرى- دعا إلى الإيمان بالله، خالق الكون. ودعا إلى الإيمان بالحياة الآخرة، التي تتجلى فيها مسئولية الإنسان، ويتحدد مصيره الأبدي، ودعا إلى الإيمان بالنبوة والوحي، طريقاً إلى معرفة الحقائق التي يريد الله أن يلقيها إلى الإنسان.. سواء كان موضوعها عالم الغيب، أو حقائق ما وراء المادة. أم كان توجيه الإنسان، وتنظيم شئونه في هذه الحياة. (٩)

والباحث والدارس لمجموة الكلمات من كليات رسائل النود، للإمام العلامة بديع الزمان سعيد النورسي يلحظ بوضوح. أن العلامة بديع الزمان، تناول هذه الحقاق تناولا يؤدي إلى معرفة الله والإيمان به.

وترى ذلك واضحاً في الكلمة الثانية من مجموعة الكلمات الكبرى، والتي تفسر سراً مهماً من أسرار آية: ﴿ والذين يؤمنون بالغيب ﴾. (١٠)

-كما ترى ذلك في الإشارة الأولى من المقدمة التي تثبت وجود صانع العالم بوجه بديع .(١١)

- وترى ذلك أيضاً في الإشارة الثانية التي تثبت الرسالة الاحمدية، بعدة من وظائف الرسالة .(١٢)

- وترى ذلك في الحقيقة الثانية عشرة: باب الرسالة والتنزيل، وجلوة ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾.

- وترى ذلك واضحاً في الخاتمة التي تثبت سهولة الحشرالاعظم.

- وترى ذلك في الرشحة الثانية عشرة. إنه برهان قاطع، ودليل ساطع لوجود الآخرة، كما أنه برهان ناطق، ودليل صادق، على وجود الخالق.

- وترى ذلك في الكلمة الثانية والعشرين. مما يتصل بالتوحيد.

- وترى ذلك في الكلمة التاسعة والعشرين، من موازين رسائل النور .(١٣)

- وترى ذلك واضحاً في مناحي كثيرة، ومواقف متعددة، مما صنفه العلامة بديع الزمان سعيد النورسي. مما يؤكد لك:

نظرة الإسلام إلى الصلة بين الله والكون، وبين الله والإنسان، وبين الكون والإنسان.

- ويتكون من مجموع ذلك: عقيدة كاملة، ونظرة شاملة. وهذه العقيدة لا تتطلب تجربة كبيرة للإيمان. ولا تثير في العادة مصاعب عقلية خاصة .(١٤)

إن العلامة الشيخ بديع الزمان، يخص بالحقائق الإيمانية الإنسان. ويخص بالمخاطبة المسلم. لأنه هو المقصود. ويريد في الوقت نفسه أن يشعره بموقعه من هذا الكون.

لان الإنسان أولاً: نوع من أنواع أخرى في هذا الكون. اشترك معها في امور، ثم يتميز عنها.

والإنسان ثانياً: نوع من أنواع الحيوانات، يدخل في تصنيفها، ويشترك معها في أمور. قال تعالى: ﴿ **والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على أربع** ﴾. (١٥)

والإنسان ثالثاً: نوع متميز عن الحيوان.

والإنسان رابعاً: يتميز بجانب روحي. وهو الجانب الذي رفع مربية الإنسان وجعله في مقام التكريم.

ولهذا يخاطب بديع الزمان الإنسان. قائلا له: «إن كنت تروم الحصول على علم الحقيقة والحكمة الحقة، فاظفر بمعرفة الله. إذ حقائق الموجودات كلها إنما هي شعاعات اسم الله الحق، ومظاهر زسمائه الحسنى، وتجليات صفاته الجليلة..». (١٦)

يقول زبير كوندوز آلب أحد تلاميذ الأستاذ النورسي المخلصين: إن أعداء الدين يهدفون أول ما يهدفون في وسائلهم، إلى تهوين أركان الإيمان، واضعافها في النفوس. ومن ثم القيام بهدمها وإزالتها.. إذ من المعلوم أن سريان شبهة واحدة، في أحد أركان الإيمان، أو إنكارا جزئية فيه لهي أخطر بكثير وأفدح من إهمال يقع في الأمور الفرعية في الدين. ولأجل هذا أصبح أجلّ خدمة تقدم في الوقت الحاضر للإسلام

هو: تقوية الإيمان في القلوب، وترسيخه في النفوس. وذلك بتحويله من إيمان تقليدي خامد إلى إيمان تحقيقي ينبض بالحيوية ..فتقوية الإيمان هي في مقدمة المستلزمات الآنية، وانقاذ الإيمان هو من أولى الواجبات والمهمات». (١٧)

فالحقائق الإيمانية، والعقائد الإسلامية. تزود المؤمن بمضادات ذات قيم فعالة تعالج ما قد يبتلي به من إصابات سلوكية. وقد حرص العلامة الشيخ بديع الزمان على إبراز هذه الحقائق، وإعطاء ما تستحق، لأنها:

- تربط الإنسان بالله، وبقوى الكون الظاهرة والخافية.

- ولأنها تبث الثقة، والطمأنينة في الإنسان، وتمنحه القوة لمواجهة القوى الالحادية والأوضاع الباطلة.

- ولأنها توضح للإنسان غايته واتجاهه وطريقه..

- ولأنها تجمع للإنسان طاقاته وقواه، وتدفعها في اتجاه الغاية.

- ولأنها تقدم للإنسان الحل لمشكلاته جميعها.

- ولأنها تتسع لكل أنواع النشاط الإنساني، وتربط بين المادة والروح.

- ولأنها كفيلة بتعديل القيم والموازين، وتعديل الحكم، والتقدير، وتعديل المنهج والسلوك، وتعديل الوسائل والأسباب. (١٨)

هذه الحقائق يكفي أن تستقر في قلب المؤمن لتقف به أمام الدنيا كلها بمن فيها، وما فيها.. عزيزاً.

والحقائق الإيمانية - عند الشيخ بديع الزمان - كما وضحت من

«رسائل النور» تساهم مساهمة فعالة، في بناء الإنسان المؤمن، وترسخ عنده القيم. لأنها تشكل النظرة التفسيرية للحياة والوجود. فتسلك كأساس لتصور الإنسان للمواقف، والسلوك، والعلاقات، ،كمنطلق للتقويم، وإصدار الأحكام على الأشياء، وفهمها..

ليس في عالم المعتقدات عقيدة كعقيدة التوحيد -الإيمان بالله- من حيث سعتها، وشمولها، وانطباعها، على كل موقف، وسلوك إنساني. حتى ليسلك هذه العقيدة «الإيمان بالله» وما يتفرع عنه، كرائد. يخطط للإنسان طريق السير، وقائد يتقدم المسيرة، ومحور تدور عليه كل نشاطات الإنسان.

اهتمام الإمام بديع الزمان بالدعوة إلى الإيمان

إن الإمام بديع الزمان سعيد النورسي اهتم بمحاسن الإيمان، والحقائق الإيمانية، اهتماماً بالغاً لأن الإيمان بالله هو أساس كل تقدم، كما هو أساس كل مواجهة للتحديات..

وأثبت التارخ أن الذين تربوا في مدارس الإيمان هم وحدهم الذين صلحت بهم الحياة، واعتدل في أيديهم ميزان الحق والعدل. وانكشف بسبب وجودهم، ونقاء أخلاقهم: أساليب الوضاعة، والخيانة، والغدر. إن هذه المعاني التي أثبتها التاريخ، كانت ماثلة أمام الإمام الشيخ بديع الزمان. وهو يسعى في رسائله إلى إيجاد خصائص ومقومات، يتقوم بها محتوى الذات واتجاهها..

ولذلك عمل على أن يقدم للأمة الإسلامية كل ما من شأنه أن يأخذ بالمسلمين إلى الطرق..

يريد أن ترى المجتمعات الإسلامية نمطاً جديداً من الناس. يعطي من نفسه ليسعد غيره. ويرضي بالهلاك لذاته كي تحيا وتنهض أمته.

يقول الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي: «اخواني الصادقين الأوفياء: إنه لأجل إطمئنان عوام المؤمنين، وتقبلهم حقائق الإيمان دون تردد يساورهم يلزم في الوقت الحاضر، وجود معلمين يحملون من الإيثار ما يجعلهم يضحون لا بمنافعهم الدنيوية وحدها. بل بمنافعهم الأخروية أيضاً. في سبيل منافع أهل الإيمان الأخروية.

فيكون ذلك الدرس الإيماني خالصاً نقياً. بحيث لا يفكرون فيه بالمنافع الشخصية مهما كانت. بل يسعون في الخدمة الإيمانية بالحقائق. نيلاً لرضى الله، وعشقاً للحقيقة، وشوقاً إلى الحق والسداد الذي في الخدمة.

وذلك ليطمئن كل من يحتاج إلى الإيمان اطمئناناً تاماً».. (١٩)

«إن أعظم إحسان أعده في هذا الزمان وأجل وظيفة، هو إنقاذ الإيمان والسعي لإمداد إيمان الآخرين بالقوة، فاحذر ياأخي من الانانية والغرور، وتجنب من كل ما يؤدي إليهما. بل ينبغي لأهل الحقيقة في هذا الزمان التجرد من حظ النفس، ونبذ الغرور والأنانية. وهذا هو الألزم لهم، لأن أعظم خطر يتأتى في هذا العصر، إنما يتأتى من الانانية والإعجاب بالنفس، فعلى أهل الحق والحقيقة أن ينظر كل منهم الى تقصيرات نفسه ويتهمها دائماً ويتحلى بالتواضع التام». (٢٠)

هذه المواقف توضح الوجهة التي يجب أن يتجه نحوها الإنسان، والغاية التي يجب أن يسعى إليها، ويتسابق من أجل الفوز بها، ليركز

اتجاهه وغايته في كل أفعاله ونواياه في الاتجاه إلى الله. والدارس لمواقف الإمام الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي، يجد أن هذه المواقف إيمانية. لا تبتغي سوى الإيمان، وترسيخ حقائق الإيمان. والمواقف الإيمانية لا تنظر إلى «الأنا». إنما تفكر في «نحن» أي في الآخرين، وأمر المؤمنين.

ودعوة الإمام بديع الزمان تنطلق من القرآن الكريم الذي علم الإنسان. أن المؤمنين يعطون لأمتهم، ويتحملون في سبيل العطاء المصاعب. وإن انطلاقة الإمام الشيخ بديع الزمان من القرآن الكريم، جعلت الرجل قريباً من القلوب والعقول..

ولما كانت لهذا الحكيم معرفته بالنفس الإنسانية. وأنها كالجسم تسعد وتشقى، وتصح وتمرض، وتتسامي وتتسافل. هي كذلك كالجسم بحاجة الى وقاية قبل الإصابة وبحاجة إلى علاج إذا سقطت فريسة الأوبئة التي تنتاب النفوس المظلمة التي فقدت مناعتها..

ولما كانت للإمام الشيخ بديع الزمان معرفته بهذا، استطاع بثقافته القرآنية، أن يضع رسائل ومصنفات، كفيلة باتقاد جذوة الإيمان في نفس الإنسان المسلم حتى يجوب رياض اليقين، وتطل نفسه على نور البصيرة في الرؤية، الذي لا يعتريه غروب، ويتوفرلديه حضور الوازع الداخلي الذي لايعقبه غياب. .أدرك الرجل بثقافته القرآنية، وذكائه الحاد. أن الإيمان قوة لا تدانيها قوة في شد الأعصاب، وشحن الخلايا والطاقات. ولهذا أبرز محاسن الإيمان والنتائج التي ترتبت على الالتزام بهذه المحاسن.

قال تعالى: ﴿ **فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون. الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾.

ولا يخفى ان أثر الإيمان يبرز بوضوح في الدعوات التي غيرت وجهه التاريخ. لذا يعمد أصحاب الدعوات إلى اختيار العناصر المؤمنة. ويصرفون نظرهم عن الكثرة فهم لا يريدون «الْكَمْ» بل يريدون «الكيف».

والرعيل الأول من المسلمين كانوا أساتذة الدنيا بقوة إيمانهم بربهم. وقد لاقوا آلاماً شديدة، لو صبت على غيرهم لغير موقفهم. ولكن الإيمان حين يخالط القلوب، يجعل أصحابها قوة.

فبلال الحبشي، وعماربن ياسر، ومصعب بن عمير، وصهيب الرومي.. ضربوا الرقم القياسي في صلابة العقيدة، وصدق النية، وقوة الإيمان.

ولقد استطاع الحكيم بديع الزمان، أن يُجَلّيَ الحقائق الإيمانية، والعقائد الإسلامية. لتكون أكثر وضوحاً، وأقرب منهلاً.. فعالج قضايا الإيمان بالله، وبملائكته وكتبه ورسله، كما عرض للوحي والنبوة ورسالة محمد ﷺ. والبعث. وأمور الآخرة.. مما مكنه من توضيح الرؤية الحياتية للإنسان. ورسم منهج السلوك، وأسلوب الحياة.

ولا يكون المرء مجانباً للصواب، إذا أدرك أن أشد ما تحتاج إليه الامة هو: الإيمان.. الإيمان الحقيقي.. الإيمان الذي يفيض بالعطاء على الآخرين.. لأن أعظم وظيفة هي انقاذ الإيمان، والسعي –كما يقول بديع الزمان– لإمداد إيمان الآخرين بالقوة.. لقد كان اسلوب بديع

الزمـان ــوهو يعرض لحـقائق الإيمان ــأسلوب ترسـيخ وتأكيـدــ وليس أسلوب عواطف وانفعال. لقد خاطب الرجل العقل والقلب فوصل إلى القلب والعقل.

ويمكن زن يقال: لماذا اهتم بديع الزمان بالإيمان وقضاياه؟ والباحث في سـيـرة الرسـول ﷺ، وقـصة ظهـور الإسـلام وانتـشـاره في الأرض يدرك. أن سيـرة الرسول صوات الله وسـلامه عليـه قامت على الإيمان، وللإيمان. وظـهـور الإسـلام تم على إنطـلاق الإيمان، ولنشـر الإيمان، وترسيـخه بين الناس، ومن هنا ندرك أبعـاد اهتمام الحكـيم بديع الزمان بالإيمان، وحـقائق الإيمان، ومما هـو مؤكـد لدى الباحـثين: أن العـقيـدة الإسلاميـة «الإيمان» كانت في حياة المـسلمين هي النافذة، التي يطلون منها على العوالم الحـية، كما كانت العقـيدة ذاتها ثذ المنظار الذي ترى بواسطته كافة الحقائق..

وأن أمـة تخـطو في الطريق، وتسـعي إلى المجـد. لابد وأن تتـعلم، وتنتمي إلى الإيمان بالله.

* * *

المصادر والمراجع

١– القرآن الكريم.

٢– كتب السنة النبوية.

٣– الإمام بديع الزمان، مجموعة الكلمات من كليات رسائل النور.

٤– احسان قاسم الصالحي، بديع الزمان سعيد النورسي، ط. دار الوفاء. مصر.

٥– الإمام بديع الزمان، الإيمان وتكامل الإنسان، ط. دار الوفاء. مصر.

٦– د. أحمد السايح، عبقرية الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، بحث معد للنشر.

٧– د. أحمد السايح، علم العقيدة بين الأصالة والمعاصرة، ط. القاهرة.

٨– د. أحمد السايح فلسفة الحضارة الإسلامية، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٩٠م.

٩– د. علي محيي الدين القره داغي، الإنسان والإيمان، تحقيق، ط. دار الاعتصام بالقاهرة.

١٠– محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ط. القاهرة.

١١–الإمام علي، نهج البلاغة، تحقيق محمد عبده، ط. القاهرة.

١٢–بديع الزمان، مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان، ط. بغداد.



محمد رشدي عبيد

● من مواليد الموصل – العراق سنة ١٩٤٧.

● حصل على شهادة دبلوم في التربيةوعمل في مجال التعليم اكثر من خمس وعشرين سنة.

● له مؤلفات عدة منها (الايمان في ضوء العلم والعقل) و(النبوة في ضوء العلم والعقل).

● وله ابحاث قيمة في الجمالية في الاسلام.

● نشر قصصاً ومقالات أدبية ونقدية وفكرية ودينية في مجلات عربية وتركية وهندية.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ

ملامح تربوية
في رسائل النور

الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على رسوله وعلى آله
وصحبه ومن تبعهم باحسانٍ الى يوم الدين

﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا ﴾

« اللّهم اجعل عملنا هذا صالحاً واجعله خالصاً
ولاتجعل لأحدٍ فيه شيئاً »

بدءاً اقدم اعتذارى عن هذا البحث الذى ولد ولادة صعبة وفي زحمة أعمال المؤتمر من بحث أم، عمره الورقى خمس وستون صفحة.

عوامل شتى دفعت النورسى باتجاه الفعل التربوى.. خارجية وداخلية، غربة حادة على تل يوشع ، وجلسة روحية خصبة على ضفاف نهر الفولغا ، وتلاوة قرآنية خاشعة في جامع بايزيد.. كلها أوقدت في ذاته صحوة روحية قادت سفينة حياته نحو تخوم ترضي توقه العميق للخلود.. وقد كملت الشعرات البيض الزائرة لرأسه مهرجان النور في صحوته بدلالاتها المتوهجة ووجهت سطوة فكره بسوط روحه، كما فتحت زياراته لمقبرة ابى ايوب الانصارى آفاقا

جديدة في تصوره الغيبى ادمجته في الفضاء الآخر بكل ايحاءاته واسراره.. اما القرآن فكان يصنع في داخله معماراً جديداً اصيلاً ويضرم نار توحّده ويؤصل في ذاته الحنين الى التبليغ الرسالى..طبيعته الشاعرية المرهفة المتوزعة بين التوق اللامحدود وبين شدّ الواقع المحدود.. وصلاحه الذى أزهده في زينة الارض الخادعة، ميله الجارف للتبليغ، ألحت عليه ليتجه هناك الى «بارلا» ليحضر ادوات صناعة تاريخ الايمان في زمانه ومكانه.. فكان رجل القدر حقاً...

ماهو مفهوم التربية في رسائل النور؟ ماهومنطلقها؟ ما اهم خصائصها؟ ..

باختصار كان النورسى يعشق الحياة عشقاً هائلاً ويراها اكمل ثمرة للوجود ، وكان يذوب في حب الانسان ويود لو فدا سعادته ومصيره بنفسه ..

الانسان عند النورسى ليس هيكلاً ماديا مجردا، او عقلاً منطقياً بارداً ، انه كائن حساس فريد ومتميز ، واسع الدوائر الوجودية، ذو خصائص عقلية وروحية ووجدانية واخلاقية شاملة، خليفة الارض، مبتلى بتوتر عميق بين محدودية امكاناته ولانهائية آماله في الكمال والخلود..

من سمات منهجه التربوى: شمولية التناول ، والمنهجية ، والاصالة التى عجز ادعياؤها الوضعيون من التوفيق بينها وبين المعاصرة لقيام مناهجهم على انتقاء أهوائى، او اجتهادى غير قائم على منهج متسق وموحد وضمن ضوابط اصولية خالصة وفهم عميق لروح الامة وفطرة

الانسان، والواقعية التى تنظر الى الانسان كما هو ولكنها تدفعه الى المثال بيسر وحكمة وتبصر.

اهم ابعاد التربية في منهج النورسى

البعد الايماني: لقد ادرك النورسى ان الانسان كائن ميتافيزيقى ولا يشبع حاجاته العقلية والروحية والعاطفية الا التوحيد.. فاية نظرية مادية او عقلية او علمانية لم ولاولن تقدر على اشباع هذه الحاجة العميقة.. وذلك ما اكده كثير من فلاسفة العلم، كاريل، رينيه دوبو، سوليفيان، جان فوراستيه .. وعلماء نفس واجتماع معاصرون مثل وليم جيمس، سوروكين وغيرهم.. لقد ادرك النورسى ان الفرد لابد ان يعبد إلهاً، وذلك حق اثبته الواقع الفكرى. فقد عبد كثير من الفلاسفة بشكل من الاشكال آلهة شتى، التيار الحيوى عند رجسون، والتطور الخلاق عند دارون، والروح المطلق عند هيجل، الديالكتيك في فكر ماركس، المجتمع الذي الّهه دور كايم، والجنس الذى قدسه فرويد، ووجود الفرد الذى بالغ سارتر في توثينه.. وماهذه المصطلحات سوى اسماء تعبر عن افعال وسنن كونية او انسانية او حياتية او اجتماعية خلقها الله واوجدها ضمن مشيئته الكونية..

لقد ردم النورسى الاغوار الروحية العميقة لانسان زمانه بعرض فكرة القرآن عن مبدأ الانسان ومصيره وغاية وجوده وقدره وعن اسرار الكون والحياة. لقد انقذ الانسان من مشاعر فقدان الهوية، والشعور بانقطاع الجذور، والقلق من المصبر، والرهبة من القدر، والالم، والموت، لقد قدم له الايمان بالله واليوم الاخر والغيب القرآنى فجعل منه انسانا آخر يشعر بالطمأنينة والسلام النفسى والانسجام مع الكون

ومخلوقاته، والثقة بالله، كما انقذه من التوحيد التقليدى البارد واشعل روحه بالايمان التحقيقي الفعال المفجر للطاقات المبدعة، كما اعاد لمعنى العبادة حيويته وشموله ليستوعب كل تنفيذ صائب ومخلص لحكم شرعى، وكل فعالية حياتية او عملية ملتزمة بمنهج الله او متوجهه في مقاصدها الى الله سبحانه وتعالى..

وكانت اسماء الله الحسنى وسيلته لتحرير الفكر من الرتابة والغفلة والتقليد والجمود ، وتحرير الحسّ من التكرار و الصور المملة، وتحرير الوجدان من غبار السآمة والمشاعر التافهة لتعيد له دهشته الاولى البكر للكون البديع ، ولتنقذ العقل من السقوط في مهاوى المحاكمات العقلية الباردة للوقائع اليومية وتفتح له افقاً غيبياً ومشهوداً واسعاً لتفسير هذه الحقائق.. وهكذا انقذ الانسان من الاشكالية المتأزمة في الضمير الانسانى بين الامل والالم ، والواقع والطموح، والحرية والضرورة ، والعشق والفوات ، والميل للخلود ومناوشات الزوال ، والوجود والعدم، والواقع والمثال ، والفرد والمجتمع والتوافق والصراع..

اما في **المجال العقلى**: فقد فعل النورسى الكثير.. ومما فعله: تجريد الفكر من المعلومات غير الحيوية وغير العملية ، وغير الحقيقية ، وافسح المجال لمقابلاتها الايمانية، وجعل نفسه نموذجاً لذلك التجريد.. كما وفق في التوفيق العقلى بين ماتدركه الحواس وما لاتدركه، وذلك بغرس الايمان بالغيب في الوعى البشرى دون تصادم مع واقعات الحسّ ومقررات العقل المنطقى السليم ونتائج العلوم التجريبية اليقينية القطعية، فوسع من افق الواقع المكانى والزمانى في وعى الانسان.. وقد ازاح امامه بعون القرآن كل شبهات الماديين واوهامهم وظنونهم واهوائهم..

ومن افضل ما وضعه من شروط للتوصل الى الحقيقة: الشروط الوجدانية والعقلية والروحية والاخلاقية كتجنب الغفلة، والمعصية، والغرور، والتعصب، والوهم، والنفى اللامسؤول، والافتراض او التنظير غير العلمى او غير المتماسك.. كما دعا الى تنقية كتب التراث من التفسيرات والاراء التى دحضها العلم بيقينياته.

وفي مجال التربية الاخلاقية:

كان من ابرز ما اصّله: التهوين من قيمة الشر المتنفش في عصره باعتباره شيئاً عدمياً وسلبياً وغير اصيل لتنفير الناس منه وتجريئهم عليه واضاءته لارادة الانسان الحرة.. وتحديده لأُطرالفعل الاخلاقى.. ورسمه حدوده بدقة، واشارته الى المؤثرات المادية والمعنوية المشكلة لصوره....

وقد عمق مفردات اخلاقية عديدة كالصدق والامل والصبر والشجاعة والتضحية وجعلها وقوداً لازدهار الانسان الاخلاقى، كما رسم خطوطا كثيرة لوصول الانسان الى رضا ربه كخط الشكر، والتذلل، والتوكل، والحب، والاخلاص.. وحلّ الاشكالية المؤذية بين ميل الانسان الى الانتماء لذاته او للمجتمع، واقام طلابه على معادلة مريحة متوازنة بينهما، وقد قوى اللحمة الاجتماعية، بدعوته لطلابه للتسامح والحب، والتعاون، وعدم الاسراف والتورط في المطاليب الكمالية التى يختلقها الرأسماليون، كما وضع اسساً موضوعية جادة للحوار، ورسم قواعد لمنع الاختلاف او تجاوزه او تخفيفه. وباختصار فقد سعى الى بناء مجتمع يقوم على الحق بدلاً من القوة، وعلى ابتغاء رضا الله بدلاً من التزاحم على طلب المنافع، ويقوم بناءه على البر

والتقوى لا على الصراع والجدل وتشد لبناته الاخوة الدينية الجامعة ولاتشتته العنصريات وتهذب رغبات الانسان فيه ولاتطلقها بعشوائية وفوضوية.

التربية العاطفية:

ادرك النورسى ان العواطف لا تغتال ولاتقتل ولاتصادر بل تحدّد لها الضفاف وتوجّه للبناء وتؤطر باطار من الحق والخير والعدل «نحن لا نقول لك لاتحمل وداً ولاحباً انما نقول اجعل محبتك لما ذكرتَه في سبيل الله ولوجهه الكريم» واشار الى مكاسب التوجه الى الله في الحركة العاطفية، الايمانية والاخلاقية والنفسية والمادية ..

فاذا كانت اللذة العاطفية السائبة ممتهنة بالابتذال الحسى ومتنغصة بألم ترقب الزوال وتوقع الفراق وتوجّس الفقد وغصص الفوات ووخز أشواك الغيرة والحسد وحسرات عدم تبادل العاطفة بمثلها صفاءً ودواماً، فان اللذة العاطفية المنضبطة بالايمان لذة نقية شفافة دائمة..

وقد حلل كذلك عاطفة الكره والخوف والرغبة تحليلاً سليماً.

التربية الجمالية في فكر النورسى

احساس الانسان بالجمال فطرى أصيل ، والجمال في الكون اصيل كذلك وكلي وشامل، وغائى.. ذلك ان كل شئ في الكون ينطوى على الخير وفيه جمال وحسن. و«لمسات التجميل والتحسين رحمة مرادة». وان هناك تفاضلاً في درجات الحسن ويميل الانسان الى الاحسن والاجمل.. اما اللذات الجمالية فهى تتسم بالتنوع والشمول، فهناك لذات حسية ، سمعية بصرية ، شمية ذوقية، وهناك لذات

جمالية فكرية وروحية وعاطفية تتذوقها العقول والارواح والقلوب.. والاستمتاع بالجمال المشروع فيه فوائد جمه اذ ترقّ احاسيس الانسان وتهتذب مشاعره، وتطهر افكاره وتصفو نفسه ، وتسمو بعد ذلك نقية طاهرة الى خالقها..

ويحث النورسى الفرد المسلم على الانضباط بالضوابط الشرعية في التمتع بالجمال لتتكامل لذته، وتنفتح امامه افاق ملونة رحبة للحسن، ولتأمن لذته من ألم التكدير وألم خوف الزوال..

وفي مقارنة لطيفة بين الادب القرآنى والادب الغربى تكشف جمال الاول وفضلة وعاهات الثانى وسلبياته. يقول لنا النورسى مامعناه!

ان الادب الغربى يمجّد القوة ويؤلّه الطبيعة ويعبّد الانسان لها. وهو يثير في القارئ معانى العبثية والضياع، وفقدان الهوية والانتماء ويؤصّل في وجدانه مشاعر العزلة والوحدة في الكون. وهو بشكل من الاشكال – او وفقاً للذوق الاسلامى – غير منضبط اخلاقياً، ويعكس اهتزاز القيم في العقل الغربى في عالم مابعد الحربين لذا فهو «قد وضع لساناً كاذباً في فم البشر وركب عينا فاسقة في وجه الانسان وألبس الدنيا فستان راقصة». ولانه محروم من تذوق معانى العشق الحقيقى او الحب الخالص فانه يغرز ذوقاً شهوياً عارماً في النفوس ويشبّه لقارئه الشمس بممثلة شقراء.

ومن سلبيات منظوره للواقع، الرؤية المادية الضيقة للواقع والمتجاهلة لأبعاده الغيبية، فهو ينكر غيب الكون او يتعامل معه تعاملاً فلسفيا بارداً او تجريبياً نفعياً، ويملأ تصور البعد الغيبى في الذات البشرية

بالظنون المزعجة والاوهام الباطلة.. وادبه الكلاسيكي الذى يركز على الاساطير الكونية والتاريخية لم يوفق في الوصول الى مستوى الادب العالمي المؤثر من ناحية المضمون في الاقل، للتباين الشاسع بين منظور الانسان المعاصر للعلم والعالم والقيم وبين المنظور اليوناني او الروماني الغابر المثقل بالرؤى البدائية المتخلفة للفكر والكون والحياة واخلاقياتها « وانّى للميت ان يهب الحياة » كما يقول النورسي، وهو واقع في تناقض حادٍ بين اخلاقيته المزعومة ومعقوليته، وبين تصويره المثير للقطعات الهابطة في النفس والمجتمع، هذا التصوير الذى ينسف رقابة العقل واحكام عالم الشعور، ويثير الهوى الكامن في نفس القارئ الذى لا تغنى في تلطيف اثارته القيم الباردة غير الملزمة النسبية والمهزوزة والخجلى التى يبثها الاديب الكلاسيكي هنا وهناك على صفحات ابداعه.. اما المشاعر التى يثيرها الادب الغربى فهى إما حزن كثيف معتم لاتخترقه اضواء الامل في المصير الاخروى او اللقاء المتجدد مع الناس والاشياء او السعادة في عالم اخر.. اما الفرح الذى تخلفه فهو يتسم بعدم البراءة ويدفع الى مزيد من التجاوز على الاخرين وعلى الحق، وتكدره توقعات الفراق وآلام الفوات ومشاعر الندم..

وهو بهذه الاوصاف يشير بشكل مجمل الى سلبيات كل من المذاهب الغربية الفنية الآتية: الكلاسيكية والوجودية والواقعية والطبيعية.

وقد وضع النورسي ادب القرآن قبالة ذلك الادب الغربى فبدا عملاقاً رصيناً متوازناً انسانياً اخلاقياً شاملاً، فهو ادب توحيدى يخلق الطمأنينة، ولا ينصب علامات الاستفهام على طريق القارئ، فلا حيرة

ولاشك ولا اغتراب.. فانسان هذا الادب قد تكشفت له دلالات القدرة والحكمة والعناية والرحمة واليقين في هذا العالم وانشد بكل وعى واختيار الى منظومة الحقائق الاسلامية المتناسقة والصادقة والشاملة وامتلأت نفسه رضى وانساً ووداً وسكينة.

ادب القرآن ذو منظور اخلاقي.. انه لا يحرك ساكن الهوى، وينشد الحق والجمال الخالص ويتبنى الصدق.. فرحه فرح «لطيف برئ نزيه» يبعث على الفضيلة ويقود الى الكشف ويومئ باصبع النور الى عالم الفرح الشامل والغبطة الجذلى ، وحزنه رفيع شفاف خالص متوجه الى السماء مترع بالرجاء ملئ بوعود اللقاء.. انه ادب الحقيقة بمعناها الشامل لوحى الله واجتهاد الانسان، ومنظوره للواقع يتسم بالشمول اذ يستوعب المحسوس المجرب والمخبوء المغيب في الكون والحياة والانسان، وهو يدعو الانسان الى تعامل مع هذا الواقع الكلى بمعادلة اليقين .

التربية البدنية :

لم تسمح حالات النفى والاقامة الجبرية والسجن التى عانى منها النورسى بالاهتمام الكافى بهذا البعد التربوى بشكل متكامل ولم تسمح لروحه الجهادية المتوثبة وديناميته الجسدية المتدفقة التى كانت قد وجدت لها مجالاً رحباً في الجهاد ضد العدو ان تنطلق فيما بعد لإعداد جيلٍ اقرب الى التكامل المثالي. وحسبه تأكيده على نقاط مهمة في التربية الجسدية. منها: ضرورة تحديد كمية الطعام المتناول والنهى عن الاسراف، والربط بين السلوك الاخلاقى المنحرف والامراض العضوية، والتركيز على اهمية العلاج المادى للامراض، والارشاد الى العبادة وبيان اهميتها لسلامة الجسد، والاشارة الى اهمية الطب

الروحي والنفسي في الشفاء من الامراض، والاسهاب الرائع في بيان حكم الامراض المتنوعة.

التربية الارادية:

احترم النورسي ارادة الانسان ونظر اليها نظرة قرآنية وسطية بين المذاهب الفلسفية التي تلغي هذه الارادة تماماً او تضخمها حتى تتحدى الضرورات القدرية البشرية والكونية الصامدة، فهي ارادة جزئية يمكن تقويتها بالايمان المتمحور كنقطة استناد واستمداد، وبممارسة التدريب الارادي الخاص بالامتناع عن السلوك الفطري المباح، والتدرب على الاعمال الايجابية، والتكيف مع الصبر على الطاعة والبلاء وعن المعصية...

وكان النورسي بالوعد الذي كان يشير اليه في السعادة الصافية الدائمة في الاخرة وبالتلويح بالتوبة في حالة الوهدة يمنع الارادة من الترهل والموت، وباساليبه الايحائية المؤكدة على كرامة الانسان وعزته وتهافت قوة اعدائه وتأييد الله سبحانه للمؤمنين يزيد الارادة اشتداداً، وببيانه لحكم المصائب يزيد الاختيار انتعاشاً، كما كان لمنطقه العقلي المقنع وخطابه الادبي الممتع وما كان يرشد اليه من الاشكال الشعائرية والصيغ الروحية كالاستعاذة من الشيطان والاستغفار واهمال الوساوس وعدم بعثرة قوى الصبر في جوانب غير اساسية وخيالية؛ دوراً في ادامة نشاط الارادة الحرة، اما تحذيراته من اليأس والقنوط والطمع وحب الظهور والخوف والحزن والاستعجال والاستبداد بالرأي والتقليد والتسويف والراحة والاسراف والرياء والعجب والانانية فكانت تصوغ من الارادة خلقاً اخر يتحدى الوهن والتآكل والتفتت.

من وسائل التربية ومفاتيحها النورسية:

١ـ الثقة المتفائلة بالانسان.

٢ـ توجيه الخطاب الى العقل والقلب والروح معاً.

٣ـ الدعوة الى التعلم من الطبيعة واستنباط الحكمة من كتاب الكون.

٤ـ ضرب الامثال.

٥ـ تجريد الخطاب التربوى من المقاصد الدنيوية ليغدو اكثر فعالية.

٦ـ تقوية البصيرة الاخلاقية للمتربى ليغدو قادرا على مواجهة تيار الدمار.

٧ـ خلق الحس النقدى لدى المتربى ودعوته الى الحضور الفكرى اثناء التلقى(خذ ما صفا دع ما كدر).

٨ـ وضع نموذج النبى ﷺ للحث على الاقتداء به.

٩ـ استعماله كل وسائل التربية المتاحة لتوصيل المضامين المعرفية ومنها التربية بتفريغ الطاقة وبالعقوبة وبالوعظ وبالقصة بانواعها وبالقدوة الشاخصة.

١٠ـ ابرازه لخصوصية التربية النسوية. فقد اعتبر النساء مخلوقات طيبة مباركة، ونعى على التربية الغربية او المتغربة التى لم تر في المرأة سوى هيكلها المادى وجمالها الحسى، متجاهلة الاهتمام بتجميل روحها وهندسة خلقها وترقية شعورها وتأصيل ابداعها

الفكرى والادبي والعلمي والفنى، وحذر من الجهات الخفية التى تخطط لدفع المرأة الى مساقط الرذيلة.. كما اكد على تربية الطفل تربية اسلامية صحيحة.

من السمات المنهجية لرسائل النور:

١- اعتماد الكتاب والسنة الصحيحة مصدرين معصومين، ونفى العصمة والكمال عن المضامين المعرفية المتحصلة بطرق اخرى عقلية او روحية.

٢- تقديم اجتهادات الصحابة على ما تم بعد عصرهم من اجتهادات.

٣- عدم جعل العلم او العقل بما يحملانه من طوابع النسبية والقصور حكمين على الحقائق الدينية اليقينية.

٤- الاستشهاد بالمعطيات العلمية الزمينة لتأصيل قضايا الايمان وتوصيل مناهج الاسلام وبيان محاسنه.

٨- احترام الحدود الفاصلة بين عالم الغيب غير المسموح نصاً باختراقه وبين عالم الشهادة المسخر للاكتشاف والاستثمار.

٩- التعبير الادبى عن بعض الحقائق الدينية وبما يحمله من مجازات لغوية.

١٠- الاسلوب السهل الممتنع والغامض احياناً والتكرار لبعض الافكار في صيغ مختلفة والانتقال من المحسوس الى المعلوم.

النورسى مربياً :

من الاداب اللطيفة التى التزم بها النورسى في فعله التربوى بدؤه بنفسه باستكمال نواقصها ثم الشروع في عمله، والاستعلاء على المديح والنقد، والتواضع ونقد الظواهر غير الصحيحة بالبرهان والحوار، واتخاذ التسامح شعاراً له، وعدم اخذه باجر على تعليمه، ومخاطبته الناس على قدر عقولهم، وعدم انقطاعه عن التربية حتى في السجن الذى سماه المدرسة اليوسفية، وعدله في تعليمه مع كل الطلاب حتى لو كانوا ابناء اعدائه.

وبعد فقد طرح هذا المفكر كل ما قدر له ان يطرحه بشروط عصره..

فسلام على روحه المرآتية الشفافة التى عكست لنا نقوش الايمان ومعالمه البهيجة.

وسلام على وجدانه المولع بالجمال والكمال..

وسلام على عقله الذى جدد الطرح الايماني في تركيا.

وسلام على طلابه السابقين واللاحقين مع دعوة لهم لمزيد من التجديد والتعميق والتخصص والتأصيل والتبليغ لمفاهيم الفكر الاسلامى.

وسلام على الحضور الطيبين..

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين



الدكتور عبدالودود ابراهيم شلبي

- تعلم في الأزهر حتى حصوله على درجة الماجستير.
- اكمل تعليمه العالي في جامعة كمبردج و «آورينتال» في جامعة بنجاب.
- شغل مناصب عديدة في مصر والعالم الاسلامي. كما كان مديراً للمركز الاسلامي في مدينة سيدني باستراليا.
- آخر وظيفة شغلها هي وظيفة الامين العام للمجلس الاعلي للدعوة في الازهر.
- شارك في اكثر من سبعين مؤتمراً اسلامياً في آسيا وافريقيا وأوربا واستراليا.
- عضو اتحاد الكتاب المصريين. والمجلس العالمي للدعوة الاسلامية في باكستان وجمعية الدعوة الاسلامية في السودان. وعضو مؤسس في المجلس العالمي للتقريب بين المذاهبالاسلامية. له اكثر من خمسة عشر مؤلفاً باللغتين العربية والانجليزية.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ

الامام بديع الزمان

سعيد النو رسى

المصلح الذى تجسدت في دعوته كل حركات التجديد والاصلاح

الامام بديع الزمان سعيد النورسى..

اسم لا يكاد يسمع به في عالمنا العربى الا النذر القليل.

ان أمة «اقرأ» لم تعد تقرأ! والجهالة تزحف من كل ناحية على المسلمين والعرب..

وهل يصدق عاقل ان خبيراً في شئون التعليم والثقافة لا يعرف اين مات واين ولد النبى محمدﷺ؟ لقد كان هذا الخبير الاستاذ الدكتور يعتقد ان النبى مدفون في الكعبة! واذا كان هذا هو الشأن مع أهم وأعظم انسان عرفه المسلمون والعرب، فماذا يكون الحال مع آخرين من الأئمة والمصلحين من غير العرب؟!(*)

* * *

عندما كنت أميناً عاماً للدعوة الاسلامية في مصر، طلبت شراء مئات من كتاب تاريخ الامام النورسى الذى كتبه الاخ الاستاذ احسان

قاسم الصالحى، لقد فوجئت بالكثيرين يسألون عن السبب في شراء هذا الكتاب. ومن يكون «سعيد النورسى» هذا ؟ وفي اى البلاد نشأ؟ وهل هو شاعر أم كاتب؟ فقيه أم فيلسوف؟ هندى أم عربى...؟!

هذه الاسئلة كشفت عن اسباب «السقوط» الذى انتهت اليه الامة. وكل اسباب التخلف والانهيار الذى يتهدد وجودنا وكياننا بأكبر كارثة.. وما يحدث في «البوسنه والهرسك» خير شاهد على هذه المصيبة..!

* * *

لقد اخترت لبحثى في هذا المؤتمر عنواناً هو :

الامام سعيد النورسى

المصلح الذى تجسدت في دعوته كل حركات التجديد والاصلاح

كما حددت للكتابة في هذا البحث أربعة عناصر هى:

* العصر الذى نشأ فيه..

* التيارات الاصلاحية التى كانت سائدة في عصره

* المنهج الذى اختاره..

* الدور الذى قام به..

ترى.. أكنت مغالياً في هذا الاختيار؟ وفي تحديد عناصر البحث المشار إليه في هذا المقال؟

* * *

كان القرن التاسع عشر من أسوأ القرون التي مرت بها الأمة الاسلامية وكان من سوء حظ الاتراك والمسلمين معاً أنهم أخذوا في الانحطاط والتدني، ودب إليهم داء الأمم من قبلهم من البغضاء والتحاسد واستبداد الملوك وجورهم، وسوء تربيتهم، وفساد أخلاقهم، وخيانة الولاة والأمراء، وغشهم للأمة واخلاد الشعب الى الراحة والدعة، وتفشي الجهل والخرافة...« ... وانقطع ما بين المسلمين وعلومهم الاولى، فندر فيهم من كان يتعلم النافع منها كالفقه واللغة والادب، والرياضة، وانقطع ما بينهم وبين العلوم العصرية، فنظر الكثيرون منهم الى علوم الجغرافيا والطبيعة والكيمياء، كأنها الكفر البواح، او السحر المزيف، فاصطبغ فهمهم للدين بصبغة الجهل والتخريف، وطلبوا الخلاص من غير بابه، وتوسلوا للعمل بغير أسبابه، واتهموا الناصحين، واسلموا مقادتهم للدجالين والمحتالين، وفي هذه الفترة كان الاسلام كما يفهم الجهلاء مزيجاً من الخرافة والشعوذة، ومن الطلاسم والاوهام ومن الوثنية وعبادة الموتى وكان طلاب الفتوى – من مشارق الارض ومغاربها – يسألون عن الكبريت هل يجوز مسه؟! وهل يجوز قدح النار منه؟ او طبخ الطعام على ناره؟ او يأثم من يمس صنفرته، لانه مادة نجسة تنقض الطهارة».(1)

ومع كل هذه العلل.. فقد كانت الامبراطورية العثمانية قلعة للاسلام ولم تكد هذه القلعة تنهار، ويصيبها الوهن والضعف حتى فتح الباب على مصراعيه امام الغرب، وانطلق البخار المسموم من مراجل الحقد ليدمر كل من يقف في طريقه الى الشرق..

* * *

كانت النازلة شديدة، والكارثة كبيرة، والمعركة ضد الاسلام والمسلمين ضاربة عنيفة، كانت هذه الايام والسنوات كما يقول المؤرخ الجبرتى:(٢)

(... اول سنى الملاحم العظيمة، والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة، وتوالى المحن، واختلال الزمن، وانعكاس المطبوع، وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال، واختلاف الاحوال، وعموم الخراب، وتواتر الاسباب، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون).(٣)

* * *

وبدأ رد الفعل. وكان للتصرف الاستعمارى البغيض والتعصب الصليبى المقيت أثره السريع في الانتفاض واليقظة، واعلان الجهاد والثورة، وكانت السمة الدينية لزعماء الجهاد والاصلاح ظاهرة في كل شعب.. وحركة.. وفي الحالات الاستثنائية التى برز فيها قادة مدنيون او عسكريون نجد انهم – في الاصل – نشأوا نشأة دينية، او مروا بمرحلة من مراحل التعليم الاسلامى في مسجد او جامعة..

كان الدين هو القوة المحركة الوحيدة في هذا الوقت. وكان العلماء هم الجزء الحى في جسم الامة الميت.. وكما ان السيف والقيثارة قد اجتمعا في عصور الوثنية – قبل البعثة النبوية – فكذلك اتحد في الاسلام العلم الدينى.. بالنبوغ الحربى..

وممن يمثل هذه الظاهرة الفـذة في تاريخ الاسـلام الحديث «شـامل» بطل الاسـتـقـلال القـوقـازى، والمهـديون الحـربيـون الـذين ظهـروا في السودان[٤] والصومال.

* * *

في تاريخنا الاسـلامى... كانت هـناك ثلاث حركـات تكاد تكون متشابهة بل تكاد تكون متطابقة. كـان لكل حركة من هذه الحـركات دورها وأثرها في الحفـاظ على عقيدة الامة، وعلى بقـائها صافيـة نقية، وعلى تجنيـبهـا مـخاطر التـفتت والذوبـان، في عقـائد اخرى زائغـة، او السقوط في شراك الحضارة الوثنية القاتمة..

اقدم هذه الحـركات الثـلاث هى حركـة الامام المجدد المجـاهد الزاهد الشيخ احمـد بن عبدالاحد الفاروقى السـرهندى الملقب بمجدد الالف الثانى للهجرة – في الهند.

وثانى هذه الحركات هى حركة الامام الشيخ عبدالحميد ابن باديس في الجزائر.

وثالث هذه الحركـات هى حركة الامام المجـاهد بديع الزمان سعيد النورسى في تركيا.

* * *

كانت حركة «ابن باديس» تجسيداً للمقاومة والثورة ضد الاستعمار الفـرنسى الذى حـاول طمس وتغـيـير كل مـا هو اسلامى او عـربى في الجزائـر. ألـم يعلن الكاردينال الفرنسـى «لافيجـرى» ان الجزائر لـم تـعد مسلمـة. وان الجزائر اصبـحت مهداً للمسيحيـة، وان اجراس الكنائس

يجب ان تعلو لتحل مكان الآذان في اى مسجد او زاوية!

وكما يخرج اللبن من بين فرث ودم، ويطلع الفجر من بين ثنايا الظلام والليل استيقظت الجزائر كلها على صوت الشيخ عبدالحميد ابن باديس وهو يعلن بأعلى.. صوت:

شعب الجزائر مسلم * والى العروبة ينتسب
من قال حادَ عن اصله * او قال مات فقد كذب
او رام إدْماجاً له * رام المحال من الطلب

وقد سلك في ذلك طريق التعليم والتربية، والوعظ والدعوة، والنشر، والصحافة..

كانت حركة الشيخ بن باديس معاصرة لحركة الشيخ سعيد. فالشيخ سعيد ولد في عام ١٢٩٣هـ . بينما ولد الشيخ بن باديس في عام ١٣٠٨ هـ .

اى ان الشيخ سعيد كان اكبر من الشيخ بن باديس بحوالى خمسة عشر عاماً.

وبينما توفى الشيخ عبدالحميد بن باديس مبكراً اى في عام ١٣٥٩ هـ فقد توفى الشيخ سعيد متأخراً اى عام ١٣٧٩ هـ...

* * *

غير اننا نرى في حركة الامام «احمد السرهندى» تطابقاً كاملاً مع حركة الامام سعيد النورسى.. من حيث الظروف التى نشأت فيها والمشكلات التى واجهتها، والنتيجة التى انتهت اليها كل منهما.

فالامام «السرهندى» نشأ في عصر اسوأ ملوك الاسلام في الهند قاطبة.. في عصر الملك «اكبر» .. ذلك الملك الغرّ الذى اراد ان يقضي على الاسلام في الهند قضاء مبرماً والى الابد..!!!

وان يضع ديناً جديداً مقتبساً من شعائر الوثنية ورسومها يتخللها شئ من تعاليم الاسلام وتوجيهاته . والذى حمله على اقتراف هذه الجريمة الشنعاء، حرصه على بقاء الملك والتحبب الى اهالى البلاد من الهنادك، وزعمه الفاسد بأن هذا الصنيع يقربه اليهم ويرفع مقامه في أعينهم ويحله محل الصدارة من قلوبهم. فأختار لذلك طرقاً عديدة ومناهج متشعبة.

منها تزوجه من بنات امراء الهنادك مع بقائهن على عقائدهن وتمسكهن بدياناتهن وادائهن لشعائرهن في القصر الملكى.

ومنها تخلقه باخلاق الوثنيين وعاداتهم وتقليدهم في ملابسهم. وقد بلغ منه الكره والعداء للاسلام ان كان يسمى الخدم والفراشين باسماء النبى ﷺ (احمد ومحمد)، تحقيراً لشأن الرسالة وغضاً من كرامتها.

وكذلك استبدل بالتقويم الهجرى الاسلامى تقويماً جديداً سماه التقويم الالهى، يبتدئ بسنة جلوسه على سرير الملك.

ومن بدعه انه احل الخمر والقمار وغيرهما من الخبائث والمنكرات واعانه على ذلك علماء السوء في عصره من عبيد الدينار والدرهم، فزينوا له ما سوّله له عقله المعتوه، وجعلوه يستيقن من نفسه العصمة، وقدموا اليه عريضة – تسمى محضراً باللغة الفارسية – تثبت للملك

الغر العصمة وتخوله الحق في ان يشرع من القانون ما يشاء ويضع من الاحكام ما يريد الى غير ذلك من الاباطيل والخزعبلات التى تضيق هذه العجالة عن سردها.

وجملة القول ان هذه البدع والمنكرات ما كانت الا مقدمة لما كان عقد العزم عليه من وضع دين جديد ينسخ به دين الله الخالد بزعمه، ظنا منه ومن خواص أشياعه ان هذا الدين (الاسلام) الذى جاء به محمد العربى - و«البدوى» حسب تعبير اولئك الزنادقة، قد مضى عليه الف سنة، والعصر الجديد يومئذ في حاجة الى دين جديد يوافق ميول اهل العصر واهواءهم ونزعاتهم. فاعلنوا دينهم الجديد وسموه (الدين الالهى).

وكان شعارهم في ذلك (الله اكبر) يريدون به ان هذا الملك الضليل المعتوه (اكبر) هو الله.. !!

فكان من اثر كل ذلك ان اصبح عصر هذا الملك المأفون (٩٦٤ - ١٠١٤هـ) عصر بلاء ومحنة للاسلام والمسلمين في هذه الديار اتسع فيه الخرق على الراقع وجاوز السيل الزبى. فاضطهد من اضطهد من عباد الله، وحبس، واعتقل من اعتقل. الا انه مما يؤلم القلب ويدمع العين انه قد زلت في هذه الفتنة العمياء اقدام الخاصة والعامة ولم ينج من شرها حتى من كان يعد من كبار العلماء الفقهاء في ذلك العصر، فلم يثبت في تلك المحنة الكبرى الا عدد قليل منهم جداً. اما جمهور العلماء والعدد الغالب منهم، فقد استسلموا لامر الملك وجبروت السلطان القاهر ولم يتحرجوا من التوقيع على (المحضر) الذى ادعى للملك العصمة وخوله الحق في وضع الشريعة.

لما آل الامر الى ما تقدم بيانه من غربة الاسلام في هذه البلاد، والتضييق على المسلمين واضطهادهم، واصبح مثل القابض على الدين من بينم كمثل القابض على الجمر.

وقف الرجل الذى قيض الله ان يقف في وجه هذا الطاغية وانصاره الضالين المضلين ، ويرفع لواء افضل الجهاد، ويصدع بكلمة الحق، ويكبح جماح غوايتهم، ويقضى على بدعهم وشرورهم قضاء مبرماً. فقام الامام المجاهد العالم الزاهد الشيخ احمد ابن عبدالاحد الفاروقى السرهندى(٥) الملقب بمجدد الالف الثانى للهجرة(٦) بالجدارة والاستحقاق، وشمر عن اذياله لمقاومة الفتنة الاكبرية ورد مكايد اعداء الاسلام، وتهذيب نفوس اهل الغواية وجاهد في ذلك جهاداً موفقاً مبرورا حتى انجحه الله في مساعيه (٧)، وقضى قضاء مبرماً على فتنة هذا الملك المعتوه وحوارييه.

* * *

واذا كان الاسلام هو دين «التوحيد» فهو كذلك دين الوحدة..

﴿ إنّ هذه أُمّتُكُم أُمّة واحِدَة ﴾ (سورة الانبياء: ٩٢).

﴿ ولا تكونوا من المشركين* من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ (سورة الروم: ٣١ - ٣٢)

واذا كان الاسلام قد قضى على الوثنية والشرك.. فهو كذلك قضى على الفرقة والخلاف الوريثين الحقيقيين لهذه الوثنية وهذا الشرك.

وفي ذلك يقول النبى محمد ﷺ: (لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض).

* * *

ولم يبتل المسلمون قديماً وحديثاً بمثل هذا التمزق، والتفرق، والتعصب لمذهب على حساب مذهب، حتى روي ان شافعياً سئل: عن حكم الطعام الذى وقعت عليه قطرة من النبيذ فقال اى الشافعى: يرمى – اى الطعام – لكلب او لحنفى..!

كما سئل رجل حنفي: هل يجوز للحنفى ان يتزوج المرأة الشافعية؟ .. فقال اى الحنفى: ان ذلك لا يجوز لانها تشك في ايمانها..

وقال حنفى آخر: يجوز زواجها قياساً على زواج اليهودية والنصرانية..!!

ومن أسوأ صور هذا التعصب ما قاله الشيخ ابو الحسن عبدالله الكرخى الحنفى قال:

كل آية او حديث تخالف مذهبنا فهى إمّا مُؤَوَّلَةٌ او منسوخة(٨)..!!

* * *

وحتى يومنا هذا لايزال بين المسلمين من يرى الامامين الجليلين ابن تيمية وابن القيم ضالين .. مضلين .. !!!

وحتى يومنا هذا لايزال بين المسلمين من يرى الصوفية والتصوف شركاً وخرافة..!!!

وحتى يوماً هذا لايزال بين المسلمين من يرى ابن عربى كافراً ومرتداً.. !!!

وحتى يومنا هذا لايزال هناك كثيرون يرمون الشيعة الامامية بالحجارة ، ويتهمونهم بالكفر والزندقة..!!!

لقد وقف بديع الزمان امام هذه الخلافات كلها موقف القاضى العادل. وتجاوز كل هذه الخلافات التى افرزها الجهل والتعصب القاتل ووازن بين هذه الآراء كلها بميزان الحق الذى لا يميل الى جانب دون آخر..

يقول الاستاذ احسان الصالحى[٩]:

«تدعو رسائل النور الى نصب ميزان العدالة الالهية الذى يزن به الله سبحانه اعمال المكلفين يوم الحشر، والى اقامته في الدنيا كذلك عند ذكر الاشخاص او الجماعات.

لذا ترى انها عندما تضع موازين وقياسات بين المختلفين في أمر ما، لا تنحاز الى جهة دون اخرى ولاتغمط حق احدهما دون الآخر. فتذكر الحسنات والسيئات وتذكر الاسباب الداعية الى الاخطاء، بدراسة العوامل المؤثرة مع عوامل المحيط.. وغيرها من الامور...

هذا دأب الرسائل في الخلافات التاريخية سواء بين مفكرى الاسلام او بين الجماعات او اى شكل من اشكال تلك الخلافات، وبدراسة النص الآتى يتمكن القارئ ان يلم ببعض الجوانب التحليلية الدقيقة والموضوعية الخالصة لنظرة رسائل النور الى اى خلاف كان من الخلافات الفكرية في التاريخ:

لا يمكن لاحد ان ينكر فضل «اهل السنة والجماعة» في حفظ الحقائق القرآنية والايمانية والسنة النبوية الشريفة على المحجة البيضاء كما تركها الرسول ﷺ فالعالم الاسلامى بأسره مدين لهم، معترف بفضلهم عليه، جزاهم الله عن امة الايمان والاسلام كل خير... وببركة

هذا العمل العظيم كانت الاكثرية المطلقة من الاولياء الصالحين قد ظهرت من بين صفوف هذه الجماعة المباركة... ولكن شوهد وعرف اولياء آخرون في طريق تخالف اصول السنة والجماعة، وخارجة عن بعض قواعدهم وطرائقهم...

لقد انقسم الناس – في شأن هؤلاء الاولياء – الى ثلاثة اقسام:

القسم الاول: وهم الذين انكروا ولايتهم وصلاحهم، وذلك لمخالفتهم اهل «السنة والجماعة»... بل قد ذهبوا الى ابعد من الانكار حيث كفّروا بعضهم ...

القسم الثاني: وهم الذين اقروا بولايتهم ورضوا عنهم واتبعوهم، ودافعوا عن طريقتهم قائلين:

«ان الحق ليس محصورا على سبيل اهل السنة والجماعة»...

فشكلوا بهذا القول والاعتقاد فرقة مبتدعة، وانساقوا الى الضلالة ناسين ان المهتدى لنفسه ليس من شرطه ان يكون طريقاً لهداية الآخرين... فان وجد من يعذر شيوخهم على اخطائهم وشطحاتهم لانهم مجذوبون، الا ان اتباعهم ليس لهم العذر في اتباعهم في الصواب منهم والخطأ...

القسم الثالث: وهم الذين سلكوا طريقاً وسطاً، حيث لم ينكروا ولاية اولئك وصلاحهم، الا انهم لم يرضوا بطريقتهم ومنهجهم...

وقالوا: ان ما تفوهوا به من الاقوال المخالفة للاصول الشرعية، اما انها

نية – عليهم، مما جعلهم في

سطحات نعجز عن معرفة معانيها

وفهم مراميها، وما ترمز وتومئ اليه من معان وافكار...

اما اصحاب القسم الاول – وبالاخص علماء اهل الظاهر – فقد انكروا بنية الحفاظ على طريقة اهل السنة – ولاية اولياء عظام ورفضوها مع الاسف – ولم يكتفوا بذلك بل ذهبوا – مضطرين – الى ابعد منه فحكموا بضلالتهم..

اما اصحاب القسم الثانى: وهم المتطرفون بتأييد شيوخهم وقبول كل مايجئ منهم، اقبلوا على طريقهم، وادارو ظهورهم لطريق الحق وعافوها لما يضمرون من حسن الظن المفرط بشيوخهم، حتى انجرف البعض منهم الى الضلالة دون ان يشعر...»..

هذا وقد يتبادر الى ذهن القارئ: مارأى رسائل النور في كل من شيخ الاسلام «ابن تيمية» وتلميذه المخلص «ابن قيم الجوزية» وهل لهما ذكر في الرسائل، ثم ما رأى الرسائل كذلك في الشيخ محى الدين بن عربى وطريقته ؟؟

ونحن – حرصاً على الاختصار – نقتطف هذه الفقرة التى يذكر فيها الاستاذ النورسى الشيخ ابن تيمية وابن قيم الجوزية في رسالة ارسلها الى احد تلاميذه وهو في «امير داغ» فيصفهما بـ «الجهبذين الداهيين» و«المثيرين للاعجاب» و «المشهورين» يصف كتبهما كذلك بانها من المؤلفات ذات الجاذبية القوية جداً والعجيبة جداً (... انه منذ فترة نرى – بين العلماء في استانبول – تتداول مؤلفات عجيبة جداً ذات جاذبية لابن تيمية وابن قيم الجوزية اللذين هما من الجهابذة الدهاة المشهورين المثيرين للاعجاب)..

اما بالنسبة الى الشيخ محى الدين بن عربى، فسنقتطف فقرتين من رسالتين مختلفتين: احدهما تحلل شخصيته والاخرى طريقته:

« لايسعني الوقت الكافي لوضع ميزان بين الافراط والتفريط بحق هذا الشخص فأكتفي بما يأتي:

انه – اى محى الدين بن عربى – لاينبغى ان يكون مرشداً او قدوة في جميع ما كتبه، رغم انه شخص مقبول ومهتد...

ولكن لمخالفته القواعد الثابتة لأهل السنة فانه يمضي غالباً دون ميزان في الحقائق، لذا افادت بعض أقواله – ظاهراً – الضلالة، غير انه برئ من الضلالة، والكلام قد يبدو كفراً بظاهره ولايكون القائل به كافراً...)..

ويحدد رأيه في كتبه ختام الرسالة نفسها قائلاً:

(لذا فان قراءة كتب محى الدين مما يضر في زماننا هذا، وبالاخص آراءه في وحدة الوجود)[١٠] »..

* * *

كان منهج الامام بديع الزمان في مواجهة هذه الخلافات والتناقضات هو منهج الامام الغزالى في مواجهة هذه الخلافات والتناقضات التى كانت سائدة في عصره. كانت له افكاره الخاصة، ومواقفه المستقلة التى خالف فيها من قبله حتى من اهل مذهبه..

فالامام الغزالى خالف الاشعرى في بعض مسائل الكلام..

وخالف امامه الشافعى في بعض مسائل الفقه، كما نرى ذلك في (الإحياء) في مسألة (المياه) التى قال: كنت اود ان يكون مذهبه فيها كمذهب مالك، وايد مذهب مالك بسبعة ادلة[١١]..

وخالف المتصوفة في شطحاتهم وتهويماتهم غير المنضبطة بالشرع ولا بالعقل.

فقد انكر في (الاحياء) الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى، والوصال المغنى عن الاعمال الظاهرة، حتى ينتهى بقوم الى دعوى الاتحاد، وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية، والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا، وقلنا: كذا، ويتشبهون فيه بالحسن بن منصور الحلاج، الذى صلب لاجل اطلاقه كلمات من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله: انا الحق! ... فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شرره، وعظم في العوام ضرره، حتى من نطق بشئ منه، فقتله افضل في دين الله من احياء عشرة!

وكانت مخالفته للاشعرى مما اثار حوله غباراً كثيفاً حتى اتهم بالزيغ بل بالكفر، حيث طعن عليه طائفة(من الحسدة) بأن في بعض كتبه ما يخالف مذهب الاصحاب المتقدمين، والمشايخ المتكلمين، وان العدول عن مذهب الاشعرى – ولو في قيد شبر – كفرا، ومباينته – ولو في شئ نزر – ضلال وخسر!(١٢)

وقد واجه هذه الحملة العنيفة بتصنيف كتابه (فيصل التفرقة الاسلام والزندقة)..

* * *

لم يكن اهتمام الامام بديع الزمان سعيد النورسى بالسياسة اهتماماً سياسياً بالمعنى المعروف لهذه الكلمة، بل كان اهتمامه بها اهتمام المسلم المعذب بشجون امته، ذلك لان السياسة بمعناها المعروف في

هذا العصر تعنى التحدث عن شئ.. ثم العمل على نقيض هذا الشئ..

فالسياسة في الاسلام مرتبطة بالعقيدة، وبالاخلاق وبالقيم التى تنادى بها هذه العقيدة، والامام بديع الزمان كان في تصرفه وسلوكه تجسيداً لهذه العقيدة وهذه القيم والاخلاق التى تنادى بها هذه العقيدة.. ان القضية كلها كانت تدور حول المفهوم الدستورى لمعنى حديث الرسول ﷺ «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» .. لأن معنى هذا الحديث يفرض على كل مسلم ومسلمة الجهر بكلمة الحق .. والتدخل لاعلاء كلمة الله في الارض، والسعى بكل الوسائل لرفع راية الاسلام وشريعته في دواوين السلطة والحكم.

ولم يكن الامام سعيد النورسى يختلف في هذا الشأن عن جمال الدين الافغانى. كلاهما جهر بالحق وكلاهما صرخ في وجه الطغاة والظلمة: ان كفوا عن ظلم الرعية والشعب..

غير ان الجانب الفكرى والتربوى كان هو الغالب في منهج الامام بديع الزمان.. وهو المنهج ذاته الذى اختاره الشيخ محمد عبده بعد انفصاله عن السيد جمال الدين الافغانى حتى قال الشيخ محمد عبده في ذلك كلمته المشهورة:

لعن الله السياسة، وما تفرع منها من ساس، ويسوس، وسائس...!!

كانت اهم وسيلة لاصلاح العقيدة في نظر الشيخ محمد عبده هى تفسير القرآن الكريم..

كان يقرأ الاية فاذا اتصلت بالعقيدة شرحها شرحاً وافياً، عارضاً ما ورد في القرآن الكريم في موضوعها، مبيناً ما دخل على المسلمين في هذه العقيدة من فساد ودخيل، واذا اتصلت الاية بالاخلاق أبان أثر هذا الخلق في صلاح الأمم وضياعه في فسادها، واذا اتصلت بحالة اجتماعية أوضح أثر هذه الحالة الاجتماعية في حياة الامم مسترشداً بالواقع وبما يجرى في العالم. فهو تفسير عملى يشرح الواقع ويبين سببه، وهو تفسير اخلاقى يدعو للعمل على مبادئ الاسلام، وتفسير روحانى يدعو الى السمو بالنفس الى العالم العلوي.. (١٣)

هذا المنهج هو الذى اختاره الاستاذ الامام في تفسير المنار..

وهذا المنهج نفسه، هو الذى اختاره الشهيد سيد قطب في « ظلال القرآن ». كما اختاره شيخ الازهر الاسبق الشيخ محمود شلتوت في تفسيره للقرآن الكريم.. واختاره بعد ذلك كثيرون في مختلف اقطار الاسلام..

وهذا المنهج في تفسير القرآن، هو المنهج نفسه الذى اختاره الامام بديع الزمان ...

لقد وصف الاستاذ الرسائل بقوله:

« ان رسائل النور برهان للقرآن الكريم، وتفسير قيم له وهي لمعة براقة من لمعات اعجازه المعنوى، ورشحة من رشحات ذلك البحر، وشعاع من تلك الشمس وحقيقة ملهمة من كنز العلم، وترجمة معنوية نابعة من فيوضاته »..

« فهى ليست كالمؤلفات الاخرى التى تستقى من مصادر متعددة من العلوم والفنون، فلا مصدر لها سوى القرآن الحكيم ولا ترجع الا اليه، فلم يكن عند المؤلف اى كتاب حين تأليفها ».

« واذا قيل: كيف تعد رسائل النور تفسيراً للقرآن الكريم مع انها لا تشبه التفاسير المتداولة؟

فالجواب: « التفسير نوعان »..

الاول: هو تفسير اللفظ والعبارة والجملة في الآية الكريمة.

والآخر: اثبات الحقائق الايمانية للقرآن الكريم اثباتاً مدعماً بالحجج الرصينة والبراهين الواضحة.

وقد ثبت بشهادة ألوف من العلماء المحققين ان رسالة النور هى من هذا القسم « الثانى » من التفاسير بل من أثمنه واسطعه وأكمله وأكثره قيمة »...(١٤)

* * *

لقد ولد بديع الزمان النورسى في عقد واحد مع العلامة الدكتور محمد اقبال. كلاهما ولد في سبعينيات القرن التاسع عشر.

صحيح ان بديع الزمان كان أسبق سناً وأطول عمراً...(١٥)

غير ان موقفهما من الحضارة الغربية كان موقفاً واحد، كلاهما لم تخدعه الظواهر البراقة الزائفة، وكلاهما لم تغره طبول الدعاية الكاذبة. لقد نظرا الى جوهر الحضارة وروحها. وتعمقا في فهم خفاياها واسرارها.

لم يكن موقفاً ضد التقدم او العلم .ولم يكن موقفاً ضد التحرر من الظلم..

ان هذا كله جزء من عقيدتنا. والاسلام هو الدين الوحيد الذى جعل طلب العلم فريضة من فرائض ديننا..

فموقف العلامة اقبال، وموقف بديع الزمان بعيدان كل البعد عن هذا التصور، فليس من المعقول ان يقف الاسلام من العلم موقف التناقض، وكيف يتصور ذلك بينما كانت معجزة هذا الدين الكبرى كتابا كانت اول كلمة اوحى بها هي كلمة «إقرأ»..

وانما نعنى هذه الحضارة التى:

«... تنشر الكفر وتبث الجحود، ترى هل يمكن ان يسعد انسان مجرد تملكه ثروة طائلة وترفله في زينة ظاهرة خادعة، وهو المصاب في روحه وفي وجدانه وفي عقله وفي قلبه بمصائب هائلة؟ وهل يمكن ان نطلق عليه انه سعيد؟ !! الا ترون ان من يئس من امر جزئى، وانقطع رجاؤه من امل وهمى، وخاب ظنه من عمل تافه، كيف يتحول خياله العذب مراً علقماً. وكيف يتعذب مما حوله من اوضاع لطيفة، فتضيق عليه الدنيا – كالسجن – بما رحبت ..! فكيف بمن اصيب بضربات الضلالة في اعمق اعماق قلبه، وفي اغوار روحه ؟ وهل يمكن ان يطلق لمن روحه وقلبه يعذبان في جهنم وجسمه فقط في جنة كاذبة زائلة.. انه سعيد؟(١٦)

أليس هذا بعينه ما قاله «اليكس كاريل» في كتابه (الانسان ذلك المجهول)..

وان هذا هو ما حذر منه توينبى في تحليله لهذه الحضارة.

وهذا هو ما تنبأ به (اليكس كاريل) — الفرنسى — قبله.

وقد ظهرت في الآونة الأخيرة المئات من الكتب والبحوث التى تتنبأ بقرب سقوط هذه الحضارة كما سقطت قبلها حضارات كثيرة..

« .... ان — اوربا — كما تنبأ العلامة الدكتور محمد اقبال تنتحر والروح تموت عطشاً في سرابها الخادع فيها حضارة.. نعم ولكنها حضارة تحتضر وان لم تمت حتف انفها فلسوف تنتحر غداً وتذهب، فاساس هذه الحضارة منهار لا يحتمل صدمة..

تستوى في هذا الشيوعية كما تستوى في هذا الرأسمالية..

فكلاهما يقوم على الشره، والنهامة. وكلاهما معاد لحقيقة الانسان الذى استخلفه الله فوق هذه الارض.»[١٧]

وقد صدق نصف النبؤة، بسقوط الشيوعية. ولن يبعد كثيراً هذا اليوم تكتمل فيه هذه النبؤة...

* * *

نحن اذن امام رجل لا كالرجال، كما يقول العلامة — عباس العقاد —[١٨]: رجل عبقرى.. او رجل ممتاز من خاصة الخليقة الذين لا يعدون في الزمن الواحد بأكثر من الآحاد..

أنقول رجل قوى؟ نعم هو رجل قوى لا مراء، وكل عظيم فهو قوى بمعنى من معانى القوة.. وكل رجل من هذا القبيل فمعرفته ليست بالامر اليسير لانه نمط لا يتكرر. وقد يكون الرجل العظيم نمطاً وحيداً في

التاريخ كله لا نظير له في تفصيل اخلاقه وصفاته وان ساواه في القدر انداد وقرناء..

وقد بلغ – سعيد النورسى – شأوا بعيداً في تأكيد هذه العظمة، وتأكيد هذه القوة..

قوة الايمان في مواجهة الكفر ..

وقوة الحق في مواجهة الباطل ..

وقوة العلم في مواجهة الخرافة ..

وقوة التضحية في مواجهة السيف والموت ..

ان قصة بديع الزمان مع الجنرال الروسى « نيقولا فيج » مثال حي على هذه العظمة وهذه القوة ..

وموقف بديع الزمان في المحكمة – التى سيق اليها – بدعوى الاشتراك في حركة تطالب بتطبيق الشريعة – مثال آخر على هذه القوة وهذه العظمة ..

ففى ساحة المحكمة، ومنظر جثث خمسة عشر مشنوقاً تشاهد عبر النافذة يسأله رئيس المحكمة قائلاً:

– انت تدعو الى تطبيق الشريعة؟ ان من يطالب بها مصيره الشنق كما ترى في جثث هؤلاء المشنوقين الخمسة عشر(١٩):

هنا يقف « بديع الزمان » قائلاً:

لو ان لى ألف روح لما ترددت ان اجعلها فداء لحقيقة واحدة من حقائق الاسلام.. اننى اقول لكم وانا واقف امام البرزخ الذى تسمونه

السجن في انتظار القطار الذى يحملنى الى الآخرة..

انني في غاية الشوق لقدومي الى الآخرة .. وانا مستعد للذهاب مع هؤلاء الذين علقوا على المشانق..

لقد كانت هذه الحكومة تخاصم العقل ايام الاستبداد والان فان هذه الحكومة تعادى الحياة.

واذا كانت هذه الحكومة هكذا..

فليعش الجنون..

وليعش الموت.. وللظالمين فلتعش جهنم...!!!

* * *

وبعد: .... فاذا صلح العالِمُ .. صلح العالم .. كلمة سمعتها من رجل بسيط مسلم، فالمسلم بفطرته يحكم بميزان هذه الفطرة في شئون القلب، ويقيم من نفسه حاكماً على ما تقع عليه عيناه في دنيا الخلق..

ذلك لانه اذا صلح العالم، صلح الحاكم، واذا صلح الحاكم صلحت امور الرعية، واستقامت الموازين الفاصلة بين الاستبداد والحرية..

يقول النبى ﷺ:

(صنفان من امتى اذا صلحا صلح الناس، واذا فسدا فسد الناس، العلماء والأمراء) ..

العالم اولاً لأنه المسئول عن البيان والحاكم ثانياً لأنه يحكم طبقاً لما يوضحه العالم من امور يقوم عليها نظام الحياة والعمران .

يقول مقاتل بن سليمان:

دخلت على (حماد بن سلمة) فاذا ليس في البيت الا حصير وهو جالس وفي يده مصحف يقرأ فيه وجراب فيه علمه – اى كتبه – ومطهرة يتوضأ منها، فبينما انا جالس اذ دق الباب فقال: يا حبيبة أخرجى فأنظرى من هذا؟ فقالت: رسول محمد بن سليمان (اى الحاكم)، فاذن له فدخل..

فقال: اما بعد : فصبحك الله بما صبح به اولياءه واهل طاعته، وقعت مسألة فأتنا نسألك عنها..

فقال: يا حبيبة هلم الدواة، ثم قال لى: اقلب الكتاب واكتب : اما بعد : فانت صبحك الله بما صبح به اولياءه واهل طاعته، إنا ادركنا العلماء وهم لا يأتون احدا، فان وقعت لك مسألة فأتنا وسل ما بدا لك، وان أتيتنى فلا تأتنى بخيلك ورجلك فلا أنصحك ولا أنصح الاًّ نفسي والسلام..

فبينما انا جالس اذ دق الباب..

فقال: يا حبيبة اخرجى فانظرى من هذا ؟

قالت: محمد بن سليمان (اى الحاكم) ..

قال: قولى له : يدخل وحده ..

فدخل وجلس بين يديه ..

ثم ابتدأ فقال: ما لى اذا نظرت اليك امتلأت رعباً؟!!!

قال حماد: حدثنى ثابت البنانى قال: سمعت أنساً يقول:

سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«ان العالم اذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شئ.. واذا أراد ان يكنز الكنوز هاب من كل شئ»..!!!

* * *

ان الامام بديع الزمان سعيد النورسى لن يموت في ضمير هذه الامة.. وان كلماته ووصاياه لن تذهب سدى ولا هباء ما بقى في الحياة مسلم غيور او مسلمة.

ان موته لم يكن نهاية مجده ولا جهاده .. وان النور المحمدى الذى سطع منه لن يقدر احد على اطفائه ..

والا فما الذى جاء بنا من مصر بلد الازهر .. ان الاسلام لا يعرف فواصل الجنس ولا اللغة.. وما نكبت هذه الامة بمثل ما نكبت به على ايدى هؤلاء السفاحين والقتلة الذين اعادوها جاهلية وشعوبية..

لقد سطعت شمس الحقيقة الاسلامية في شخص بديع الزمان سعيد النورسى..

وهى حقيقة تتجاوز الزمان والمكان والحاضر والمستقبل.. حقيقة احيت الامل في القلوب المظلمة باليأس. وفي الشعوب التى توهمت ان نداء الايمان قد خفت من فوق مآذن «اسلامبول» التى عادت – كما كانت – تستقبل ابناء الاسلام من كل لون ومن كل جنس...!!!

الهوامش

(*) انظر كتابنا « حتى لانخدع » .طبعة دار الشروق – القاهرة

(١) الاسلام في القرن العشرين – ص ٤٣ – عباس العقاد.

(٢) في حديث عن رسول الله ﷺ انه قال:

« يوشك ان تداعى الامم عليكم كما تداعى الاكلة على قصعتها » الحديث رواه ابو داود والبيهقى في دلائل النبوة.انظر مشكاة المصابيح ج٢ طبعة المكتب الاسلامى ١٣٨١ هـ .

(٣) عجائب الآثار للجبرتي – طبعة دار الشعب بالقاهرة.

(٤) انظر في هذا الموضوع – المهدى السودانى – للكاتب – طبعة دار المعارف – القاهرة ١٩٨٠ م . .

(٥) نسبة الى (سرهند) بين دهلى عاصمة البلاد الهندية وبنجاب، وقبره يزار ويتبرك به.

(٦) والطريقة المنسوبة الى الشيخ، وهى الطريقة المجددية، وهى وان كانت ابعد الطرق عن البدع والخرافات فقد تطرق اليها بعض الغلو من الذين نسبوا اليه الكرامات الخارقة وعزوا اليه اقاويل واعمالاً لا يشك عقلاؤهم في براءته منها.

(٧) نظرة اجمالية الى انتشار الدعوة الاسلامية في الهند . – مسعود الندوى – ص ٢٠ وما بعدها.

(٨) ما لا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين – فضيلة العلامة الشيخ عبد الجليل عيسى – ص ٥٦ – وما بعدها . .

(٩) بديع الزمان سعيد النورسى – ص ١٧٤ وما بعدها.

(١٠) بديع الزمان سعيد النورسى – ص ١٧٧.

(١١) انظر: الاحياء ج١ – كتاب الطهارة.

(١٢) الامام الغزالى .. د/يوسف القرضاوى – ص ٦٧ – ٦٨.

(١٣) تاريخ الاستاذ الامام «لرشيد رضا – محمد عبده «للعقاد – زعماء الاصلاح «احمد امين – ص٣٢٩ – الطبعة الخامسة..

(١٤) بديع الزمان سعيد النورسى – ص١٥٤ وما بعدها..

(١٥) ولد العلامة اقبال سنة ١٨٧٧م وتوفى في ابريل ١٩٣٨م، بينما ولد بديع الزمان سنة ١٨٧٣م وتوفى عام ١٩٦٠م.

(١٦) بديع الزمان – ص١٦٧.

(١٧) روائع اقبال – العلامة ابوالحسن الندوى.

(١٨) عبقرية عمر – طبعة دار الهلال – ص٢٧.

(١٩) بديع الزمان سعيد النورسى – ص٣٤ – ٣٥.



الدكتور عماد الدين خليل

- استاذ التاريخ الاسلامي ومناهج البحث في جامعة الموصل في العراق.
- ولد عام ١٩٣٩ في الموصل في شمالي العراق.
- درس في الموصل وبغداد والقاهرة حيث حصل على الدكتوراه في التاريخ الاسلامي في عام ١٩٦٨م من جامعة عين شمس.
- عمل محاضراً في اكثر من جامعة عراقية وعربية واسلامية.
- شارك في العديد من الندوات والمؤتمرات العلمية والثقافية في عدد من البلدان.
- ألّف اكثر من اربعين كتاباً في مجال التاريخ وفلسفته والمنهج والفكر والادب الاسلامي تنظيراً ونقداً وإبداعاً.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـنِ الرَّحِيم

رؤيـــة جمالية

في «الكلمات»

القسم الأوّل

« الاسلوب والتقنيّات »

عبـرتُ (الكلمات) من بدئهـا حتى منتـهاها.. ساعـات طويلة وأنا أعيش فكر (النورسي) وتدفقّ عطائه كـالشـلاّل.. بمرور الوقت بدأت أحسّ أنني اتجـاوز حالة (القـراءة من الخـارج) وأنني اقتـرب منه شـيئـاً فشيئاً لكي مـا البث أن اجلس قبالتـه تماماً، فانصت لكلمـاته واعيشـها وهي تتشكل على يديه كلمة كلمة وحرفاً حرفاً.

في البـدء كنت اتصوّر ان المنظور الجمـالي (للكلمات) يتـوزّع هنا وهناك، في مقاطع وفـقرات وفصول، كما هو شـأن مفكرين شتى، وأنه ـ بالتـالي ـ يمكن أن يكون مجـزءاً وأنه ـ بشكل من الاشكال ـ يمكن فصله عن سياقه وفق المنهج الاكاديمي، لكي يعود المرء فيتعامل مع المادة الجمـالية المنتزعـة بعناية من فكر الرجل، فيـدرسهـا ويوغل في دلالاتها،

ويعيد تركيبها وفق نسق موضوعي يمنح الدارسين تصوّراً اكثر مقاربة لمعطيات (النورسي) الجمالية.

تبيّن لي أن هذا مستحيل، ذلك أن المعطى الجمالي (للكلمات) لا يكاد ينفصل عن دفقها الذي يبدأ من اول لحظة فلا يخفت نبضه حتى آخر كلمة فيه. ليس هذا فحسب، بل ان كل موضوعة من موضوعاته المتنوعة الخصبة، لا تكاد تبعد، أو تنفصل عن المسألة الجمالية في الشكل والمضمون، بل انها تتلبّسها وتتعاشق معها، بحيث أن محاولة فصلها عن السياق تغدو في المنظور المنهجي امراً تعسّفياً.

والبديل؟

ان يتحوّل المرء الى صيغة عمل أخرى تحاذر مظنّة الاقتطاع... تتجاوز اسلوب البحث عن (الشاهد) المتفرّد، محيلةً القارئ الى حشود من الشواهد لكل حالة او مسألة، وترحل في الكتاب، في ضوء سياقات الجمال أو تياراته الأساسية لكي تقول، أوتؤشّر، اوتومئ - في الأقل - الى ما اراد (النورسي) أن يقوله عن (الجمال) من أُفقه الايماني الرحب الذي يتجاوز المنظور الى الغيب، والأرض الى (السماء)، والدنيا الى الآخرة، والذرة الى الكتلة، والنبض الى القانون، والسنّة الى الخارقة، وهندسة العقل الى دفق الوجدان، والجماد الى الحياة، والانسان الى النبات والحيوان والانهار والشلالات والجبال، وكتاب السماوات والأرض الى كلمات الله في قرآنه المبين.. إنه - باختصار لا اختصار بعده - يتعامل مع ابداعية الله سبحانه في الكون.. مع كلمة الله ذي الجلال والجمال، تلك التي تقول للشيئ: كن، فيكون.

بدءً من صيغِ الخطاب التي تعتمد (الكلمة) وتفجّر قدراتها البلاغية، وانتهاءً بأبعد آفاق المعطى الجمالي متمثّلاً بالتناسق الكوني: في بنية الكون نفسه وفي كتاب الله المعجز الذي يعكس بتكوينه اللغوي المدهش، حالة جمالية متفرّدة، بُحثت وقرئت آلاف المرّات، فلم تخلق على كثرة الردّ.. وها هو ذا (النورسي) يجيئ، في الموعد المضروب من عصر المادية الطاغي، لكي يضيف ما يهز الوجدان بصدد الاعجاز الجمالي للقرآن، والرسالة وكلمات الله التي ما لها من نفاد.. وإبداعيته الباهرة في الكون والعالم والوجود والطبيعة والحياة والانسان والاشياء والذرات والجزئيات.

علىٰ هذا فان البحث قد يطول فيتجاوز حدوده المناسبة للقاء كهذا، فيغدو (كتاباً)، وقد يتحقق هذا في يوم من الأيام ـ بمشيئة الله وحده ـ لكي يُشبع في النفس حالة ملحّة. أما الآن فان المطلوب صفحات لا تتجاوز العشرين او الثلاثين، يتحتم أن تُضغط فيها ملاحظات واستنتاجات تمس جلّ المفردات أو الموضوعات (الجمالية) التي تعاملت معها (الكلمات).

إن (النورسي) رحمه الله ينفّذ تغطية (استاطيقية) دقيقة شاملة للمسألة الجمالية، بدءً من اللغة كصيغة للخطاب الابداعي وانتهاء بالمضامين الجمالية الكبرى للابداع الالهي في الكون، مروراً بتدفقّ الخلقْ المدهش في السماء الدنيا، في العالم، في دنيا النبات والحيوان والطبيعية وفي الجمادات والذرّات والاشياء.. دون أن يغفل لحظة عن حلقات التميّز الجمالي الاسلامي وهويتعامل مع الانسان، والروح، وعالمْي الغيب والشهادة.. وهو ـ في كل الموضوعات التي يعالجها ـ

يتلقىٰ اشـارة البدء ومعـالـم الطريق من كتـاب الله وسنّة رسـولهﷺ مخصّصاً مسـاحات واسعة خصبة لما ينطوي عليه كتـاب الله وشخصية رسوله المعلـم ـ عليه افضل الصـلاة والسلام ـ من قـيم جمـالية لم يرقَ اليها ولن يرقى كائن او كتاب!

ومنذ البدء، يلمس المرء تماماً، حضوراً مؤثّراً للأخ الاستاذ (احسان قـاسم الصـالحي) لـيس كـمتـرجم للنورسي فـحسب، وانما كـأديب حسّاس، يملك تقنيّاته اللغوية، وخبرتـه المرنة اللتين يعرف بهـما كـيف يتجـاوز موات النقل الحرفي او النصّي كـما يفعل الكثيـرون من انصاف المترجـمين، وكيف يجعل القـارئ حاضراً تمامـاً في المناخ الاكثر مقاربة لمعطيـات (النورسي) وبالتالي الاكـثر إعـانة للدارسين علىٰ التمـاسّ مع هذه المعطيـات، خاصة إذا كـانت المسألة تتـعلّق بمتابعـة البعد الجـمالي الذي لن يتأتّىٰ (تـذوّقه) الاّ من خلال جـهد ترجمـاني مبـدع ،كذلك الذي بذله (الصالحي) علىٰ مدىٰ عشرين سنة.. ولا يزال.

لغـة (النورسي) لغة تعـبيـرية، ذات ايقـاع شعـري يتجـاوز البحـور والقوافي الىٰ مـا اصطلح عليه بالموسيقىٰ الداخلية للكلمـات، والجمل، والتعابير، وهو بهذا المعنىٰ ينفّذ أداءً شعرياً دون أن يلزم نفسـه بتقنيات الشعـر كافـة. قد يتعـامل مع البحور أحياناً، لكنه لا يجـد نفسـه ملزماً بالتعـامل مع القوافي.. هذا ـ بطبيـعة الحال ـ اكـثر تلاؤماً مع مـا يعرف بالنثـر الشعـري الذي يتأبّىٰ على القـوافي وإلاّ فقـد خصـائصه النوعـية، رغم ان (النورسي) يتـواضع في مـقـدّمتـه (اللّوامع) التي تبـدو فـيهـا بصمات استاذه (جلال الدين الرومي) واضـحة، فيقول: «انه لم يقدّر النظم والقـافيـة قـدرهما، لعـدم مـعرفـتي بهـما، فـالمرء عـدوّ ما جـهل»

ويقول: «لم اشأ قط تغيير صورة الحقيقة لتوافق اهواء القافية.. ولأجل هذا فقد البست اسمىٰ الحقائق، اردأ الملابس في هذا الكتاب الخالي من القافية والنظم»(١) وهو يبرّر هذا، فضلاً عن الجهل بمطالب الشعر، بأنه يريد أن يحصر فكره في المعنى وحده دون اللفظ. لكن رؤيته للموضوع تحمل بعداً نقدياً، وهو يقولها بوضوح: «لقد اردت أن ابيّن بهذا الاسلوب نقدي لاولئك الشعراء الذين ينحتون الجسد ليوافق اللباس»(٢) وقد لا يكون هذا مقنعاً لأن الشاعر المتمرّس؛ استاذه جلال الدين الرومي مثلاً ، سعدي، شيرازي، المتنبّي، البحتري، المعرّي.. وغيرهم كثيرون.. قدروا على اجتياز الامتحان الصعب فجاءت قصائدهم كفاء المعاني المتألّقة التي ارادوا أن يرسموها شعراً.

و(النورسي) يدرك هذا جيداً، اذ ما يلبث أن يقول: «لئن كنت قد أخطأت ـ وأنا اعترف به ـ فاياك ان تخطئ فتنظر الىٰ الاسلوب المتهرّئ ولا تنعم النظر في تلك الحقائق الرفيعة، ومن ثمّ تهوّن من شأنها» (٣) ويقول مؤكداً اعترافه: «لم اتمكن طوال حياتي من نظم بيت واحد او من وزنه»(٤).

ان «النورسي» يضعنا في (لوامعه) أمام مسألة (الشكل والمضمون) وهي مسألة قيل فيها الكثير منذ عصر الجاحظ وحتىٰ عصر الناقد الفرنسي (رولان بارت) فليس ثمة من مبرّر للوقوف عندها، لأننا جميعاً متّفقون عليٰ أن الخطاب الأدبي لن يكون عملاً ابداعياً مالم ينطوِ علىٰ الاثنين معاً، فلو أننا رجعنا الى ما قاله (النورسي) نفسه فاننا سنجده، رغم تأكيده على المعنىٰ، يمارس في (اللوامع) جهداً أدبياً «على حين غرّة الحث علىٰ فكري رغبة قوية في النظم، وقد

كانت روحي ترتاح لما في كتاب (قول نوالا سيسيبان)[٥] من نظم فطري عفوي على نمط مدائح تصف غزوات الصحابة الكرام رضوان الله عليهم. فاخترت لنفسي طراز نظمه، وكتبت نثراً شبيهاً بالنظم. ولم اتكلّف للوزن قطعاً. فليقرأه من شاء نثراً قراءة سهلة دون تذكّر بالنظم واهتمام به، بل عليه أن يعدّه نثراً ليفهم المعنى، اذ هناك ارتباط في المعنى بين القطع، وعليه الاّ يتوقف في القافية (٦) فكما تكون الطاقية والطربوش بلا شرّابة كذلك يكون الوزن ايضاً بلا قافية، والنظم بلا قاعدة بل اعتقد أنه لو كان اللفظ والنظم جذّابين صنعة يشغلان فكر الانسان بهما ويشدّانه اليهما، فالاولىٰ اذن ان يكون اللفظ بسيطاً من غير تزويق لئلا يصرف النظر اليه»(٧) وهذا يكفي.

لكنْ اذا تجاوزنا (اللوامع) كعمل يراد له أن ينتمي، بشكل أو آخر، الى (النوع الشعري)، وفتحنا مدى الرؤية علىٰ (الكلمات) كلّها فاننا سنجد انفسنا قبالة «اديب» من طراز عال يعرف كيف يوظف آليات اللغة وقدرات البلاغة من استعارة ومجاز وتكنية: وتشبيه وتخييل.. الى آخره للتعبير عن معانيه. والأهم من هذا أن لغة النورسي لا تكاد تتخلّىٰ إلاّ في حالات ضرورية يقتضيها السياق، عن ايقاعها الشعري الذي يحمل دائماً منظومة من الافكار العميقة الخصبة، ويستفزّ قارئه لأن ينقّب معه عن المزيد.. إنه ـ بإختصار ـ أديب متمرّس يضع نفسه ولغته وفكره في حوار موصول إزاء الكون والعالم والانسان، لكي يصل دائماً الى الجواب نفسه: «الاسلام»، بكل ما تحمله الكلمة وتتسع له من انفساح يبدأ بالجزئيات والذرّات التي لا تُرى، وينتهي بالكتلة الكونية التي تغيب اطرافها النائية في طوايا الأبعاد الزمانية والمكانية، مروراً بالوجود والحياة والكائنات والطبيعة والانسان.

تواضعه، أو ان شئنا تبرّؤه في (اللوامع) من صنعة الشعر، لا يعفيه من تحمّل مسؤوليته كأديب. فاذا تذكرنا مقولة (سارتر) عن الشعر، وتأبيّه علىٰ الالتزام ربما بسببٍ من جموحه واندفاعه التعبيري الذي يخرج عن إرادة الشاعر نفسه.. اذا تذكرنا ان النثر وحده هو الذي يلتزم ـ في المنظور السارتري ـ فيعرف كيف يعبّر عن الافكار الكبيرة، فاننا نجدها كرّة اخرىٰ قبالة النورسي الأديب الذي لا يقدم لقارئه معانٍ كبيرة فحسب، ولكنه يقدّمها بأعذب اسلوب واكثر الصيغ شفافيةً وجمالاً.

والنورسي، فضلاً عن موسيقى الكلمات التي تصوغ نثراً شعرياً او شعراً منثوراً، يوظف العديد من التقنيات البلاغية لتحسين خطابه الأدبي وجعله اكثر جمالية وتأثيراً: المثل، الحكاية، الرمز، الحوار، الصورة أو الجملة التعبيرية المرسومة بعناية... الضمائر... صيغ النداء... المجازات... الاستعارات... والمفردات.

لنبدأ بهذه الاخيرة.. إن قارئ (الكلمات) يعثر بين لحظة واخرى علىٰ مفردات مشتقة من قاموس الجمال: الشعاع، التلألؤ، الزينة، الصنعة، النور، الغصون، الرشحات، اللوامع، القطرات، الجوهرة، الالماس، الشعلة، الزاهي، القشيب، المزركش، القبس، الجلوة، اللآلئ، الزهيرة، اللطيفة، الوضاءة، الشفافية، النورانية، شمّة النسيم، البحر، التجميل، الأزاهير، الحُسْن، نوىٰ الحقائق، الروعة، الابداع، الانسجام، الجمال، الاتقان، الكمال، الضياء، الالوان، الاصوات...

فاذا تذكرنا ان جلّ هذه المفردات أريد لها أن تكون عناوين أو مرتكزات للعديد من الموضوعات التي عالجها النورسي، عرفنا كيف أنه

يتعامل مع الافكار الكبيرة التي كانت تؤرّقه، ليس بصيغ التعبير الجافي الذي يخلو ـ باسم المنطق والنزوع العلمي ـ من أية لمسة جمالية، وانما باكثر الصيغ شفافية ورواء.

لنتابع ـ ايضاً ـ صيغ النداء المؤثرة التي اعتاد أن يبدأ بها، أو يختم، الكثير من تأملاّته: «فيا ايها الأخ» «فيا من ينصت معي» «يا صاحبي!» «يا أخي!» «فيا صديقي!» «اسمعت يا صاحبي ما يقول؟» «فيا نفسي الحائرة!» «انظر ايها الغافل!» «تعال!» «فيا نفسي الغافلة!» «فاذا فهمت يا أخي» «يا صاحبي في الخيال!» «يا نفسي! ايتها السادرة في الغفلة» «يا نفسي الجاهلة!» «يا نفسي الموسوسة!» «يا نفسي الكسول!» «يا نفسي المغرمة بالفخر، المعجبة بالشهرة، الهائمة وراء المدح والثناء» «يانفسي الغوية!» «يا نفسي الشقية!» «يا نفسي الجزعة!» «يا نفسي الطائشة!» «يا نفسي الشرهة!» «يا نفسي المغرمة بالدنيا!» «ايها الغافل الغارق في عبادة الأسباب!» «يا ايها الغافل المتردّي في مستنقع الطبيعة!» «فيا ايها الانسان!».

انه في نداءاته هذه يجعل الخطاب الأدبي دعوة للمشاركة.. إثارة.. إعراباً عن الرغبة في الاّ يبقىٰ منفرداً.. أن يأتي اليه الآخرون ليريهم ما يرىٰ، ويقنعهم بما يكاد يلمسه بعقله وحسّه وبصيرته النافذة في الظواهر والموجودات والاشياء، بحثاً عن حكمة الله البالغة في كل صغيرة وكبيرة. انه يستخدم ـ حيناً ـ ارقّ صيغ النداء واكثرها شفافية لكي يجعل (الآخر) يتحرك، مقترباً اكثر فاكثر، وكأنه يعرف تماماً، انه بمجرد الاستجابة لندائه، فانه سيضعهم ـ بالتأكيد ـ علىٰ حافة الملكوت، وحينذاك لا يمكن الاّ لمن ضُرب علىٰ عقله وقلبه حجاب من

الغفلة او الجهل أو الكسل أو الاعجاب أو وسوسة الشيطان، أن يرفض الذهاب مع النورسي في رحلاته العذبة المؤثّرة عبر مسالك الملكوت.

من ثم فان نداءه قد يتحول الىٰ النقيض... ايضاً لكي يستفزّ ويحرك، بل إنه ينادي نفسه احياناً بما يضعها في مواقع الجهل والغفلة ــ وحاشاه ــ انما هي التذكرة، والتواضع امام الحقائق الكبرىٰ، ولعلها تكون محاولة لكسر العوائق المتبقية التي قد تحجب الرؤية النقية للحقائق. وهو يعرف جيداً ما يريد أن يقوله، فاذا كان هو نفسه يستجيش نفسه بنداءات كهذه فاحرىٰ بغيره أن يلتفت قليلاً الىٰ ما في نفسه هو، فان هناك الف ستار وستار من الغفلة والجهل والاعجاب بالذات تتحتّم مجاهدتها والتغلّب عليها وصولاً الىٰ موقع الاستشراف الذي تلقّىٰ فيه النورسي، وهو يقف هناك لا يحجبه شئ: السرّ والشعاع.

هناك صوره التعبيرية المرسومة بعناية: «تذكرة مرور في رحلة الخلود»(٨)، «وهل يقال للشمس وهي في كبد السماء: اين هي؟»(٩) «تأمّل في هذه الزهرة ــ وهي كلمة من كلمات القدرة الالهية ــ انها تنظر الينا مبتسمة لنا لفترة قصيرة ثم تختفي وراء ستار الفناء»(١٠) «الزهرة ايضاً ترحل بعد أن تودع في ذاكرة كل من شاهدها صورتها الظاهرة، وفي بذيراتها ماهيتها المعنوية، فكأن كل ذاكرة وكل بذرة بمثابة صور فوتوغرافية تحفظ جمالها وصورتها وزينتها» (١١) «اذا تصوّرت نفسك قبل الف سنة مثلاً وقابلت بين جناحي الزمان الماضي والمستقبل ترىٰ امثلة الحشر والقيامة ونماذجها بعدد العصور والأيام»(١٢) «إن كل من يمتطي التاريخ ويذهب خيالاً

الىٰ جـهة الماضي سيرىٰ أنه قـد ماتـت بعدد السنين مـنازل ومعـارض وميادين وعوالم شبيهة بمنزل الدنيـا وميدان الابتلاء ومعرض الاشياء في وقتنا الحاضر»[١٣] «فهؤلاء جـميعاً يؤمنون بأن هذه الحقيـقة الكبرىٰ ـ أي الحشر ـ شعـاع عظيم من اسـم (الحق) الذي هو مـرجع جـميع الحقائق وشـمسها، فيرشدون عبـادك ـ باذن منك ـ ضمن دائرة الحق، ويعلمونهم بعين الحقيقة»[١٤].

كثـيرة هي التعـابير الأنيقة الـتي يصوغها النـورسي في كلماته، وهي منبثّة في كل مكان، مذكرة ايانا بأناشيد سليمان (عليه السلام) حيث يلتقي بتناسق عجيب الحكمة والجمال.

إن النورسي هـنا يقـدّم لقـرّائه افكاراً عن الرحـيـل والخلود... عن الحـقـائق والظـواهر.. عن الفناء والانبـعـاث.. ولكـن بأي اسلوب؟ إنه هاهـنا يوظـف الشـمس، والزهـرة، والبـذرة، والصـورة، والمنازل، والمعـارض والميـادين.. يوظف ـ ايضـاً ـ حـركـة الزمن وحكـم التـاريخ ويستـخـدم مـفـردات الزينة والجـمـال من أجـل ان يلبس افكاره الرداء الجميل فيجعلها اكثر اغراءً وأشدّ تأثيراً.

والحوار ــ كأداة بلاغيـة ـ يُعتـمد هو الآخـر في اكثـر من مكان في رسـائله وهو ينتـشر علىٰ مـسـاحات واسـعـة بحـيث يصعب ــ التزامـاً بالإيجـاز ـ اقتـبـاس شـاهد منه، ويكفـي ان نحـيل القـارئ الى بعض النماذج[١٥] والنورسي هـا هنا، بدلاً من أن يجـادل مـن طرف واحـد ويحكي بضـمير المتـحـدث العـالم بكل شيء، كـمـا يقـول نقـاد الرواية المحدثون، يجـعل الشخوص نفـسها تتـحاور، وينسحب هو ـ احـياناً ـ لكي يمنح الجـدل حـيـوية اكـثر ويـجعله يـتجـاوز صـيغ التـأمّل العـقلي

الخالص، الى تقابل مؤثر بين الافكار وهي تتشكل في واقع الحياة من خلال الشخوص التي تتحاور... ليس هذا فحسب، بل انه يجعل جدلهم يبعد، اكثر فاكثر، عن جفافه العقلي فيستعير من مفردات الحياة نفسها الكثير من الصور، والكلمات والتعابير ويمنحها عفوية وصدقاً فنياً.

هنالك (المثل) الذي يوظفه النورسي في رسائله كافة بكثافة ملحوظة.(١٦)

ها هنا يكفي ان نتابع شواهد محدّدة ويمكن للقارئ أن يرىٰ بنفسه حشوداً من الامثلة المنبثة في كل مكان، عبر الصفحات التي احلنا اليها قبل قليل.

يمثّل للانسان الذي يترك صلاته من اجل هموم العيش «بذلك الجندي الذي يترك تدريبه وخندقه ويتسوّل متسكعاً في الاسواق. بينما الذي يقيم الصلاة، دون أن ينسىٰ نصيبه من الرزق، يبحث عنه في مطبخ رحمة الرزّاق الكريم لئلا يكون عالة علىٰ الآخرين. فجميلٌ عمله، بل هو رجولة وشهامة وهو ضرب من العبادة ايضاً».(١٧)

ويمثل للانسان الذي يحصر نظره كله في الدنيا فيحيل اللذة الحلوة الىٰ الم مرير فيقول: «هب أنه في هذه القرية (بارلا) رجلان اثنان: احدهما فقد رحل تسعة وتسعون بالمائة من احبّته الى استانبول وهم يعيشون هناك عيشة طيبة جميلة، ولم يبق منهم هنا سوىٰ شخص واحد فقط وهو ايضاً في طريقه الى الالتحاق بهم، لذا فان هذا الرجل مشتاق الى استانبول اشد الاشتياق، بل يفكر بها ويرغب في أن يلتقي

الاحـباب دائمـاً. فلو قيل لـه في أي وقت من الاوقات: هيـا اذهب الى هناك، فانه سيذهب فـرحاً باسماً. أما الرجل الثاني فـقد رحل من احبّته تسـعـة وتسـعـون بالمائة، ويظن ان بعـضـهـم فني، ومـنهم من انزوىٰ في اماكـن لا ترى. فهلكوا وتفـرّقوا حـسب ظنه. فهـذا الرجل المسكين ذو داء عضـال يبحث عن أنيس وعن سلوان حتىٰ عند سـائح واحد، بدلاً من اولئك جميعاً ويريد أن يغطي به علىٰ الم الفراق الشديد.

«فـيـا نفـسي! ان احـبّتك كلهم، وعلىٰ رأسـهـم وفـي مـقـدمـتـهـم (حبيب الله) (ﷺ) هم الآن في الطرف الآخر من القبر. فلم يبق هنا الاّ واحد او أثنان وهم ايضـاً متأهبون للرحيل. فـلا تديرنّ رأسك جفلة الموت، خائفة من القـبر، بل حدّقي في القبر وانظري الىٰ حفـرته بشهامة واستـمعـي الى ما يطلب. وابتـسمي بوجـه الموت برجولة وانظـري ماذا يريد! واياك ان تغفلي فتكوني اشبه بالرجل الثاني». (١٨)

ويمثل لارادة الله الواحـد المبدع بالصـورة التاليـة: «تعال يا صـديقي الىٰ نزهة نتـجـول في (العـالم) الواسع المفـروش أمـامنا. ها هوذا جـبل اشمّ، تعـال لنصعـد عليـه حتىٰ نتمكن من مـشـاهدة جمـيع الاطراف بسهولة، ولنحمل معنا نظارات مكبرة تقرّب لنا ما هو بعيد عن أنظارنا. فهذه المملكة فيها من الأمور العجـيبة والحوادث الغريبة مالا يخطر علىٰ بالِ أحد. انـظر الى تلك الجبـال والسهول المنـبسطة والمدن العـامرة، انه امرٌ عجـيـب حقاً اذ يتبدّل جمـيعها دفعـة واحدة، بل ان ملايين الملايين من الأفـعال المتـشـابكة تتبـدل تبـدلاً بكل نظام وتناسق، فكأن مـلايين الاطوال من منسوجـات ملونة رائعة تنسج أمامنا في آن واحـد. حقاً ان هذه التـحولات عـجيبـة جداً. فـاين تلك الأزاهيـر التي ابتسـمت لنا،

والتي أنسنا بها؟ لقد غابت عنا، وحلّت محلَّها انواع مخالفة لها صورةً مماثلة ماهيةً. وكأن هذه السهول المنبسطة وهذه الجبال المنصوبة صحائف كتاب يكتب في كل منها كتب مختلفة في غاية الاتقان دون سهوٍ او خطأ. ثم تمسح تلك الكتب ويكتب غيرها. فهل ترىٰ يا صديقي ان تبدل هذه الاحوال وتحوّل هذه الاوضاع الذي يتم بكل نظام وميزان يحدث من تلقاء نفسه؟ اليس ذلك محال من أشد المحالات؟...»(١٩)

ان النورسي في مناقشاته التي تستهدف تأكيد الحقائق الايمانية في هذا العالم، يجد نفسه مضطراً لاعتماد صيغ الاستدلال العقلي الصرف ولكنه، من اجل ان يجعل استدلاله اكثر حيوية، واقناعاً، يتجاوز التجريد بضرب الامثال المستمدة من واقع الحياة والوجود فيكسب هياكله الذهنية لحماً ودماً ويمنحها بعداً تجسيدياً، تعينه عليه قوة خياله التي تنضاف الى قدرته العقلية، وخزينه الفكري، فتجعل من امثلته نماذج خصبة ومؤثرة لإستلهام الدعاة، وهو انما يتأسىٰ في ذلك بكتاب الله حيث يجعل اثنتين من آياته البيّنات مدخلاً لكلمته الثانية والعشرين: ﴿ **ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون** ﴾(٢٠) ﴿ **وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** ﴾.(٢١)

والحكاية، او القصة القصيرة ـــ احياناً ـ اداة اخرىٰ من ادوات النورسي، يسخّرها في اكثر من مكان للتحقّق بتواصل: بينه وبين قرّائه اكثر وضوحاً وأشدّ تأثيراً. انها ـ والمثل ـ في نهاية الأمر وسيلتا ايضاح بلاغيتين فلماذا لا يوظّفهما الرجل وهو يلاحق بكشّافه الايماني المضيئ كل بقع الظلمة ومنحنياتها في هذا العالم.

منذ الصفحة الاولىٰ، من الكلمة الأولىٰ ، وبعد ان يبدأ (بسم الله) يسرد علينا النورسي هذه الحكاية التمثيلية القصيرة، كما يؤثر أن يسمّيها هو: « ان البدوي الذي يتنقل في الصحراء ويسيح فيها لابدّ له أن ينتمي الىٰ رئيس قبيلة، ويدخل تحت حمايته، كي ينجو من شرّ الاشقياء، وينجز اشغاله ويتدارك حاجاته، وإلاّ فسيبقىٰ وحده حائراً مضطرباً أمام كثرة من الاعداء ولاحدّ لها من الحاجات.

« وهكذا، فقد توافق ان قام اثنان بمثل هذه السياحة، كان احدهما متواضعاً والآخر مغروراً، فالمتواضع انتسب الىٰ رئيس، بينما المغرور رفض الانتساب. فتجوّلا في هذه الصحراء. فما كان المنتسب يحل في خيمة الا ويقابل بالاحترام والتقدير بفضل ذلك الاسم وان لقيه قاطع طريق يقول له: انني اتجول باسم ذلك الرئيس. فيتخلىٰ عنه الشقي. اما المغرور فقد لاقى من المصائب والويلات، مالا يكاد يوصف، اذ كان طوال السفرة في خوف دائم ووجل مستمر، وفي تسوّل مستديم، فأذلّ نفسه وأهانها.

« فيا نفسي المغرورة اعلمي! انك انت ذلك السائح البدوي. وهذه الدنيا الواسعة هي تلك الصحراء. وان فقرك وعجزك لا حدّ لهما، كما أن اعداءك وحاجاتك لا نهاية لهما. فما دام الأمر هكذا فتقلدي اسم المالك الحقيقي لهذه الصحراء وحاكمها الأبدي، لتنجي من ذل التسوّل امام الكائنات، ومهانة الخوف امام الحادثات ». (٢٢)

وانتهاء بالكلمة الثانية والعشرين حيث يلتقي القارئ بحكاية اكثر طولاً تنتشر على مدىٰ اربع عشرة صفحة. (٢٣)

وبين الحكايتين يلتقي القارئ، عبر الرسائل جميعاً بالعديد من الحكايات[٢٤].

والنورسي، عبر مثله وحكاياته، وحتىٰ محاوراته العقلية الصرفة، يستخدم الرمز لكي يكثّف به معان ودلالات شتىٰ، خاصة وأنه كثيراً ما يتجاوز عتبات العالم المنظور الىٰ معطيات الغيب وأغوار الروح، حيث يصير الرمز، الذي لا تكاد تفصح عنه الكلمات اليومية المكرورة، مفتاحاً للدخول.

بعد هذا كله، يبقىٰ الايقاع، او النبض الشعري للغة النورسي هو اكثر ميزاته الجمالية تألّقاً وعطاءً في (الكلمات) التي ما تلبث ان تغدو، بين الحين والحين قصيدة عذبة، او نشيداً ساحراً، او خطاباً وجدانياً مترعاً بالحزن والشجن والرغبة المعذّبة في تخليص الانسان من اوهامه وضلالاته وآلامه وضياعه.

هذا الخطاب الجمالي الذي طالما بدأ بنقطة ارتكاز محدّدة، لكي ما يلبث ان يفرد جناحيه ويحلّق في الملكوت، مجتازاً كل العقابيل والموانع والمتاريس، مصعّداً في السماوات، موغلاً في اغوار الروح، متنقلاً في عوالم الغيب، عائداً، ـ بين لحظة واخرىٰ ـ الى عالم الشهادة حيث يتنظره الف من الحيارىٰ الباحثين عن الصراط... يرجع وهو يحمل اليهم الف دليل ودليل لكي يقودهم الىٰ ما يتوقون اليه. وهو ـ في كل الاحوال ـ في ادوار رحلته جميعاً، ما ينسىٰ لحظة ان يستضيئ بشعاع واحد هو الشعاع الوحيد القادر علىٰ انارة الطريق للمدلجين في الظلمات بحثاً عن الحقيقة.. انه كتاب الله وسنة رسوله عليه افضل الصلاة والسلام.

إن مساحات واسعة من نسيج (الكلمات)، بل المساحات الأوسع، لهي ـ بمعنىٰ من المعاني ـ عروض بلاغية مترعة بالجمال والجلال، لا لشئ الاّ لأنها تتحدث عن إبداعية الله في الكون وتتلقىٰ الاشارة من كلمات كتابه المعجز وسحره الحلال، فتكسب ـ هي الأخرى ـ قيمتها الجمالية لأنها ـ اذا استعرنا مصطلحات البلاغيين ـ تجئ مطابقة لمقتضى الحال.

ماذا يأخذ المرء وماذا يدع؟! الشواهد كثيرة، بل انها كما قلنا في بدء البحث متعاشقة في الكلمات الثلاثة والثلاثين، يصعب فصلها، ولذا ـ وللمرة الخامسة أو السادسة ـ سنكتفي باحالة القارئ الىٰ نماذج منها لكي يتعامل بنفسه مع ما يمكن تسميته بنمط الشعر العالي، المنثور، الذي يحمل افكاراً كبيرة دون أن يتخلّىٰ عن اللغة الجميلة، العذبة التي تنثّ بهاءً، الأمر الذي يعود بنا ثانية الى (الايضاح) الضروري الذي قدّم به النورسي منظومته التي سمّاها (اللوامع).

تنتهي (الكلمة الاولىٰ) بهذا الدعاء العذب: «فيا نفسي!! اعطي باسم الله، وخذي باسم الله، وابدأي باسم الله، واعملي باسم الله».(٢٥)

وتختتم (الكلمة الثانية والثلاثون) بهذه المناجاة التي يستعيرها النورسي من العابد المعروف (اويس القرني): «الهي انت ربي وانا العبد، وانت الخالق وأنا المخلوق، وأنت الرزاق وأنا المرزوق، وأنت المالك وأنا المملوك، وانت العزيز وأنا الذليل، وأنت الغني وأنا الفقير، وأنت الحيّ وأنا الميّت، وأنت الباقي وأنا الفاني، وأنت الكريم وأنا اللئيم، وأنت المحسن وأنا المسيئ، وأنت الغفور وأنا المذنب، وأنت

العظيم وأنا الحقير، وأنت القوي وأنا الضعيف، وأنت المعطي وأنا السائل، وأنت الأمين وأن الخائف، وأنت الجواد وأنا المسكين، وأنت المجيب وأنا الداعي وانت الشافي وأنا المريض... » (٢٦)

وبين الدعاء والمناجاة تتدفق جداول الحب واليقين، كما تدفقت قريباً من المكان نفسه (مثنويات) جلال الدين الرومي، هذا يكتبها شعراً، والنورسي يرسمها نثراً.. لكن النبض الشعري ما أخطأ الرجلين ابداً..

في آخر الكلمة الخامسة يخاطب النورسي نفسه قائلاً: « فيا نفسي! إن كنت تجعلين الحياة الدنيا غاية المقصد وأفرغت في سبيلها جهدك فسوف تكونين في حكم اصغر عصفور. أما ان كنت تجعلين الحياة الأخرىٰ غاية المنىٰ وتتخذين هذه الحياة الدنيا وسيلة لها ومزرعة، وسعيت لها سعيها، فسوف تكونين في حكم سيّد الاحياء والعبد العزيز لدىٰ خالقك الكريم، وستصبحين الضيف المكرم الفاضل في هذه الدنيا. فدونك طريقان اثنان فاختاري ايّهما تشائين ». (٢٧)

وفي الكلمة السابعة يقول بكلمات تقطر حزناً، ما تلبث بقوّة الايمان ان تنقل الانسان المؤمن الىٰ عالم الفرح والبهجة والجمال: « فيا نفسي الباكية علىٰ ما ضحكت أيام شبابها. اعلمي! أن ذلك الجندي المسكين المتورّط هو أنت، وهو الانسان، وأن ذلك الأسد هو الأجل، وأن اعواد المشنقة تلك هي الموت والزوال والفراق الذي تذوقه كل نفس. الا ترين كيف يفارقنا كل حبيب اثر حبيب ويودعنا ليل نهار؟ اما الجرحان العميقان فاحدهما العجز البشري المزعج الذي لاحدّ له. والآخر هو الفقر الانساني المؤلم الذي لا نهاية له. اما ذلك النفي

والسفر المديد فهو رحلة الامتحان والابتلاء الطويلة لهذا الانسان التي تنطلق من عالم الارواح مارّة من رحم الأم ومن الطفولة والصبا ثم من الشيخوخة ومن الدنيا ثم من القبر والبرزخ ومن الحشر والصراط . وأما الطلسمان فهما الايمان بالله وباليوم الآخر. نعم ان الموت بهذا الطلسم القدسي.. يتخذ صورة براق يخرج الانسان المؤمن من سجن الدنيا الىٰ روضة الجنان.. ومن هنا كان الكاملون من الناس يحبّون الموت ويطلبونه، حيث رأوا حقيقته. ثم ان سير الزمان ومروره علىٰ كل شئ، ونفوذ الزوال والفراق والموت فيه يتخذ بهذا الطلسم الايماني صورة وضّاءة تحفز الانسان الىٰ رؤية الجدّة بتجدّد كل شئ، بل يكون مبعث التأمّل في الوان مختلفة متنوعة وانواع متباينة لمعجزات إبداع الخالق وتجليات رحمته سبحانه ومشاهدتها باستمتاع وبهجة كاملين.. نعم ان من يعتمد بهويّة عجزه علىٰ سلطان الكون الذي بيده امر (كن فيكون) كيف يجزع ويضطرب...؟»(٢٨)

وفي الكلمة العاشرة نستمع الىٰ هذا النداء: «يا من اسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، يا سلطاننا، ارنا منابع وأصول ما أريته لنا من نماذج وظلال. خذ بنا الىٰ مقرّ سلطنتك ولا تهلكنا بالضياع في هذه الفلاة. اقبلنا وارفعنا الى ديوان حضورك. ارحمنا. اطعمنا هناك لذائذ ما أذقتنا اياه هنا، ولا تعذبنا بألم التنائي والطرد عنك. فها هم اولاء رعيتك المشتاقون الشاكرون المطيعون لك، لا تتركهم تائهين ضائعين ولا تفنهم بموت لا رجعة بعده».(٢٩)

ونقرأ هذه الكلمات: «انظر كيف انه يطالب الاستعانة مستغيثاً ببكاء، متضرّعاً، راجياً من الأعماق، متوسلاً.. حتىٰ كأنه يُسمع

الموجودات جميعاً، بل السماوات، بل العرش، فيهزّهم وجداً وشوقاً..»(٣٠)

وفي الكلمة الثالثة عشرة يخاطب النورسي المخدوعين بالدنيا وكأنه يقف في مكان عالٍ يعينه علىٰ الاستشراف، فيرىٰ مالا يرون: «فيا من فُتنتم بزهرة الحياة الدنيا ومتاعها، ويا من يبذلون قصارىٰ جهدهم لضمان الحياة والمستقبل بالقلق عليهما! ايها البائسون! ان كنتم ترومون التمتع بلذة الدنيا والتنعّم بسعادتها وراحتها فاللذائذ المشروعة تغنيكم عن كل شئ. ولقد أدركتم ان كل لذة خارج نطاق الشرع فيها الف ألم وألم، إذ لو أُمكن عرض ما سيقع من احداث مقبلة بعد خمسين سنة.. علىٰ شاشة الآن مثلما تعرض الاحداث الماضية عليها لبكىٰ ارباب الغفلة بكاءً مرّاً اليماً علىٰ ما يضحكون له الآن!».(٣١)

ويخاطب اخوته المسجونين: «اخوتي الاعزاء... لقد بتّ علىٰ قناعة تامة من أن العناية الإلهية هي التي القت بنا الىٰ هاهنا وذلك لأجلكم انتم.. ان مجيئنا الى هنا انما هو لبث السلوان والعزاء الذي تحمله رسائل النور اليكم، وتخفيف مضايقات السجن عنكم بحقائق الايمان، وصونه، من كثير من بلايا الدنيا ولأوائها، وانتشال حياتكم المليئة بالاحزان والهموم من العبثية وعدم الجدوىٰ، وانقاذ آخرتكم من أن تكون كدنياكم حزينة باكية..»(٣٢)

وفي الكلمة السابعة عشرة يورد النورسي قطعة تذكرنا (باللوامع) يقول عنها انها جاءت بما يشبه الشعر، الاّ انها ليست شعراً، ولم يقصد نظمها، بل ان كمال انتظام الحقائق يجعلها تتخذ شكلاً شبيهاً بالنظم:

« ... فيا رب! لما كانت وسيلة النجاة هي هذه، فانني اتخلىٰ عن ذلك الجزء الاختياري واتبرأ من انانيتي في سبيلك.

«لتأخذ عنايتك بيدي، رحمة بعجزي وضعفي، ولتكون رحمتك مستندي رأفة بفقري واحتياجي... ولتفتح لي بابها.

«نعم كل من وجد بحر الرحمة الذي لا ساحل له، لا يعتمد علىٰ جزئه الاختياري، وهو كقطرة سراب، ولا يفوّض اليه امره من دون تلك الرحمة «يا أسفىٰ، لقد خدعنا فظنّنا هذه الحياة الدنيا مستقرة دائمة وأضعنا بهذا الظن كل شئ.

«نعم، ان هذه الحياة غفوة قد مضت كرؤيا عابرة!

وهذا العمر الذي لا قرار له يذهب ذهاب الرميم

«ان الانسان المغرور، المعتد بنفسه، ويحسبها ابدياً، محكوم عليه بالزوال، انه يذهب سريعاً.

اما الدنيا التي هي مأواه فستهوي في ظلمات العدم، فتذهب الآمال ادراج الرياح وتبقىٰ الآلام محفورة في الارواح..

«محبوب يغرق في أفق المغيب! ليس بمحبوب جميل، فالمحكوم عليه بالزوال لن يكون جميلاً حقاً ولا يحبه القلب، اذ القلب الذي خلق اصلاً ليعشق خالداً، ويعكس انوار الصمد لا يودّ الزوال..

«مطلوب محكوم عليه بالافول، ليس اهلاً ان يرتبط به القلب ولا يشد معه الفكر لأنه عاجز عن ان يكون موئلاً للآمال، فالنفس لا تذهب عليه حسرات، اتراك يعشقه القلب او ينشده ويعبده؟

«مقصود يمحىٰ في الفناء ويزول! لا اريده! أنا لا اريد فانيا.. فماذا يغني الفانون عني؟!».(٣٣)

وفي المقاطع الأخيرة من غنائيته العذبة هذه يكتب رسالة يستنطق بها النجوم، فتنصت لنشيدها الكوني الذي يمنح المرء القناعة بأن الأدب الايماني هو في القمة بين الآداب.. أو هذا ما يجب ان يكون:

« نحن الوف العيون الباصرة تطل من السماء الىٰ الارض وترنو الىٰ الجنة نحن الوف الثمرات الجميلة لشجرة الخلقة علّقتنا يد حكمة الجميل ذي الجلال علىٰ شطر السماء وعلىٰ اغصان درب التّبانة..

« هكذا نبيّن مائة الف برهان وبرهان، بمائة الف لسان ولسان ونسمعها الىٰ من هو انسان حقاً.

عميت عين الملحد لا يرىٰ وجوهنا النيّرة ولا يسمع اقوالنا البيّنة،فنحن آيات ناطقة بالحق.

« سكّتنا واحدة، طرّتنا واحدة، مسبّحات نحن عابدات لربّنا، مسخرات تحت امره.

نذكره تعالىٰ ونحن مجذوبات بحبّه، منسوبات الىٰ حلقة ذكر درب التبانة ». [٣٤]

وأخيراً.. في الكلمة الرابعة والعشرين نقرأ هذه الفقرة: « يا نفسي المحبّةُ لنفسها، ويا رفيقي العاشقُ للدنيا! اعلمي ان المحبةَ سببُ وجودِ هذه الكائنات والرابطةُ لأجزائها، وانها نورُ الاكوان وحياتُها. ولما كانَ الانسان اجمعَ ثمرةٍ من ثمرات هذا الكون فقد اُدرجت في قلبه ـ الذي هو نواةُ تلك الثمرة ـ محبةٌ قادرةٌ علىٰ الاستحواذ علىٰ الكائنات كلّها »[٣٥]

ففي هذه الفقرة – علىٰ ايجازها – نلتقي بمفردات المحبّة التي ترد ثلاث مرّات، والعشق، والنور، والكائنات والاكوان والحياة والقلب والثمرة.

انها – فضلاً عن خلفيّاتها الفكرية التي تعبّر عن التوجّهات الكونية الشاملة لمعطيات النورسي، تومض برؤيته الموضوعية للجمالية والتي تكاد تغطّي «الكلمات» من بدئها حتىٰ منتهاها، وهي رؤية تنفسح على جماليات الكون والوجود وترىٰ الأنسان احد مراكز الثقل فيه، او قطب الرحى. هذا القلب الذي يطوي جناحيه علىٰ الموجودات جميعاً وينبض بالمحبة التي يقوم بها الوجود، فتملك الاستحواذ – بارادة الله – علىٰ الكائنات كلها!

وهذا ينقلنا الىٰ المقطع التالي من البحث والذي سيتابع – بالايجاز المطلوب – «الموضوع الجمالي» في «الكلمات» علىٰ مستوىٰ الكون والطبيعة والخلائق والانسان.

الهوامش

(١) بديع الزمـان سعيد النورسي: كليـات رسائل النور (١) الكلمات ، ترجمـة احسان قاسم الصالحي، دار (سوزلر) للنشر، استانبول - ١٩٩٢م ، ص ٨٣٥

(٢)نفسه ص ٨٣٥

(٣)نفسه ص٨٣٦

(٤) نفسه ٨٣٦

(٥) قصـيدة طويلة تنوف على اربعمـائة بيت في وصف غزوات الصحـابة الكرام، باللغة الكردية الكرمانجية الشمـالية نظمها الملا خـالد اغا الزيباري المعروف بزهده وتقواه: المترجم، هامش ١ ص ٨٣٦ من (الكلمات)

(٦)قام المترجم بترجمة هذا الديوان نثراً مكتفياً بالمعنى دون القافية أو اللفظ.

(٧) الكلمات ص ٨٣٦

(٨) نفسه ص ٢٦

(٩) نفسه ص ٥٩

(١٠) نفسه ص ٨٠

(١١) نفسه ص ٨٠

(١٢) نفسه ص ٨٧

(١٣) نفسه ص ٩٠

(١٤) نفسه ص ١١٠

(١٥) انظر (الكلمات) ص ٥٩ ، ٣١٠-٣١٢ ، ٣٦٧- ٣٦٩، ٧٠٨ - ٧١٧.

(١٦) انظر (الـكلمـات) ص ٢٠، ٧٧ - ٨٠ ، ١٣٧، ١٦٩ - ١٧٠ ، ١٧٥ -١٧٨، ١٩٠ - ١٩١ ، ١٩٢، ٢١٩ ، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦- ٣٢٠، ٣٢١ ، ٣٢٨- ٣٢٩ ، ٣٥٠- ٣٥١ ، ٣٦٣ - ٣٦٤، ٣٦٦، ٣٦٧- ٣٦٩، ٣٨٨، ٣٩٦-٣٩٧، ٣٩٨- ٣٩٩، ٤١٥، ٤١٧

(١٧) نفسه ص٢٠

(١٨) نفسه ص ١٩٢–١٩٣

(١٩) نفسه ص ٣١٥

(٢٠) سورة ابراهيم، الآية ٢٥

(٢١) سورة الحشر، الآية ٢١

(٢٢) الكلمات ص ٦

(٢٣) نفسه ص ٣١٠– ٣٢٣.

(٢٤) انظر (الكلمات) ص ٩ – ١١، ١٢ – ١٣، ١٥ – ١٦، ١٨– ١٩، ٢١ – ٢٢، ٢٦ – ٢٧، ٣١، ٣٢، ٤٨ – ٥٩، ١٢٩ – ١٣٢، ١٤١– ١٤٣، ٣١٠– ٣٢٣

(٢٥) نفسه ص ٨

(٢٦) نفسه ص ٧٨١.

(٢٧) نفسه ٢٠

(٢٨) نفسه ص ٢٧ – ٢٨

(٢٩) نفسه ص ٥٢

(٣٠) نفسه ص ٧٤

(٣١) نفسه ص ١٥٩

(٣٢) نفسه ص ١٧٠ – ١٧١

(٣٣) نفسه ص ٢٣٣ – ٢٣٤

(٣٤) نفسه ص ٢٤٦ – ٢٤٧

(٣٥) نفسه ص ٤١٠

القسم الثانى

الموضوع الجمالى

الطبيعة والعالم والكون

على مستوى (الموضوع الجمالى) الذى يتعامل النورسى معه، فان القارئ يلحظ منذ الوهلة الاولى، كيف ان الرجل يعقد علاقة حميمة مع الكائنات.. أُلفة مترعة بالود والمحبة والتفاهم مع كل شئ جميل في الوجود.. يقف حيناً عند جمالياته الباهرة لذاتها، ويمضي حيناً آخر لكي يدلل بها على فكرة ما، على قناعة، او موضوعة، وهو يجادل (الآخر) او ينشئ ا فكاره وتصوراته ابتداء. وفي كل الاحوال يجد النورسى في الموضوع الجميل قرينةً من اشد القرائن اهمية وثقلاً في تأكيد الابداع الالهي في الكون والعالم والحياة، وفي تفرده وقدرته التى لايعجزها شئ في الارض ولا في السماء. ان الموضوع الجميل هو واحد من اكثر الطرق تكشفاً ووضوحاً في الذهاب الى الله الواحد جلّ في علاه.

علاقة حميمة وألفة ميتافيزيقية تبدأ بالذرات التي لاترى، وتنتهى بالسدم الكبرى الموغلة في اعماق الكون.. تحكي عن دنيا الاشياء والنبات والحيوان، والطبيعة، صعوداً باتجاه الانسان سيد المخلوقات واكثرها احكاماً في الصنعة.. ثم هو يمضى، مجتازاً المنظور والملموس عابراً العوائق والمتاريس، الى ساحة الغيب التى لا تُرى ولكنها تُحس

وتُشم وتُذاق وتخفق بها الروح التى اوتيت حظاً من الحساسية يتيح لها التواصل مع ما وراء حدود العالم القريب.

ها هنا ايضاً يمارس النورسى سياحته الاثيرة في عوالم الجمال.. وهي هنا في ساحات الغيب اشد روعة واكثر اكتمالاً.. انه يتحدث ويحاور الروح البشرى.. البصيرة القديرة على التجاوز والاكتناه.. الملائكة السابحة في الملكوت.. الموت والبعث والنشور.. القيامة والحساب.. العقاب والثواب.. يصعد اكثر حتى يدخل الجنة فيحكي عما تنطوى عليه من معطيات يبلغ فيها التناسب الجمالي المثل الاعلى، ويعكس الصيغة الاكثر اكتمالاً للمفردات الجمالية المنقوصة التى قدر للانسان ألاّ يعرف عنها في الحياة الدنيا إلاّ جذاذات وتفاريق وألاّ يذوق من طعومها الا ما ينبئ بها ولكنه لايكاد يعطيها!

لاينسى النورسى.. وكيف؟ ان يتحدث عن الرسول المعلم ﷺ، النموذج الكامل للانسان كموضوع جمالي، وعن خبراته الغيبية الملتحمة الاسباب بجماليات الكون والوجود.. عن كتاب الله، حيث يخصص رسائل بكاملها متحدثاً عن اعجازه الالهي الباهر في الشكل والمضمون.

ثم هو يصعد في كلماته محاولاً ان يأخذ بيد قرائه وتلامذته لكي يقفهم في نهاية الامر قبالة الجلال والجمال الإلهيين، وهي قمة الاحسان كما يحدثنا رسول الله ﷺ ان نعبد الله كأننا نراه.. ها هنا حيث يمنحنا النورسى، الكثير المترع بالخصب والوعد والعطاء.. متمركزاً، كأى مسلم جاد في هذا العالم، عند التوحيد الذى هو اساس الأسس في معمار هذا الدين، وكل دين حق أُريد له ان يقود الانسان من جاهلية الصنميات والاوثان صوب وحدانية الله الذى لا اله الا هو.

الموضوع الجمالي بمفرداته وآفاقه كافة ينبض في سيال (الكلمات) من بدئها حتى منتهاها، انه لدى النورسى يصير حياة تخفق واشياء تتحدث وظواهر تقول وتحكي.. هو - بشكل من الاشكال - حوارية الانسان مع العالم والطبيعة والكون والوجود.. مع الاشياء والنبات والحيوان.. مع الملائكة والجان والشياطين.. وهو - اذا وسعنا المنظور - ابداعية الله في خلقه، وكلماته التى مالها من نفاد.

مامن شئ او كائن او موجود في هذا العالم إلا ويعكس حالة جمالية: بالصوت، باللون، بالشذى، بالحركة والايماءة، وبالتصميم البديع. مهندسة هي العوالم والاكوان في نظام الخلق المبدع.. والكتاب الذى انزل على محمد ﷺ تنزلت اياته وسوره وهي تتألق تناسباً وتناظراً وجمالاً، في موضوعاتها وفي تكويناتها الاسلوبية على السواء.. الرسول ذاته عليه افضل السلام.. هذا الانسان الكامل.. يصير في المنظور نفسه موضوعاً جمالياً لم يقل احد يوماً ما قال ، ولافعل ما فعل، ولاتشكل كما تشكل وهو في عين الله.

نحن المسلمين في العالم، منذ لحظات التأمل النبوى الاولى في جبل النور وحتى يقوم الحساب وتتكشف جماليات الجنة التي ما رأتها عين ولا سمعتها اذن ولاخطرت على قلب احد، يريد النورسى ان يقول، نحن ابناء الجمال وعشاقه.. هو لغة الخطاب بيننا وبين العالم، وطريق الوصول الى الله.

النبتة وهي تشق الارض وتشتعل بالورد.. الطير وهو يسبح في السماء.. النبع وهو يتدفق بالماء.. الشمس وهي تفيض بالضوء، القمر وهو يخفق بالنور.. وآلاف المرئيات والخلائق والكائنات والاشياء

تنادينا باللغة نفسها.. وتعلّمنا.. والنورسي يتلقى الاشارة ويقيم بينه وبين الكائنات جسراً من المحبة والالفة يجتازه موغلاً اكثر فأكثر في حقائق الوجود واسراره وعجائبه.. يقول: «وهكذا.. فالجنة زهرة. والحور زهرة. وسطح الارض زهرة، والربيع زهرة، والسماء زهرة ونقوشها البديعة النجوم. والشمس زهرة والوان ضيائها السبعة اصباغ نقوش تلك الزهرة.

والعالم انسان جميل عظيم، مثلما أن الانسان عالم مصغر، فنوع الحور، وجماعة الروحانيات، وجنس الملك، وطائفة الجن، ونوع الانسان، كلٍ من هؤلاء قد صُوّر ونُظم وأُوجد في حكم انسان جميل. كما ان كلاً منهم مرايا متنوعة متباينة لإظهار جماله سبحانه وكماله ورحمته ومحبته.. وكل منهم شاهد صدقٍ لجمالٍ وكمال ورحمة ومحبة لا منتهى لها.. وكل منهم آيات جمال وكمال ورحمة ومحبة.»[1]

لنبدأ بالذرات التي لاتُرى.. ان تحولاتها وجولانها، يقول النورسي: «عبارة عن اهتزازات الذرات وتنقلها اثناء كتابة قلم القدرة الإلهية للايات التكوينية في كتاب الكون. فهي ليست كما يتوهمه الماديون والطبيعيون من أنها ألعوبة المصادفة في حركة عشوائية لا معنى لها ولا مغزى؛ ذلك لأن كل ذرة، وكل الذرات تقول في مبدأ حركتها: «بسم الله» ـ كما تقوله جميع الموجودات ـ حيث أنها تحمل أثقالاً هائلة تفوق كثيراً طاقتها المتناهية، كحمل بذرة الصنوبر على اكتافها شجرتها الضخمة. ثم عند انتهاء وظيفتها تقول: «الحمد لله» حيث انها اظهرت أثراً بديعاً كأنه ينشد قصيدة رائعة في الثناء على

الصانع الجليل، لما فيه من جمال الاتقان الحكيم، وروعة صورةٍ تنم عن مغزى عميق تتحير منه العقول.. فان شئت فانظر بانعام الى الرمان والذرة.»[٢]

في مبحث آخر يتحدث النورسي عن «تسبيح الاشياء»: «ان في كل شئ وجوهاً كثيرة جداً متوجهة ـ كالنوافذ ـ الى الله سبحانه، بمضمون الآية الكريمة ﴿ **وان من شيء الاّ يسبّح بحمده** ﴾[٣] اذ ان حقائق الموجودات وحقيقة الكائنات تستند الى الاسماء الإلهية الحسنى، فحقيقة كل شئ تستند الى اسم من الاسماء او الى كثير من الاسماء. وان الاتقان الموجود في الاشياء يستند الى اسم من الاسماء...

الحقائق الحقيقية للاشياء، انما هي الاسماء الإلهية الحسنى، أما ماهية الاشياء فهي ظلال تلك الحقائق، بل يمكن مشاهدة آثار تجلي عشرين اسم من الاسماء على ظاهر كل ذي حياة فحسب.»[٤]

بعدها يصعد النورسي لكي يتعامل مع كل موضوع جميل في الملكوت.. انه يمد المنظور في الطول والعرض والعمق والارتفاع.. يبدأ رحلته من عالم الذرات والاشياء لكي لاتنتهي بعد ذلك ابداً.. ان الكون هو مشروع مفتوح لإبداعية الله جل وعلا.. والانسان معني بالخطاب الجمالي، بل هو بالذات المقصود بهذا الخطاب..

والنوافذ التي اعطاه الله اياها تملك، اذ تلفت خفقة الايمان واليقين، ان تتلقى الخطاب في كل زمن او مكان.. ومع كل الاشياء والخلائق والموجودات.. لهذا يصير الانسان مشروعاً مفتوحاً هو الآخر، قبالة الجمال، ويتلقى ويتلقى حتى يفيض به الوجد، وتتقاذفه

انعكاسات الوجود الجميل.. انها لذة الحس والوجدان والروح، وهي الخمرة الحلال التي لو عرفنا كيف نشربها، كما قال (الرومى) اكثر من مرة، لسكرنا بمحبة الله، وهمنا في ملكوته الكبير.

اية حياة مترعة هذه التي يريدها الاسلام للمنتمين اليه؟ قارن هذا بحياة الآخرين المتضحّلة، المسطّحة، ذات البعدين.. الحياة التي لاتكاد تمس جوهر الوجود، ولاتعقد بينه وبين جمالياته ايما علاقة على الاطلاق.

النورسي وهو يدين هذه الحياة، يجعل كتابه كله، من ألفه حتى يائه، بديلا.. مشروعاً مفتوحاً هو الآخر للوصال الجميل بين الانسان والوجود هذا الذى يريده الله ذو الجلال والكمال. يقول في الكلمة السابعة: « ان سير الزمان ومروره على كل شيء، ونفوذ الزوال والفراق والموت والوفاة فيه يتخذ بهذا الطلسم الايماني صورةً وضّاءة حيث تحفز الانسان الى رؤية الجدة بتجدد كل شيء، بل يكون مبعث التأمل في الوان مختلفة متنوعة وانواع متباينة لمعجزات إبداع الخالق ذي الجلال وخوارق قدرته، وتجليات رحمته سبحانه ومشاهدتها باستمتاع وبهجة كاملين. بمثل ما يضفي تبدل المرايا العاكسة لألوان نور الشمس، وتغيّر الصور في شاشة السينما من جمال وروعة الى تكون المناظر الجذابة وتشكلها. » (٥)

ويتحدث عن تعاقب الليل والنهار، وتنقل ساعة الزمن بين آن وآن.. ان الالف والاعتياد يقتلان ما تنطوى عليه هذه الحركة في الزمن من دهشة، ويذهبان بمغزاها. لكن النورسى له رؤية اخرى لما يسميه «عالم الدنيا الذى هو ساعة إلهية كبرى»:

« فان دوران الليل والنهار الذي هو بحكم الثواني للساعة،

والسنوات التي تعدّ الدقائق، وطبقات عمر الانسان التي تعد الساعات، وأدوار عمر العالم التي تعد الأيام، كل منها يناظر الآخر، ويتشابه معه، ويماثله، ويذكّر كل منها الآخر، ويأخذ حكمه.

فمثلاً:

وقت الفجر الى طلوع الشمس: يشبه ويذكّر ببداية الربيع وأوله، وبأوان سقوط الانسان في رحم الأم، وباليوم الأول من الأيام الستة في خلق السموات والارض، فينبّه الانسان الى ما في تلك الاوقات من الشؤون الإلهية العظيمة.

اما وقت الظهر: فهو يشبه ويشير الى منتصف الصيف، والى عنفوان الشباب، والى فترة خلق الانسان في عمر الدنيا، ويذكّر ما في ذلك كله من تجليات الرحمة وفيوضات النعمة.

أما وقت العصر: فهو يشبه موسم الخريف، وزمن الشيخوخة، وعصر السعادة الذي هو عصر خاتم الرسل محمد عليه الصلاة والسلام، ويذكّر ما في ذلك كله من الشؤون الإلهية والآلاء الرحمانية.

أما وقت المغرب: فأنه يذكّر بغروب أغلب المخلوقات وأُفولها نهاية الخريف، ويذكّر أيضاً بوفاة الانسان، وبدمار الدنيا عند قيام الساعة، ومع ذلك فهو يعلّم التجليات الجلالية، ويوقظ الانسان من نوم الغفلة وينبهه.

أما وقت العشاء: فيذكّر بغشيان عالم الظلام وستره آثار عالم النهار... وهو يذكّر – كذلك – بالتجليات الجمالية لخالق الارض والسموات، وبانكشاف عالم الآخرة الواسع الفسيح ...»(٦)

ويمعن النظر في معمار الكون المدهش فيراه «كالقصر البديع؛

الشمسُ والقمر مصابيحه، والنجوم شموعه وقناديله، والزمن شريط يعلق عليه الخالق ذو الجلال ـ في كل سنة ـ عالماً آخر يبرزُه للوجود، مجدّداً فيه صوراً منتظمة في ثلاثمائة وستين شكلاً وطرازاً، مبدلاً اياه بانتظام تام، وحكمة كاملة، جاعلاً سطح الارض مائدة نعَمٍ، يزيّنها في كل ربيع بثلاثمائة ألف نوع من أنواع مخلوقاته، ويملؤها بما لا يعد ولا يحصى من آلائه، مع تمييز كلٍ منها تمييزاً كاملاً، على الرغم من تداخلها وتشابكها.. وقس على هذه الاشياء الامور الاخرى.. فكيف يمكن التغافل عن صانع مثل هذا القصر المنيف؟

ثم، ما اعظم بلاهة من ينكر الشمس في رابعة النهار، وفي صحوة السماء! في الوقت الذي يُرى تلألؤ أشعتها، وانعكاس ضوئها، على زَبَد البحر وحبابه، وعلى مواد البر اللامعة وعلى بلورات الثلج الناصعة، لأن انكار الشمس الواحدة ورفضها ـ في هذه الحالة ـ يستلزم قبول شُميسات حقيقية اصيلة، بعدد قطرات البحر وبعدد الزَبَد والحباب وبعدد بلورات الثلج!...».[٧] ويمضي النورسي الى القول بان « كل ذرة من ذرات الهواء ـ مثلاً ـ تستطيع أن تدخل في كل زهرة، وفي كل ثمرة، وفي كل ورقة، وتتمكن ان تؤدي دورها هناك. فلو لم تكن هذه الذرة مأمورةً ومسخرةً للزم أن تكون على علمٍ باشكال ما تمكنت من الدخول فيه، وبصورته وتركيبه، وهيئته، أي يجب ان تكون ذات علم محيط، وذات قدرة شاملة كي تستطيع القيام بذلك!!

وكل ذرة من ذرات التراب ـ مثلاً ـ يمكن ان تكون سبباً لنشوء

البذور ونمو أنواعها جميعاً. فلو لم تكن مأمورة ومسخّرة للزم أن تحتوي آلات وأجهزة معنوية بعدد انواع الاعشاب والاشجار، أو يجب منحها قدرة ومهارة بحيث تعلم جميع اشكال تراكيبها، فتصنعها، وتعرف جميع صورها، فتنسجها.. وقس على هذا سائر الموجودات، حتى تفهم أن للوحدانية دلائل واضحة باهرة في كل شئ.». (٨)

انه يتساءل: «أممن الممكن.. لمن اوجد كوناً بديعاً كهذا الكون، لغايات سامية ولمقاصد جليلة، اظهاراً لكماله، ثم لا يكون لديه ثواب للمؤمنين الذين قابلوا تلك الغايات والمقاصد بالايمان والعبودية، ولايعاقب اهل الضلالة الذين قابلوا تلك المقاصد بالرفض والاستخفاف؟!». (٩)

النورسى بتساؤله هذا يختصر الامر كله بمعادلة واضحة ذات حدين، فليس عبثاً ان يكون هذا الوجود جميلاً.. وحاشا لله.. ولن يتساوى، اذن، من يتلقى اشارته فتحمله الى مقامات الايمان والعبودية والقرب من الخلاّق المبدع، ومن يرين صدأ الضلالة على حسه وقلبه وعقله ووجدانه فلا يكاد يرى شيئاً او يصل الى شئ. انها الخفة التي يتميز بها الانسان المؤمن وهو يتعامل مع الجمال والا فأنه موات القلب الذى لايسمع ولا يرى «فالجمال المطلق الذى زين بتجليه هذا الكون وجمّله، والرحمة المطلقة التى ابهجت المخلوقات قاطبة وزينتها لاشك انهما منزهتان ومقدستان بلا نهاية ولاحد عن هذه القساوة وهذا القبح المطلق والظلم المطلق» الذى يقضي «بالموت الابدى والاعدام النهائي» للحياة ولجوهرها «الروح». (١٠)

ومرة اخرى فان هذا التناسق المدهش في الخلق، يعرض ويؤكد

بداهةً من اشد المعطيات الايمانية تكشفاً ووضوحاً، لانه نقيض العبث والفوضى والتناقض واللاجدوى.. ابتداء.

وهاكم مثلاً مما يعرف النورسي جيداً كيف يرسمه بعناية ليدل ها هنا على طبيعة التعامل مع الموضوع الجمالي، ومساحته التي تضيق او تتسع وفقاً للمنظور البشرى نفسه « رجل يمسك مرآة تجاه الشمس، فالمرآة تلتقط ـ حسب سعتها ـ نوراً وضياء يحمل الالوان السبعة في الشمس. فيكون الرجل ذا علاقة مع الشمس بنسبة تلك المرآة، ويمكنه أن يستفيد منها فيما اذا وجهها الى غرفته المظلمة، أو الى مشتله الخاص الصغير المسقف، بيد أن استفادته من الضوء تنحصر بمقدار قابلية المرآة على ما تعكسه من نور الشمس وليست بمقدار عِظَم الشمس.

بينما رجل آخر يترك المرآة، ويجابه الشمس مباشرة، ويشاهد هيبتها ويدرك عظمتها، ثم يصعد على جبل عال جداً وينظر الى شعشعة سلطانها الواسع المهيب ويقابلها بالذات دون حجاب ثم يرجع ويفتح من بيته الصغير ومن مشتله المسقف الخاص نوافذ واسعة نحو الشمس، واجداً سبلاً الى الشمس التي هي في أعالي السماء ثم يجري حواراً مع الضياء الدائم للشمس الحقيقية. فيناجي الشمس بلسان حاله ويحاورها بهذه المحاورة المكللة بالشكر والامتنان فيقول: (ايه يا شمس! يا من تربعت على عرش جمال العالم! يا لطيفة السماء وزهراءها! يا من أضفيت على الارض بهجة ونوراً، ومنحت الازهار ابتسامة وسروراً،فلقد منحت الدفء والنور معاً لبيتي ومشتلي الصغير كما وهبت للعالم أجمع الدفء والنور).

بينما صاحب المرآة السابق لا يستطيع أن يناجي الشمس ويحاورها

بهذا الاسلوب، اذ إن آثار ضوء الشمس محددة بحدود المرأة وقيودها، وهي محصورة بحسب قابلية تلك المرآة واستيعابها للضوء.»(١١)

والنورسي، وهو يتأمل الآية الكريمة: ﴿ **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ** ﴾،(١٢) يدين الصيغ(المدرسية) الحديثة في التعامل مع الموضوع الجمالي. انها تفقد الروح وتضيق الذهن وتنحدر بالعقل حيث يستعصي عليه استيعاب السر العظيم: « .. ان تزيين العالم وتجميله بما لايعد ولايحصى من التزيينات والمحاسن والنقوش البديعة، يقتضي بداهة، جلب انظار متفكرين مستحسنين ومقدرين معجبين، اذ لايظهر الحسن الا لعاشق، كما لا يعطى الطعام الا لجائع..»(١٣)

وكلنا يعرف جيداً انه عبر رحلته الدراسية، لم يكن ثمة رؤية شمولية متماسكة تربط المفردات المعرفية المعطاة للطلاب.. انها تقدم اليهم مفككة مجزأة، فما يلبث المعنى النهائي للحقائق العلمية ان يضيع. وثمة ذلك الجدار العازل بين العقل والروح، بين الحس والوجدان، وبين المرئيات المادية ودلالاتها الجمالية، ما يزيد في تضييع الطالب وهو يتنقل في دراسته من مرحلة الى اخرى. فما ثم الا حالات استثنائية لايقاس عليها قدرت على كسر الحصار والخروج الى العالم في آفاقه الرحبة، والتعلم كيف يكون ضوء الشمس ليس مجرد ظاهرة فيزيائية ولكن ايضاً – وفي الوقت نفسه– معطى جمالياً ينطوى على دلالات شتى.

ان النورسي وهو يتأمل في مكان آخر الآية الكريمة ﴿ **وجَعَل**

الشَّمْسَ سِراجاً﴾(١٤) يرجع الى هذه المسألة مرة اخرى «ففي تعبير إلسراج تصوير العالم بصورة قصر، وتصوير الأشياء الموجودة فيه في صورة لوازم ذلك القصر، ومزيّناته، ومطعوماته لسكان القصر ومسافريه، وإحساسٌ أنه قد أُحضرتها لضيوفه وخدّامه يدُ كريمٍ رحيم. وما الشمسُ إلاّ مأمور مسخَّر وسراج منوِّر. ففي تعبير السراج تنبيه الى رحمة الخالق في عظمة ربوبيته، وافهام إحسانه في سعة رحمته، واحساسُ كرمه في عظمة سلطنته.

فالآن استمع ماذا يقول الفلسفي الثرثار في الشمس. يقول: «هي كتلة عظيمة من المائع الناري تدور حول نفسها في مستقرها، تطايرت منها شرارات وهي أرضنا وسيارات أخرى فتدور هذه الاجرام العظيمة المختلفة في الجسامة.. ضخامتها كذا.. ماهيتها كذا..»

فانظر ماذا أفادتك هذه المسألة غيرَ الحيرة المدهشة والدهشة الموحشة، فلم تُفِدْك كمالاً علمياً ولا ذوقاً روحياً ولا غاية إنسانية ولا فائدة دينية.

فقس على هذا لتقدّر قيمة المسائل الفلسفية التي ظاهرُها مزخرفة وباطنُها جهالة فارغة. فلا يغرّنك تشعشع ظاهرها وتُعرِض عن بيان القرآن المعجز.»(١٥)

ماالذى يريد النورسى ان يقوله وهو يتحدث عن (الشمس) كظاهرة طبيعية وجرم كوني؟ انه يدلل على حالات عقلية ووجدانية وجمالية وايمانية، في نهاية الامر.. يربط بين الظواهر المادية والمعنوية، ويلحم ما بين شعاع الشمس الذى يضئ العالم ودفق النور الروحي

الذى يزكي الانسان ويخرجه من الظلمات.(١٦)

يتحدث النورسى ايضاً، عن الجبال التي يملك كل منها « شخصية معنوية خاصة به وتسبيح خاص ملائم له، وعبارة مخصوصة لائقة به ».(١٧)

عن النار التي تملك امرها « فلاتعمل كيفما تشاء حسب هواها وبلا بصيرة، بل تقوم بمهمتها وفق امر يفوض عليها، فلم تحرق سيدنا ابراهيم لأنها امرت بعدم الحرق » وان تصير برداً وسلاماً! (١٨)

عن تحولات الطبيعة وتبدلاتها التي تنطوى على « ملايين الملايين من الافعال المتشابكة.. فكأن ملايين الأطوال من منسوجات ملونة رائعة تنسج امامنا في آن واحد.. حقاً ان هذه التحولات عجيبة جداً ».(١٩)

عن التناظر المدهش بين « الاشياء » في هذا العالم « البديع » ذى « النظام الشامل والانتظام الكامل كأن كل شئ فيه فاعل مختار حي يشرف على نظام المملكة كلها ويتحرك منسجماً مع ذلك النظام العام، حتى ترى الاشياء المتباعدة جداً يسعى الواحد منها نحو الآخر للتعاون والتآزر ».(٢٠)

عن « لمعان وتألق » الانهار الجارية بعد زوال حبابها، وانه ليس من الحباب بل « من مصدر نور دائم » تماماً كما يحدث في عالم الافعال، حيث تبدلها المسرع المذهل « وتلون الحالات التي تعقبها وانصباغها بصفاتها » يدلنا على ان تلك الافعال « انما هي تجليات من هو دائم لايزول، وقائم لايحول » حيث تصير « الاشياء جميعاً نقوشه ومراياه وصنعته ليس الا ».(٢١)

عن الكرة الارضية التي تبدو في المنظور العلمي مجرد سيار ذى

حجم متوسط يدور حول الشمس وهو جرم صغير قياساً على الكواكب التي لاتعد ولاتحصى، ولكنها في المنظور الايماني تكسب معنى، بل معاني اخرى.. انها «قلب الكون ومركزه من حيث المعنى.. ومعرض جميع المصنوعات المعجزة.. وموضع تجلي الاسماء الحسنى كلها، حتى لكانها البؤرة الجامعة لتلك الانوار.. ومحشر الافعال الربانية المطلقة ومرآتها.. وسوق واسع لإبراز الخلاقية الإلهية المطلقة، ولا سيما ايجادها الكثرة الهائلة من النباتات والحيوانات الدقيقة بكل جود وكرم.. ونموذج مصغر لمصنوعات عالم الآخرة الواسع الفسيح.. ومصنع يعمل بسرعة قصوى لانتاج منسوجات خالدة.. وموضع عرض لنماذج المناظر السرمدية المتبدلة بسرعة فائقة.. ومزرعة ضيقة مؤقتة لاستنبات بُذيرات تربّى بسرعة للبساتين الخالدة الرائعة.

لهذا كله يجعل القرآن الكريم الارض صنواً للسموات.. وكأنها ثمرة صغيرة لشجرة ضخمة.. فهي في كفة والسموات كلها في كفة،..»(٢٢)

يرجع كرة اخرى الى الجبال، والارض، والشمس، فيدير المنظور من اكثر من زاوية ويحرك الكاميرا المحمولة لكي ينفذ (اللقطة) من كافة الجهات، وهو في الحالات الثلاث، يتعامل بحس جمالي مرهف مع هذه الظواهر الطبيعية، جنباً الى جنب مع الابعاد الاخرى التي تهم الجغرافيين والفلاسفة والعلماء.(٢٣)

يتحدث ايضاً عن السماء الدنيا، بكواكبها وسياراتها ونجومها، عن حركتها المرسومة بعناية، وانسيابها الهادئ وتزيين وجهها الجميل، عن القدرة الالهية التي تعطي الشمس وسياراتها وضعاً خاصاً شبيهاً بوضع

معمل عظيم، عن وجه السماء وهو يتدفق «سطوعاً باهراً وتهللاً مهيباً، وتبسماً وبشاشة في زينة وجمال، مما يبيّن عظمة سلطنة الصانع الجليل، ومدى الدقة في صنعته الجميلة. اذ كما أن إضاءة مصابيح وانوار واظهار مظاهر الفرح والبهجة في يوم اعتلاء السلطان العرش، إنما هو لبيان درجة كماله في مضمار الرقي الحضاري، كذلك السموات العظيمة بنجومها المهيبة تُظهر لنظر المتأمل كمال سلطنة الصانع الجليل وجمال صنعته البديعة..

تشعشع سراجها، تهلل مصباحها، تلألؤ نجومها، تعلن لأهل النهى سلطنة بلا انتهاء..»(٢٤)

ثم ما يلبث النورسي، وهو يقف منبهراً ازاء «الصحيفة الملونة الزاهية لكتاب الكون» ان يتلو هذا النشيد المترع بالمفردات والخبرات الجمالية: «انظر..

كيف صوّرها قلم القدرة المذهّب.

لم تبق نقطة مظلمة لأبصار أرباب القلوب.

فكأنه سبحانه قد حرّر آياته من نور.

انظر! ما اعظمها من معجزة حكمة، تقود الى الاذعان!

وما اسماها من مشاهد بديعة في فضاء الكون!

واستمع الى النجوم ايضاً، الى حلو خطابها الطيب اللذيذ.

لترى ما قرّره ختم الحكمة النيّر على الوجود.

انها جميعاً تهتف وتقول معاً بلسان الحق:

نحن براهين ساطعة على هيبة القدير ذي الجلال

نحن شواهد صدق على وجود الصانع الجليل وعلى وحدانيته وقدرته.

نتفرج كالملائكة على تلك المعجزات اللطيفة التي جمّلت وجه الارض.

فنحن الوف العيون الباصرة تطل من السماء الى الارض وترنو الى الجنة.

نحن الوف الثمرات الجميلة لشجرة الخلقة، علّقتنا يدُ حكمة الجميل ذي الجلال على شطر السماء وعلى اغصان درب التبانة.

هكذا نبيِّن مائة الف برهان وبرهان، بمائة الف لسان ولسان، ونُسمعها الى مَن هو انسان حقاً.

عميت عين الملحد لا يرى وجوهنا النيرة، ولا يسمع اقوالنا البينة، فنحن آيات ناطقة بالحق.

سكتنا واحدة، طُرتنا واحدة، مسبّحات نحن عابدات لربنا، مسخّرات تحت امره.

نذكره تعالى ونحن مجذوبات بحبّه، منسوبات الى حلقة ذكر درب التبانة.»[٢٥]

حتى الاحجار والصخور والجواهر والمعادن، يدعونا النورسى لتأمل «تزييناتها ومزاياها التى تترتب عليها منافع شتى».[٢٦] وهو هنا، وفي اماكن عديدة اخرى يضع المنفعة والجمال في كفتي ميزان، لاتشيل

احدهما ولاتثقل الاخرى، انهما - في المنظور الاسلامي - وجهان لحالة واحدة، تكاد تضم جل الكائنات، وهي ترتبط اشد الارتباط بمفهوم (التسخير) الذى يتحدث عنه كتاب الله مراراً.. وهو تسخير يضع بين يدى الانسان منافع شتى، ولكنها ليست (المنفعة) الصرفة وحسب، وانما المنفعة التى تحمل الوجه الجميل لكي تشبع في النفس حاجات اخرى.. انهما دائماً في سياق التركيب الكوني وفي نسيج الوجود: المنفعة والجمال..« ان الله سبحانه وتعالى قد رفع ستائر العدم والاثير والسماء، عن جوهرة الشمس التي تضئ الدنيا كالمصباح، فأخرجها من خزينة رحمته واظهرها الى الدنيا..(انها) موظفة ومأمورة بنشر غلالات الضوء في الاسحار ولفّها في الأماسي، وهكذا يتناوب الليل والنهار.. »(٢٧)

وبموازاة هذا، او كأمتداد له، يتحدث النورسى في اكثر من مكان عن العلاقة الحميمة بين المنظور العلمي للظاهرة الكونية وبين المنظور الجمالي. ونحن نجد نموذجاً مفصلاً لهذه الثنائية في (الكلمة الثالثة والثلاثين)(٢٨) والتي يرد في سياقها كيف « ان « الحياة » تتضمن الرزق والرحمة والعناية والحكمة، التي كُلٌّ منها سارية في الكائنات ومهيمنة على أمرها وخلقها وتدبيرها، فكأنَّ الحياة تقود أولئك جميعاً معها أينما حلَّت. اذ حالما تحل « الحياة » في أيما جسم، اذا باسم « الحكيم » يتجلى فيه ايضاً حيث يشرع ببناء عشه بناءً متقناً وينظمه تنظيماً حكيماً. وفي الوقت نفسه يتجلّى اسم « الكريم » أيضاً حيث يرتّب مسكنه وينسقه ويزيّنه وفق حاجاته ويظهر آنئذ اسم « الرحيم » متجلياً ايضاً فيسبغ أفضاله وألطاف إنعامه لأدامة الحياة وبلوغ كمالها،

وفي الوقت نفسه يتجلى اسم « الرزاق » بادياً للعيان حيث يهئ المقومات الغذائية - المادية والمعنوية - لبقاء تلك الحياة وانبساطها.. ان الحياة كالبؤرة التي تتجمع فيها الأشعة الضوئية المختلفة، فتتداخل الصفات المتنوعة في الحياة بعضها في بعض تداخلاً يجعل كل صفة منها عين الأخرى، فكأن الحياة - بكاملها - « علمٌ » كما أنها « قدرة » في الوقت نفسه، وهي « حكمة » و « رحمة » سواء بسواء. »(٢٩)

وتنفتح النافذة الثامنة والعشرون من (الكلمة) نفسها على مهرجان الخلق المنوع، المحكم، الجميل الذى تحكي عنه الآية الكريمة ﴿ **ومن آياته خَلْقُ السَّمَوات والارضِ واختلاف ألسنَتِكُمْ وألوانكُم ان في ذلكَ لآيات للعالَمينَ** ﴾. (٣٠) ونستمع الى النورسى وهو يشير بكلتا يديه الى « اركان الكون العظيمة » حيث نجد « أن ادارةً وتنويراً في منتهى العظمة يكتنفانه من كل جوانبه ويفضيان به الى غايات عظيمة وجليلة. وننظر الى مجموع الكون كله، فاذا به يتجلى أمامنا وكأنه مملكة منسقة الأرجاء، أو مدينة رائعة الجمال، أو قصر منيف باذخ، وإذا بنا أمام أنظمة دقيقة ترقى به لبلوغ حكم عالية وغايات سامية. »(٣١)

وما يلبث ان يخلص الى الدلالة النهائية لهذا المهرجان الجميل وهي الدلالة ذاتها التي اشار اليها واكد عليها في عشرات المواقع من كلماته بل في مئاتها « فحيث ان كل أثر من الآثار البديعة الماثلة أمامنا في الكون وفي جميع المخلوقات هو كامل بديع بحد ذاته.. وان هذا الاثر البديع يشهد على فعل.. والفعل يشهد على اسم. والاسم يشهد على صفة.. والصفة تشهد على شأن.. والشأن يشهد على ذات. لذا

فانَّ كلاً منها مثلما يشهد شهادة صادقة على صانع جليل واحد أحد واجب الوجود، ويشير الى احديته.. أي مثلما أن هناك شهادات وأشارات بعدد المخلوقات الى التوحيد، فإن كلاً منها ايضاً مع مجموع الآثار والمخلوقات في الكون إنما هو معراج عظيم لمعرفة ا سبحانه، له من القوة ما للمخلوقات جميعاً..»(٣٢)

ويقول في موضع آخر: «ان ما نشاهده في هذا الكون من الاجراءات الجليلة الضخمة امثال تبدل المواسم.. ومن التصرفات العظيمة امثال تسيير النجوم.. ومن التسخيرات المدهشة امثال جعل الارض مهاداً والشمس سراجاً.. ومن التحولات الواسعة امثال احياء الأرض وتزيينها بعد جفافها وموتها.. ليبيّن لنا بجلاء ان وراء الحجاب ربوبية جليلة عظيمة تحكم وتهيمن بسلطانها الجليل. فمثل هذه السلطنة الربانية تستدعي رعايا يليقون بها، ومظاهر تناسبها. بينما ترى ان من لهم افضل المزايا وأجمعها من الرعايا والعباد قد اجتمعوا مؤقتاً منهوكين في مضيف الدنيا، والمضيف نفسه يملأ ويفرغ يومياً، والرعايا لا يلبثون فيه الاّ بمقدار أداء تجربة مهماتهم في ميدان الاختبار هذا. والميدان نفسه يتبدل كل ساعة. فالرعايا يقفون دقائق معدودة لرؤية ما في معارض سوق العالم من نماذج الآلاء الثمينة للخالق ذي الجلال، ومشاهدين - لأجل التجارة - بدائع صنعه سبحانه في هذا المعرض الهائل، ومن ثم يغيبون، والمعرض نفسه يتبدل ويتغير كل دقيقة!. فمن يرحل فلا عودة له، والقابل راحل. فهذا الوضع يبين بوضوح .. ان وراء هذا المضيف الفاني، وخلف هذا الميدان المتغير، وبعد هذا المعرض المتبدل، قصوراً دائمة تليق بالسلطنة السرمدية، ومساكن ابدية ذات

جنان، وخزائن ملأى بالأصول الخالصة الراقية للنماذج التي نراها في الدنيا؛ لذا فالدأب والسعي هنا انما هو للتطلع الى ما هناك.. والاستخدام هنا لقبض الاجرة هناك..»(٣٣)

ويتساءل النورسي: «أمن الممكن لخالق ذي جلال أظهر سلطان ربوبيته بتدبير قانون الوجود ابتداء من الذرات وانتهاء بالمجرات، بغاية الحكمة والنظام وبمنتهى العدالة والميزان.. ان لا يعامل بالاحسان من احتموا بتلك الربوبية وانقادوا لتلك الحكمة والعدالة، وان لا يجازي اولئك الذين عصوا بكفرهم وطغيانهم تلك الحكمة والعدالة؟»(٣٤)

انه - اذن - الهدف المقصود الذى تؤول اليه وتنبثق عنه سائر الظواهر والموجودات والاشياء، وهي تقدم منفعة ما للانسان المتفرد، او تمنحه جمالاً.. الهدف الواحد الذى ينبئ دائماً عن الحكمة ذاتها، تلك التي تعكس ابداعية الله سبحانه في الكون، وكلماته التي مالها من نفاد وتسخيره هذا كله للانسان الذى اريد له ان يصير سيد المخلوقات بادراكه هذه الحكمة وتعامله معها عبر مفردات سعيه اليومي، وكأنه ابداً متحقق بالحضور المترع بالشكر والامتنان لأفضال الخالق العظيم التي لاتعد ولاتحصى.. ان الحياة - بتعبير النورسي - تظهر دائماً «تجلي الجمال الرباني» وتبرهن على احديته المطلقة.(٣٥)

في مطلع الكلمة الثانية والثلاثين، وفي ظلال الاية الكريمة ﴿**لو كان فيهما آلهة الاّ الله لفسدتا**﴾،(٣٦) يجرى النورسى حواراً بين مشرك يبلغ به الضلال ان يدّعى التملك الحقيقي لموجودات العالم، وبين اصغر هذه الموجودات: الذرة، ثم الكرية الحمراء، ثم الخلية، ثم الجسم البشرى، ثم النوع الانساني. وعندما تسقط حججه مع هؤلاء

جميعاً يتوجه الى «البساط الزاهي المفروش على وجه الارض، والحلة القشيبة المزينة التي البست».. ثم يتحول لعد اخفاقه الى الكرة الارضية فالشمس والنجوم. وليس ثمة في حواريته هذه الا التأكيد على وحدانية الخلق، وتفرد الخالق المبدع بالسلطان.

والنورسي وهو يلاحق ادعاءات الشرك في هذا الحوار، فيطمسها، لاينسى - كعادته دائماً - توظيف البعد الجمالي لإبداعية الخلق الالهي، وتفردها، واحكامها، واحديتها المطلقة في مواجهة كل ظنون الشرك واوهامه التي لو اتيح لها التحقق لحظة واحدة، وحاشا لله، لآلت بالسمٰوات والارض الى التفكك والفوضى والفساد.»(٣٧)

ثمة - اخيراً - مالايفوت على عقل النورسي وهو يتعامل مع الكتلة الكونية.. مع الذرات والاشياء والموجودات والطبيعة والعالم والسماء.. مع القوانين التي تنظمها والسنن التي تسيرها والنواميس التي تضبطها والديكورات الباهرة التي تمنح تكويناتها واشكالها وحركاتها وايقاعاتها زينة وروعة وجمالاً.. لايفوته ان الله سبحانه الذى يبدع هذا كله، ويرسم له خرائط المسير والمصير، لايعجزه، جلت قدرته، ان يخرق النظام المحكم الجميل بمعجزة هنا وخارقة هناك، لأنه - سبحانه - يعلو على النظم والقوانين والسنن التي ينشئها وهي ليست سوى انعكاساً مرموقاً لمشيئته المطلقة. من ثم فأنه - سبحانه - ولأسباب ظاهرة وحكمة ملحوظة حيناً، مغيبة عن قصور القدرة البشرية ونسبية رؤيتها احياناً، يخرق السنن والنواميس، ويجعل الانسان والخلائق حاضرة ابداً في مواجهة قدرة لايعجزها شئ في الارض ولا في السماء.

ان النورسي ، وهو يناقش معجزة انشقاق القمر في الآية الكريمة: ﴿ اقتربت الساعة وانشقّ القمر* وان يروا آيةً يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾،(٣٨) يقف بعض الوقت عند هذه المسألة،(٣٩) والذى يهمنا منها، بقدر ما يتعلق الامر بالموضوع الجمالي المعني بالجانب المادى من الوجود، ان النورسى، وهو يعالج الظاهرة من زاويتى التاريخ والعلم، يمنحنا، بشكل غير مباشر، تفسيراً لما قد يشهده العالم احياناً، او جوانب ومساحات منه منحسرة في الزمن والمكان، من تناقض او اضطراب قد يطمسان على وجهها الجميل، وان هذا لا يعدو ان يكون استثناء لحكمة يريدها الله سبحانه، لقاعدة اكثر امتداداً ودواماً، وتجعل الجمال جبلة الخلق الكوني وروحه وقانونه.

ان القمر الذى ينشق للحظات في عمر الزمن الكونى.. في مجابهة المعاندين والمشركين فيعتم او تغيب اضواؤه، مايلبث ان يلتئم لكي يعود الى وظيفته المرسومة في علم الله سبحانه ولكي يبث النور على الارض، ويشارك في مهرجان السماء الدنيا وزينتها!

الهوامش

(١) الكلمات ص: ٧٥٤

(٢) الكلمات ص: ٦٥١ وانظر الصفحات ٦٥٣ – ٦٦٥

(٣) سورة الاسراء (الاية: ٤٤)

(٤) الكلمات ص: ٧٤٩

(٥) الكلمات ص: ٢٨

(٦) الكلمات ص: ٤٠ ، ٤٤

(٧) الكلمات ص: ٦١

(٨) الكلمات ص: ٦١ – ٦٢

(٩) الكلمات ص: ٦٥

(١٠) الكلمات ص: ١١٧

(١١) الكلمات ص: ١٤٦ – ١٤٧

(١٢) سورة الملك (الاية: ٥)

(١٣) الكلمات ص: ٢٠٢ وانظر الصفحات ٢٠٢ – ٢١٠

(١٤) سورة نوح (الاية: ١٦)

(١٥) الكلمات ص: ٢٦٧

(١٦) الكلمات ص:(انظر الصفحات ٢١٢ – ٢١٤)

(١٧) الكلمات ص: ٢٨٦

(١٨) الكلمات ص: ٢٨٨

(١٩) الكلمات ص: ٣١٥

(٢٠) الكلمات ص: ٣١٦

(٢١) الكلمات ص: ٣٢١

(٢٢) الكلمات ص: ٤٠٢

(٢٣) الكلمات ص: (انظر الصفحات ٤٥٢ - ٤٥٥)

(٢٤) الكلمات ص: ٧٢٠

(٢٥) الكلمات ص: ٧٢١ - ٧٢٢

(٢٦) الكلمات ص: ٨٠٦

(٢٧) الكلمات ص: ١٢٦

(٢٨) الكلمات ص: (انظر الصفحات ٨٠٨ - ٨١٢)

(٢٩) الكلمات ص: ٨١٣

(٣٠) سورة الروم (الاية: ٢٢)

(٣١) الكلمات ص: ٨٢١

(٣٢) الكلمات ص: ٨٠٢

(٣٣) الكلمات ص: ٧٦ - ٧٧ وانظر الصفحات: ١١١، ١١٨، ١٣٢ - ١٣٣، ١٣٤، ٢٠٩، ٣٢١ - ٣٢٢، ٧١٨ - ٧٢٢، ٧٢٣ - ٧٤٨، ٧٤٩ - ٧٧٩.

(٣٤) الكلمات ص: ٦٨

(٣٥) يمكن احالة القارئ الى الشواهد التالية لأغناء تصوره عن معالجة النورسي لجماليات ومقاصد الخلق الكوني: المرجع نفسه، الصفحات : ٧ - ٨، ١٠، ٣٣، ٦٠ - ٦٢، ٦٨ - ٦٩، ٧٦، ٨٧، ٩١، ١٨٠ - ١٨٤، ١٨٧ - ١٩٠، ٣٣٥، ٣٣٨ - ٣٣٩، ٣٤١ - ٣٤٦، ٧١٩ - ٧٢٢، ٧٨٢ - ٧٩٢، ٧٩٧ - ٨٠٢، ٨٠٥ - ٨١٠.

(٣٦) سورة الانبياء (الاية: ٢٢)

(٣٧) انظر بالتفصيل: الكلمات ص: ٧٠٨ - ٧١٧

(٣٨) سورة القمر (الاية: ١ - ٢)

(٣٩) الكلمات ص: ٧٠٢ - ٧٠٦



حسين عاشور

- المشرف العام على مؤسسة المختار الإسلامي للصحافة والنشر.
- تصدر المؤسسة ثلاثة مجلات شهرياً: «المختار الاسلامي» وهي المجلة الام و«هاجر» لنساء المسلمين و«زمزم» لأطفال المسلمين.
- في مجال النشر أصدرت الدار أكثر من ٧٠٠ عنوان.
- مجلة المختار الاسلامي تناولت في اكثر من دراسة عن العلامة سعيد النورسي تحدثت عن حياته ونشأته ومدرسته الفذة وأثره على الأمة الاسلامية.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الاستاذ سعيد النورسى

والدفاع الإستراتيجى من خلال التأمل في الطبيعة

الحديث عن الاستاذ بديع الزمان سعيد النورسى وتأملاته في الطبيعة ومشاهداته كسائح يسأل الكون عن خالقه، واستنطاقه لمفردات هذا الكون وتلك الطبيعة لاثبات وجود الله تعالى، وصحة رسالة الاسلام، واعجاز القرآن الكريم يستدعى بالضرورة مصطلح «الدفاع الاستراتيجى».

فالظرف الذى عاش فيه النورسى، وكذا التحديات التى واجهها كمسلم وكعالم دين اسلامى، وكذا طريقته في الدفاع والصمود لاتعبر عنها كلمة اخرى سوى كلمة الدفاع الاستراتيجى ، ولاشك ان النجاح الذى حققه الاستاذ سعيد النورسى سواء في حياته او بعد مماته من خلال تلاميذه والمستفيدين من عمله في تركيا وخارج تركيا، في العالم الاسلامى، بل وفي خارج العالم الاسلامى ترجع في جزء كبير منها الى اسلوب الدفاع الاستراتيجى الذى اتبعه الاستاذ سعيد النورسى.

في الآفاق وفي أنفسهم

التفكير فريضة اسلامية، والتأمل هو افضل العبادات ، والله تعالى حين خلق الانسان زوده بالعقل، وجعل التعقل والتفكر طريقاً الى معرفة الله تعالى وجوداً وقدرة، من خلال مابثه في الكون من آيات ومعجزات تقود حتماً الى الايمان بالله الواحد القادر اللطيف الخبير.

والتأمل في قدرة الله تعالى في كل جزئيات وكليات الكون والحياة واجب على كل مسلم بل واجب على كل انسان كطريق طبيعي لمعرفة الحق والانحياز له والاطمئنان إليه، التأمل في الاشياء الكبيرة والصغيرة على حد سواء.

وهذا الواجب اكثر وجوباً في حالة العلماء، لانهم يأخذون بيد الآخرين، ويقودونهم على هذا الطريق، ويرفعون عن بصيرتهم الغشاوة، ويجلون لهم ما غمض عليهم ويضعون على طريق التأمل علامات إرشادية.

يقول الله تعالى: ﴿**قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق**﴾[1]

ويقول تعالى: ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب**﴾[2]

ويقول تعالى: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾[3]

والآيات في هذا الصدد أكثر من ان تحصى.

وانطلاقا من هذا الواجب الشرعى، الذى دعت إليه آيات القرآن

الكريم، فان الاستاذ سعيد النورسى «تقدم في هدوء ذكى ليأخذ بيد طالب الحقيقة في جولة رائعة شاسعة هائلة كى يفتح له فيها مغاليق عقله وقلبه، ويوقفه امام لوحة الوجود وجمالها الأخاذ ومظاهرها البديعة، بادئا رحلته الكونية من عجائب إلآفاق العلوية، الى مدهشات الكائنات السفلية، سابراً غورها، واصفاً اتساقها وتوازنها ولوحاتها الفنية الرائعة، التى تأخذ بالألباب وتضرب على أوتار القلوب، فتوقظ الغافل، وتنير بصيرة الذاهل وتأخذ بيد الجاهل، الى عالم من حقائق العلم والمعرفة في إطار السببية الحاسمة، والغائية العميقة، والتخطيط الكونى الشامل الجامع الذى يقطع بوجود الخالق العظيم الذى تسبّح له السموات السبع والأرض ومن فيهن»(٤).

كان سعيد النورسى رائعاً في تأملاته، عميقاً في استلهام المعانى الدقيقة من مشاهداته في الطبيعة ويرجع ذلك الى انه امتلك كل المقومات اللازمة لهذا الأمر فهو يتمتع بالأخلاص والتجرد مما يجعله قادراً على استقبال المعانى مهما دقت واستيعاب العظات والعبر مهما عظمت، لأن النفس المخلصة المتجردة مثل جهاز إستقبال واعٍ لا تشوبه شوشرة ولا اضطراب، ولأنه كان يملك عقلاً كبيراً ذكياً متفتحاً، وحافظة قوية وملكات متعددة حتى ان اهل زمانه اطلقوا عليه اسم بديع الزمان اعترافاً بهذا كله. حقاً لقد كان جهاز استقباله نقياً..!!

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل اجتهد سعيد النورسى في تحصيل العلوم الدينية والعلمية أيما اجتهاد، وبذل كل طاقته في هذا الصدد، ولم يتوان أو يقصر في هذا المجال وذاك، فقد حفظ القرآن الكريم، ودرس علوم النحو والصرف والبلاغة والتفسير والفقه من العلوم الدينية

العقلية والنقليـة حتى حصل على العالمية وهو ابن أربع عشـرة سنة، كما درس علوم الرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء والفلسفة والجيولوجيا والتاريخ والجغرافيا وألف في البعض منها »[٥].

عصر العلم:

كل شئ سليم يقـود الى الايمان، النظرة السليمـة تقـود الى الايمان، الوجـدان السـليم يقـود الى الايمان، القلب السليم يقـود الى الايمان، العقل السليم يقود الى الايمان، اى ان للايمان طرقاً متعددة، كلها تقود الى نفس النتيجة، وفي الفترة التى عاش فيها الاستاذ سعيد النورسى « ١٨٧٣ – ١٩٦٠ » كانت العلوم الطبيعية، وإعلاء شـأن العقل تقـفز قفزات هائلة، وكـان الاتجاه العالمى يريد استخدام الاكتشافات العلمية في عكس طريقهـا الصحيح اى في الاتجاه نحو الإلحـاد والتشكيك في الاديان، وكان من الطبيعى ان يستمع إليه أحد، ولأن الشيخ النورسى إستوعب روح العـصر فإنه استطاع ان يقطع دابر الملحـدين عن طريق استخدام لغة التأمل العقلى والعـلمى القائم على الحقائق لأسباب وجود الخالق الأعـظم وصحة الإسـلام وإعجـاز القرآن وصـدق الرسول ﷺ، وأن يزيل الفجـوة المصطنعة بين مـاهو دينى وماهو علمى، يقـول الشيخ النورسى رحـمـه الله «ضياء القـلب هو العلوم الدينيـة، ونور العـقل هو الفنون المدنية – العلوم الكونية الحديثة – فبامتزاجهما تتـجلى الحقيقة، وبافتراقـهمـا تتولـد الحيل والشـبهـات في هذا، والتعصب الذميم في ذاك »[٦].

الدفاع الإستراتيجي:

في الفترة التى عاشها الشيخ سعيد النورسى «١٨٧٣ – ١٩٦٠»، وخاصة تلك الفترة التى استطاعت فيها أوروبا أن تمزق الخلافة العثمانية، وأن تبدد وحدة المسلمين، وأن تلقى بظلال من الشك حول الكثير من مبادئ الإسلام، ولأن أوروبا تعرف خطورة الإسلام على أهدافها المتمثلة في العدوان والقهر والنهب، فانها لم تدخر وسيلة في القضاء على الاسلام وإبعاد القرآن عن حياة المسلمين وتشكيكهم في دينهم الحنيف، يقول السياسى الإنجليزى «غلادستون»:. «مادام هذا القرآن بيد المسلمين فلن نستطيع ان نحكمهم، لذلك لا مناص لنا من ان نزيله من الوجود او نقطع صلة المسلمين به».

وكان من الطبيعى ان النقطة الأخطر والأهم في نظر الغرب هى إفقاد المسلمين إيمانهم بالله وبالإسلام وبصدق الرسول ﷺ من خلال إدعاء: أن الإسلام لا يتفق مع العلم، وبذلك يضربون الإسلام والمسلمين الضربة القاتلة بعد أن نجحوا في تمزق المسلمين وتفكيك وحدتهم، وكان الرد الصحيح على ذلك أن يقطع الشيخ النورسى على الغرب هذا الهدف على أساس أنه مادامت قد وقعت الهزيمة فلابد من نوع من الدفاع الإستراتيجى. اى وقف تحقيق العدو للمزيد من الأهداف وإيقاف مسلسل الهزيمة عند هذا الحد الذى وصلت إليه تمهيداً للهجوم المضاد. وهكذا جاء اهتمام الشيخ النورسى بأثبات اعجاز القرآن، وصدق الرسالة ووجود الله تعالى، وقدرته من خلال التأمل والتعقل في الطبيعة كنوع من الدفاع الاستراتيجى أمام مخططات

الغرب. ولاشك أنه أحدث الأثر المطلوب من هذا الدفاع، ولاشك أن الشيخ النورسى رحمه الله كان عبقرياً في اختيار هذا الاسلوب.

خصائص أسلوب الشيخ في تأملاته

تمتع الشيخ النورسى في تأملاته بأسلوب فذ يجمع بين الحقيقة العلمية، والاستقراء المنطقى، والشمول، والشاعرية الخصبة الرقيقة، ومنهجية رصينة غاية في القوة والوضوح والرصانة، مبتعداً في نفس الوقت عن قيود المصطلحات الكلامية وجمود المقدمات الفلسفية التى تزيد في الحيرة. بل نستطيع أن نقول أنه أحدث نقلة نوعية في علم التوحيد الإسلامى الذى كان بلغته واسلوبه السابقين ملائماً للعصر الذى نشأ فيه ولكنه لم يعد ملائماً لعصرنا الحاضر، وهكذا حول الشيخ النورسى علم التوحيد الاسلامى من مجرد مناقشات وعرض أدلة فلسفية، الى منهج علمى يعتمد على حقائق العلم وبساطة الأسلوب وأحتوائه على الحركة والحياة، بحيث يصبح تياراً اجتماعياً عارماً يلائم مختلف المستويات الثقافية والفكرية وليست قاصرة على طلاب العلوم الفلسفية وحدهم.

لماذا نجح الشيخ النورسى

لم تقتصر فائدة الثمار العلمية والفكرية للشيخ النورسى على الأتراك وحدهم، بل وصلت رسائله وأبحاثه التى تبلغ المائة والثلاثون رسالة الى مختلف أنحاء العالم، وهناك الآن ترجمات لها في اللغات العربية والإنجليزية، والكردية والفارسية والأردية وغيرها، فضلاً عن عشرات رسائل الماجستير والدكتوراه في مختلف اللغات، وعشرات المراكز التى

تتبنى نشر هذه الرسائل في كل مكان من العالم ويرجع هذا الأمر الى إخلاص الشيخ وتجرده، ولاشك أن ما يخرج من القلب يصل الى القلب بسهولة فضلاً عن ذكائه الوقاد وسعة علمه ورجاحة عقله، وأهم من هذا وذاك أنها استوعبت روح العصر، واستخدمت أسلوب الدفاع الاستراتيجي.. رحم الله الشيخ وأجزل له العطاء..

---

(١) سورة العنكبوت الآية (٢٠)

(٢) سورة آل عمران الآية.(١٩٠)

(٣) سورة فاطر الآية (٢٨)

(٤) مقدمة الاية الكبرى لسعيد النورسى /د. محسن عبد الحميد – أستاذ التفسير والعقائد الإسلامية – جامعة بغداد.

(٥) سعيد النورسى نبذة عن حياته وآثاره /احسان قاسم الصالحى.

(٦) – الآية الكبرى – مشاهدات سائح يسأل الكون عن خالقه.. المقدمة.

انطباعات قسم من الأساتذة

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي إحسان..

اكتب إليك ... بينما تعيش القاهرة في رعب ؛ فأخبار الزلزال وآثاره لا تزال تملأ قلوب الناس بالخوف، ولا يزال اخوك – الذي هو انا – يتصور ما حدث كأنه كابوس او حلم ..

لقد تراقصت البيوت والمنازل .. وهرع الناس من شدة الخوف الى الشوارع . وبما ان الموت حق، واينما تكونوا يدرككم هذا الموت فقدآثرت البقاء في البيت . واخترت ان اموت بين الكتب علّها تشفع لي – عند الله – ذات يوم .. !

لماذا أبدأ معك هذه البداية ؟ لقد اردت ،،
المثقلة . لتعيش معي لحظات هذا الحادث الذي مر ـ
ولتعلم انني – وبالرغم من هذا كله – لم أنسك مذ عدت إ،
وان هذا الخطاب كان مفروضا ان يصل اليك بعد عودتي مباشرة.

ثم ماذا اقول لك..؟ لقد عدت من «اسلامبول» إنساناً يختلف عن ذي قبل. فقد اطمأن قلبي بعد هذا الذي رأيت وسمعت، وآمنت كما آمن كثيرون مثلي ببركات «سعيد النورسي» الذي أشعل هذه الجذوة المقدسة في بلاد كنا نظنها ضاعت وبادت كما ضاع وباد غيرها في بلاد الشرق او في بلاد الغرب .

لقد رأيت «الامل» وقد تحول الى «عمل» ! كما رأيت «كتائب الحق» تزحف على معاقل الباطل فتدكها في هدوء وصمت، كما

رأيت « رسائل النور » وقد تحولت الى « شخوص » و« جنود » تجاهد وتجتهد في سبيل إعلاء راية الايمان المحاصر باعدائه وخصومه من كل شعب وفي كل ارض.

إنك لا تستطيع تصور فرحتنا وسعادتنا. لقد حضرت قبل هذا المؤتمر اكثر من سبعين مؤتمرا.. ولكن مؤتمركم كان المؤتمر الوحيد الذي هزّ اعماقي من الداخل. وأثار في قلبي انبل المشاعر . وجعلني ازيد ثقة في نصر الله المؤكد لكل مؤمن مخلص صادق.

ان هذا العمل اي الدعوة إلى الله لا ينجح ولا يصلح إلا بالتجرد والاخلاص ونكران الذات. وهل نجح بديع الزمان إلا بهذا الاخلاص وهذا التجرد؟ لقد خرج من محنة الابتلاء كما خرج سيدنا ابراهيم عليه السلام من النار ! وما كان ذلك ليكون لولا ما يعلم الله عنه من صدق واخلاص وتجرد وفداء ..

واوصيك . بل اوصيكم جميعاً كما اوصي نفسي بالتزام هذا المنهج الرباني في القول والفعل. وفي الظاهر والباطن. وفي النية والقصد والا كانت فتنة لا يعلم مداها وشرورها الا الله.. لهذا اقول مخلصا وصادقا:

يجب ان تعملوا على وحدة الصف ، ورأب الصدع وجمع الشمل.. هل فهمت يا احسان ما أقصد. أعتقد ذلك ....

الدكتور

عبدالودود شلبي

الرحيل الى اسطنبول

ا.د. عماد الدين خليل

(١)

الطائرة تتباطأ قليلاً واخي (أديب) يشير الى النافذة: انظر، انها اسطنبول.. القي نظرة سريعة.. الاضواء تنبض في كل مكان.. تنتشر على مساحات واسعة.. تعلو وتهبط كما تريد لها طوبوغرافيا الارض ان تكون.. والبسفور لا يكاد يرى في الليل.. وعلى بعد خطوات يمتد مرمرة، ويمضي مغرّبا صوب تخوم الدردنيل البعيدة.. اتذكر ما قاله استاذ جامعي رحّال: لقد جبت العالم كله.. من اقصاه حتى اقصاه.. فلم اجد اروع من اسطنبول.. واقول في نفسي والذكريات تتناوشني كما لو كنت في حلم: بوابة العالم.. الدرب الذي اجتازه العثمانيون يوماً في طريقهم الى اوربا.. ها هي ذي اسطنبول اخيراً.

لأول مرة اجيئ اليها.. ما كنت قد رأيتها من قبل.. مدن كثيرة حططت فيها الرحال ليلاً.. لكن هذه.. يبدو انها تريد ان تقول شيئاً ما قالته المدن الاخرى.. احس كما لو انها تقدم وعداً من نوع ما.. لكن الليل يصدها عن ان تقول كل شئ!

في المطار يستقبلنا الاحبة.. لهفتهم للقاء لا تقل عن لهفتنا.. عبر الحواجز الموقوتة تبادلنا المحبة.. بعدها بلحظات كانت الاحضان والتربيت الودود الذي تعلمناه منهم تقول شيئاً كثيراً.. تجتاز حواجز

اللغة، وتحكي عما يعتلج في الاعماق.. بعد عشرة ايام.. عندما سنغادر اسطنبول سيكون التقليد نفسه كلمة الوداع وسنرجع الى ديارنا ونحن نفيض حباً!

في سيارات ثلاث او أربع نجتاز شوارع اسطنبول واحياءها.. احاول بصعوبة التقط المفتاح وان ادخل، فان الشوق يا مدينة الفاتح يعذبني منذ زمن بعيد.. يعرش في روحي.. كأن عمره الف سنة.. والوجد يفيض بي يا اسطنبول.. ولكنه الليل!

حططنا الرحال في فندق (ميم).. بعد يومين سيبدأ المؤتمر الموعود.. وسيكون اللقاء مع فكر النورسي الذي ما كنا نعرف من قبل كم انه يوغل في شرايين اسطنبول، فيعمر العقول والقلوب.. عشاق من شتى المستويات الثقافية والاعمار.. يرحلون معه كل يوم وهو يطوف بهم في الملكوت، فيعلمهم كيف يصير العلم طريقاً الى الله، وكيف يصير الايمان علماً.. يعلمهم ايضاً كيف تتوحد الاشياء، والكتل، والحياة، والسماوات، والسنن، والنواميس، والجبال، والينابيع والشلالات والانهار.. لكي تقول شيئاً واحداً.

ما كنا نعرف ايضاً ان طلابه يتعاملون بمفردات لغة قل نظيرها بين اللغات في عصر التكاثر والتخمة الشيئية والاكتظاظ.. لغة يتشكل كل قاموسها من البذل والعطاء والتضحية والمحبة.. ليس ثمة (انا) على الاطلاق.. انه (الآخر) الذي يومئ فيهرع اليه العاشقون لكي يمنحوه كل شئ!

ولسوف نعرف يا اسطنبول، قبل هذا وذاك ان هذا الدين يعود كرة اخرى لكـي يعـرض كـالـورد والفل والريحـان في أحيـائـك وازقـتك وجوامعك وشـوارعك وساحاتك.. يخضر عوده يستوى عـلى سوقه، وينث العطر على الغـادين والرائحين، مـذكراً اياهم، صباح مساء، ان رسول الله ﷺ هكذا ارادها ان تكون.. حياة مفعمة بالعطر والريحان، مغسولة بـالنسمـة البليلة المتدفـقة من مكان مـا في السمـاوات.. تمسح وهي تمر، كـل الآلام والعـذابات التي يئن منهـا الانـسـان في القـرن العشرين.. تـداوي الجراح التي اثخنته بها حـضارته الكئيبـة الجانحة.. وتعطيـه الامن والتـوحيـد والتـوازن والفـرح.. وهـا هو ذا النورسي في (كلماته) يجئ في الوقت المناسب تماماً لكي يذكر بهذا، فيضع البذار وينتظر الوعد!

(٢)

وأجـدني في اليـوم التـالي قـبالـة السلطان احمد.. وايـا صوفـيـا.. ومخزن المياه الروماني العتيق.. الجامع الكبير وهو يتمحض لله.. وجاره المحمل بتراث القـرون يئن من تداخل الاصوات، التوحيـد النقي الخالص كالبلّور وهو يدافع غبار الشرك والوثنيـة.. والسرداب العتيق ذو الممرات الضيقة والاضـواء الخافتة، وهدير المياه المتدفقة من السـقوف كالشلال، يتوافق مع الاصوات الاوبرالية فينقلك الى التاريخ.

هاهنـا كل شئ ينقلـك الى التـاريخ.. ولكن الجـامع لا يقـف عند هذا.. انه يمضي بك بعـيـداً باتجـاه كل شئ اسـلامي في هذا العـالم.. يذكـرك ويـدعـوك .. يناديك.. وسـواء عليك اسـمـعـت النداء ام لم

تسـمعـه، فانه يمضي بلـغتـه الخاصـة التي نعرفـهـا جمـيعـاً لكي يصعد بالعاشقين الى السماوات العليا.

القبـة الوسطية الفارهة ذات الزخـارف والنقوش والخطوط التي تكاد تسـبح بحمـدالله وهي تتثنى وتتـعاشق وتلتـقي وتفتـرق.. هنا وهناك.. النوافذ العليـا ببلورها الملون الذي يتحدث اليك هو الاخر بـلغة الموشور عندما يتكسـر ضؤوه فيمنحك الاحـمر والازرق والاصفر والبـرتقالي.. القباب الصغـرى وهي تطوف بالقبة الأم وتعينها على ثقلهـا فتمضي به قليـلاً صـوب الاسـفل.. وهي مع وظيـفتـهـا المعـمـارية هذه تمنح حـالة جمالية ما عرفتها جوامع العـالم كله.. ما عرفتها سوى اسطنبول انها في كل مكان هناك تطل عليك بهذا التركيب المدهـش من القباب الصغرى التي تتـحلق حـول الام.. تتدرج وتتـلامع، ويتكور بعـضـها الى جـوار بعض.. لكأنهـا الاكف التي تنحني منـطوية على الخشـوع والتـسليم، ومن بين منحنياتهـا ذات الجلال تبرز بين لحظة واخرى، منارة، تـخترق الفضاء كالسهم ميممة وجهها صوب السـماء.. منائر عديدة تنبثق هنا وهناك.. رفـيعـة.. انيقـة.. مصـعـدة الى فوق.. الاصبع المتفـرد الذي يشير دائماً الى الله الواحد، حيث، بعد التحرر من شد الارض، لا شئ سوى الاحـساس الممتلئ الذي يكاد يلمـس ويرى بانه ليس ثمة الا الله وان لا اله الا هو!

اللحـظة تأخـذ دهشـتي بـالتـلاشي، وادرك تمامـاً، لماذا ظـل ابناء اسطنبـول، وهي تقـف بمواجـهـة اوربا تمامـاً.. ازاء حـضـارتهـا التي لا تعرف الله.. لماذا ظلوا يـحتـفظـون بأيمانهـم بعـمق وعـذوبة مـعـاً.. ان

المفتاح وكلمة السر تبدأ هاهنا.. في الجامع.. واتذكر عبارة گارودى (كل شئ يبدأ في الجامع ويؤول اليه).. كلماته المؤثرة وهو يتحدث عن حجارته التي تكاد تصلي وعن النور الذي ينقلك الي عالم آخر، فيما وراء هذا العالم، مشع في هذا العالم.. اتذكر ايضاً عبارة جاك ريسلر: (في المسجد ينبض قلب الاسلام، وفي ارجائه يحس المرء احساساً حياً انه بحضرة الله. الحق انه لا شئ في المسجد الا البساطة والتجانس والجمال).

والمسلم – كما يحكي فيليب حتي – ما يكاد يدخل الصحن الذي ينكشف للسماء والذي تحيط به الاروقة حتى يجد في نفسه ميلاً شديداً الى الانعتاق من البيئة المادية التي حوله ثم نزوعاً في الوقت نفسه الى السمو نحو الملأ الاعلى. وهذه المئذنة الطويلة الرشيقة اشبه بالاصبع التي تنتصب مشيرة الى السماء. وما في جوف المسجد فان القبة المتلألئة بالمصابيح تبدو وكأنها صورة منقولة عن قبة السماء.. وهؤلاء المصلون حولك، معاً او فرادى، في كل مكان من المسجد يولدون في النفس شعوراً بمشاركة تسع العالم كله.

حقاً، ان هندسة معمارية كهذه هي كما قال اوليغ غرابار يوماً: انها نقل بصري لرؤية العقيدة الاسلامية الكونية!

اعرف ايضاً لماذا ظل الصوت التركي غنياً الى هذا الحد، عذباً مؤثراً، ينطوي في اللحظة الواحدة على عشرين طبقة او تزيد.. بعد ايام سيقدر لي ان اسمع توشيحاً.. ان اذوب وجداً وحزناً في صوت تركي ينشد (شفاعة يا رسول الله).. صوت آخر يخاطب بنبرة عتاب

متشكية، كل الذين لا يقدرون على تحمل مشاعر الصعود الى فوق: «الم اقل لك؟» .. بعد ايام سأكافح وانا اجلس جوار اخ نورسي يقود سيارته في جبال بورصه، لكي امنع دمعة ان تفارق مكانها.

هنا، قبالة السلطان احمد، قبالة ابداعية المعمار المدهش (سنان).. تحت القبة الكبرى تماماً.. ازاء الخطوط والنقوش والزخارف.. في مواجهة البللور ذى الالوان.. في غمرة الفرح الروحي الممتزج حتى آخر جذر فيه بالبهجة الحسية، يريد الانسان ان يصرخ.. ان ينشد ويغني.. ان يرفع صوتاً، لكي يتخفف بعض الشئ من معاناته.. ان يصب قليلاً من الماء على الجمر الذى يتسعّر في اعماقه.

وانت تتذكر محمداً عليه افضل الصلاة والسلام، تجده حاضراً قبالتك وتتذكر معه يوم الهول لا تملك الا ان تتوسل اليه، ان ترفع ازاءه اعذب واعمق وارق صوت في هذا العالم، متشبثاً بأذياله: شفاعة يا رسول الله..

وانا انزف دمعي بصمت في محاولة للتشبث بأذيال رسول الله، كنت ادير بصري في ارجاء الجامع الكبير.. هنا يا اسطنبول كان البدء.. وهنا سيبدأ الرحيل الثاني الى الله.. والعالم.. وكل الاشياء الجميلة التي حدثنا عنها النورسي في كلماته..

والتجوال في ايا صوفيا يورث حزناً.. محاولة يائسه تكافح من اجل ان ينطفئ ألق التوحيد الذي هو اغلى واعمق واثمن ما يملكه المسلم في هذا العالم.. واجتياز بين الممرات الضيقة للحمام الروماني العتيق، يضع

الانسان في دائرة الضيق والاكتئاب.. واريد ان اعود الى السلطان احمد.. اتمنى ان ابقي الساعات الطوال في مسجده الكبير.. هاهنا يستعيد الانسان البهجة والفرح.. يتجاوز كل انماط الكآبة والحزن التي تفرض حصارها القاسي في زحمة القرن العشرين.

ان السلطان احمد.. فيما بعد: محمد الفاتح، والسليمانية، وبايزيد.. وغيرها عشرات الجوامع الكبرى، تقفك قبالة التاريخ، لكنها لا تأسرك فيه.. انها، بقوة العقيدة التي انشأتها وزيّنتها، تمضي بك خارج الحيز المحدود، فتحررك من اسر الزمن والمكان.. خارج دائرة التاريخ تماماً..

في جوامع اسطنبول عرفت تماماً كيف يكون الانسان، في اللحظة الواحدة، في التاريخ وبعيداً عنه، وكيف كان النورسي وهو يتحدث عن الذرات والاشياء، يتحرر من شدها واسرها وينطلق خفيفاً رشيقاً، الى الفضاء اللانهائي وهو يتأبى على مقولات الجغرافيا ونسبيات التاريخ.

(٣)

وهاهوذا البسفور يحتضن مرقد ابى ايوب بحنان.. ثمة لغة يصعب الامساك بحروفها، تتشكل بصمت بين المضيق الهادئ العميق والشهيد القادم من اعماق الصحراء، صارخاً عند بوابات القسطنطينية الغارقة في الشرك.. الضائعة.. التي فقدت هويتها منذ زمن بعيد:

أفتحي!

وهو يدلف الى الشيخوخة، يتسلق الاسوار بخفة مقاتل في العشرين، فيلقى الله هناك! في تاريخ جد مبكر، اراد ابو ايوب الانصارى، وكل المجاهدين الاوائل، ان يفتحوا الابواب، وان يمنحوا القسطنطينية، واوربا من ورائها كلمة التوحيد.

في علم الله وقدره الذي ينسرب في المجاهيل ما كان مكتوب لهم هذا.. فيما بعد.. في عصر سليمان بن عبدالملك، دقت ابواب القسطنطينية مرة اخرى، فلم تفتح.. بعدها بعشرات السنين اوغل الرشيد في الاناضول ميمماً وجهه صوب البوابة الشرقية نفسها.. فلم يكتب له الفوز.. يكفي المسلمين شرفاً انهم حاولوا.. انهم استكملوا الاسباب.. وتركوا الباقي على الله.

ليس ابو ايوب وحده.. عشرات الآلاف من اخوانه واحفاده تساقطوا عند الاسوار ودفنوا هناك. واليوم، قبالة مرقده المتواضع في حضن البسفور، يتوحدون جميعاً.. والانصارى ليس وحده.. سيجيئ محمد الفاتح.. ومعه عشرات الالوف من المجاهدين الاتراك لكي ينضموا اليهم.. يطلبون الشهادة هم الآخرون عند اسوار القسطنطينية.. يدقون ابوابها صارخين كرة اخرى: افتحي.. وسيصير محمد الفاتح ستاراً لقدر الله!

خذها يامحمد.. فلقد آن الاوان..

يدخل الفاتح.. وما ان تطأ قدماه الارض مترجلاً عن فرسه، حتى

يخر ساجداً للّه. ومن ورائه مئات الآلاف من المجاهدين.. بعضهم كان قد استشهد منذ ثمانية قرون.. بعضهم يستشهد اللحظة.. آخرون اقتحموا معه الاسوار!

الآن.. الكل ينهض.. وابو ايوب يربت على كتف الفاتح: بارك الله فيك.. ها انت ذا تمنحني الماء بعد عطش تسعمائة عام او تزيد.. ها انت ذا تبل ريقي.. فبارك الله فيك..

اقف قبالة مرقدك يا ابا ايوب لا أدري ما اقول.. اقرأ الفاتحة.. اتلفت بحثاً عن المزيد ذكريات مترعة بالحزن الكبير تتقاذفني.. اجدني كرة اخرى قبالة التاريخ وهو يتشكل من جديد.. والسؤال المعذب نفسه يهدر في كياني الذي يتداعى الى حد الاعياء.. ينذر بالسؤال نفسه: لماذا؟ لماذا وقد فتح العالم على ايديكم يتراجع الاحفاد، فيدخل عليهم الغرباء الابواب، ويقضم الجراد الاصفر ما زرعوه فما يلبث ان يصير حطاماً.. لماذا يا ابا ايوب؟! لماذا يا محمد الفاتح؟!

صعب ان تعيش التاريخ وهو يتنامى قبالتك.. في دمك واعصابك وذاكرتك.. واصعب منه ان تجد نفسك واهليك وديارك، ازاء كل انتصاراته الكبرى تنزف حزناً والماً وضياعاً.

نصلي في المسجد ثم ما نلبث ان نغادره عائدين.. عن شمالنا كانت تطل بين الحين والحين الاسوار العتيقة، مخترقة شوارع اسطنبول وساحاتها.. نجتاز ثلمة واسعة في السور وندلف الى هناك.

من يجيئ الى اسطنبول، حتم عليه ان يزور مرقد ابي ايوب، وان

يسلم عليه، والا فانه لن يجد اسطنبول.. انه بداية الطريق الطويل الى الفاتح.

وبين الرجلين.. الشهيد المتغرب الآتي من ضمير الصحراء، والشاب الفاتح القادم من اعماق الاناضول، نهضت اسطنبول، شاهدة على انه ما من قوة في الارض يمكن أن تقف في وجه امة عرفت كيف تصير شهادة التوحيد هويتها المتفردة بين الامم والجماعات والشعوب.

(٤)

في المساء دعينا لحضور واحدة من حلقات النور المنبثة في شرايين اسطنبول.. الصالة العليا تزدحم بالمستمعين.. يتحلّقون بشغف حول استاذ يقرأ مقاطع من رسائل النورسي التي لا تكف عن العطاء.. من اعمار شتى جاؤا.. تبدأ بالصبا وتنتهي عند حافات الشيخوخة.. رأيناهم هناك شباباً وكهولاً وشيباً.. تتجه ابصارهم صوب البؤرة نفسها.. يتوحدون قبالة النورسي كما لو كان حاضراً ازاءهم.. والكلمات تمطر عليهم امنا ومحبة ويقيناً وسلاماً.. تمنحهم التين والزيتون والكمثرى.. تضعهم في قلب العالم، وتطلق بهم من هناك صوب الملكوت.. ان قراءة واحدة في احدى رسائل النور تكفي لأن تلبي اشواق الانسان.. لا يريدك ان تنفصل عن العالم، سعيد الجديد هذا.. ولكنه يعطيك في الوقت نفسه الفرصة لأن تطير في الفضاء الكوني بألف جناح.. لا يدفعك الى الفرار من التحديات انما يضعك قبالتها تماماً.. ويعطيك (الكلمة) التي بها تستجيب فتجتاز المجاهيل..

لم نكن نعرف التركية لكننا نقرأ في نظراتهم وهي تلتهم (الكلمات) في شوقهم المتدفق للحاق بالاستاذ.. في صمتهم الذي يكاد يحكي ويقول.. ما الذي يقرأه الاستاذ.. ويكفي ان يكون الاخ (احسان) الى جوارك لكي تكسر حواجز اللغة، فيصل اليك، بقدرته المتمرسة على الترجمة ، ما يريد الآخرون ان يقولوه.. للحظات كنت احس باني اكاد اطير معهم الى هناك.. عابراً بحار الدنيا وجبالها ومتاريسها، مصعداً الى الفضاء الذي تشف فيه الروح وينقدح زناد العقل، ويصير الانسان – هكذا – قبالة الكون، مشاركاً في المصير.

تخترق ذاكرتي ثلة من الذين عاشوا معه ولا يزال بعضهم على قيد الحياة.. احدهم يجلس قريباً مني.. انه الأخ الكبير (م) اتيح له ان يرافق الشيخ في سنيه الأخيرة.. وبعد ثلاثين سنة من رحيله، يظل (م) يتذكر اللحظات التي عاشها مع استاذه.. الزمن الواعد بالعطاء.. ما من فرصة تتاح له حتى يتدفق كلامه عذباً سائغاً كالعسل المصفى وهو يحكي عن (سعيد).. حديثه عنه لا يمل رغم حاجز اللغة.. لم يكن لسانه الذي يتحدث.. كان يفتح قلبه على مصراعيه ويأمره ان يقول.. كنا نلمس هذا في كلماته.. في نظراته المترعة بالشوق لأستاذه الراحل.. بالمحبة والاكبار.. بالعشق الفريد الذي يصعب وصفه.. نظراته التي يلتقي فيها التواضع والكبرياء .. الحزن والفرح.. البراءة والهم الكبير.. الطفولة والشيخوخة.. العفوية والتوتر.. نظراته التي اسرتنا جميعاً والتي احببناه من اجلها..

اي تعلق هذا بالاستاذ؟

لا ادري لماذا كنت اشعر بالحزن وانا انظر اليه.. وهو يدير عينيه بحذر هناوهناك.. كأنه طائر متفرد ارغم على مغادرة عشه والقي به في المجهول.. لكنه بين لحظة واخرى ما يلبث ان يحس بالامان.. وكان يهمني ان اتابع هذا الاحساس.. فحيثما جاء اسم النورسي على لسان احد المتحدثين، حيثما دار الحوار حول هذا الجانب او ذاك من فكره.. كنت اجده يبتسم بهدوء ويخفض رأسه، كما لو انه وجد عشه الضائع، وهو اذ يحس بالامان يتدفق كرة اخرى بذكرياته العذبة عن الشيخ.. لا يرى بأساً أن يجلس عند اقدام المتحدثين ما دام يعرف سلفاً انهم سيفتحون الابواب لكي يدخل بهم الى عالم النورسي السعيد.. فيرتاح..

احببناه كما لم نحب احداً من تلامذة الشيوخ الكبار ومريديهم.. انه مريد من نوع فريد.. زماننا الممحل هذا بأمس الحاجة الى عشرات من مثله.. الى العشق الكبير الذي يتدفق من قلبه تجاه (الاستاذ) فينير الطريق امام السالكين ويمنحهم التعاليم.

قرأت عشرات الكتب ومئاتها ولكنني ما تعلمت منها قدر ما تعلمته من الأخ الكبير (م).. اسأله ونحن في طريقنا الى قرية (كوزلجة) المطلة على (مرمرة) عند حافات اسطنبول الغربية.. هل كان سعيد يمزح؟ وما هو طعامه المفضل؟ وكيف كان يقضي اوقاته خارج دائرة القراءة والكتابة؟

يتحفز قبل اكمال السؤال.. محبته للأستاذ حفرت في ذاكرته كل صغيرة وكبيرة فما من قوة في الارض بقادرة على ان تدفعها الى دائرة

النسيان.. حاضر هو مع استاذه في تفاصيل حياته اليومية ومنحنياتها.. ولك ان تعرف مسبقاً انك ستتلقى الجواب الذي تطمح اليه، بكل دقائقه وخطوطه ومفرداته..

كان سعيد يحب المصارعة.. رياضته المفضلة كانت قبل ان تفترس الهموم الكبيرة صحته وعافيته.. الكل تمكن من الفوز عليهم.. مرة واحدة فقط كاد خصمه ان يتفوق عليه.. فما كان من سعيد الا ان تحسس قبضة خنجره.. استله من مكمنه ووخز به الخصم.. فآثر هذا الانسحاب.. لم يعتد سعيد ان يهزم في حياته.. ان ينكسر لأحد.. هكذا قال الاخ (م) باعتزاز..

العسل المصفى كان طعامه اليومي.. وجبته المفضلة.. يكفي انها تذكره بكتاب اللّه.. بآياته البينات التي تحدثت عن النحل وعن عسله الذي يشفي الناس.. يكفي هذا لكي يقيم الشيخ معه علاقة مودة لم تفارقه حتى اللحظات الاخيرة.

سألت كثيراً وتلقيت كثيراً والأخ (احسان) يمارس مهمته الصعبة سفيراً بين العربية والتركية.. ومن وراء كل سؤال وكل جواب، كان الاخ (م) يفرض على الذين التقوه، ربما لأول مرة حضوراً من نوع غريب يجعله يدخل قلوبهم من غير استئذان، ويعرض هناك..

ومـاذا يقـول المرء عن الآخـرين (الاخ ف والاخ آ والاخ ب..و..و..) ممن وضعوا حياتهم كلها في خدمة الاستاذ والتمكين لفكره في الارض؟ ان تفوّقهم المدهش يبدو هاهنا: القدرة على التجرد

الانسان.. والله.. والكائنات.. هذا الذي تحدث عنه النورسي فأطال الحديث..

ما يلبث المصعد ان يحملنا الى الدور الاخير لأداء الصلاة وشرب الشاي.. صالة فارهة تطلق على مساحات واسعة من اسطنبول.. شمس الخريف تخترق زجاجها الواسع بهدوء.. والخرائط الكبيرة المعلقة على الجدران تضع العالم بين يديك..

ها نحن قبالة اسطنبول.. والشمس.. والعالم.. اية صلاة هذه التي تؤدى هنا؟ واي توافق بين الظواهر والاشياء؟.. كانت المحبة تعمر قلوبنا.. من العراق جئنا.. ومن مصر.. وتركيا.. واوربا.. نتحدث بألفة كما لو كان احدنا يعرف الآخرين منذ مئات السنين.. نصلي سوية فنزداد توحداً وانسجاماً.. الحياة الاسلامية – اخاطب نفسي – تتفوق على حياة الآخرين.. كأننا في مضمار العاب الساحة والميدان.. والمسلمون يهرعون الى خط النهاية، وقد خلفوا وراءهم.. وراءهم بمسافات متطاولة كل العدائين..

اقول لأخي (عاشور..) الذي يدخل قلوب الذين يعرفونه جيداً بغير استئذان: انظر.. انه مكان مناسب تماماً لأداء الصلاة.. ان الاخوة الاتراك يعرفون تماماً، بتمرّسهم على التعامل الجمالي مع الظواهر والاشياء، كيف يختان الموقع المناسب تماماً..

الاخ (.. بهجت) كان يحكي عن كتابه الذي لقى رواجاً كبيراً (قصص الحيوان في القرآن الكريم) وأسأله عن مؤلفاته الاخرى فيقول

انها ليست كهذا الكتاب الذي جاوزت طبعاته العشرين.. انه يغريني بتجاوز حاجز الادب واستجداء نسخة منه يرسلها على عنواني بالبريد.. فيستجيب الرجل مسروراً..

ترى هل سيصلني الكتاب؟!

ويدور الشاي ومع الشاي حديث عن الصوت التركي العذب ذي الطبقات الغنية والقدرة العجيبية على التعبير المؤثر العميق.. وثمة اخوان نورسيان كانا يجلسان قبالتنا، اخذا يدندنان بموشح عذب.. للحظات احسست انني اكاد اذوب وجداً.. كما في كل مرة سمعت فيها صوتاً تركياً.. وتمنيت لو انهما يستمران ولو ان عقارب الساعة تتكسر – كما يقول الادباء الطليعيون – ولا يتبقى ثمة خارج نطاق الزمن والمكان، سوى الصوت الذي ينقل بنبراته المتوجعة الشاكية عشق الله.. والرسول.. وكل القيم والموجودات والاشياء الجميلة في هذا العالم. الوجع الكبير هاهنا.. في الصوت.. وهو قدير على ان ينقلك الى اللامتناهي.. يحرّرك من اسر المحدود.. ومن كل ما يعذبك في هذه الدنيا.. يشفّك وجداً وحزناً يصعب وصفهما.. ويجعلك تطير الى السماوات بأجنحة لا تدرى من اين؟

الوجع الكبير هو هذا.. ولسوف اظل اذكر الموشح التركي كأعذب صوت سمعته في حياتي واكثرها تشكيا ووجداً..

(٦)

نغادر المدرسة في طريقنا الى الجانب الآخر من اسطنبول.. الجانب

الآسيوي.. نجتاز جسر البسفور الطويل، ونصعّد في المرتفعات.. المدرسة الاخرى التي نيمّم وجوهنا اليها هي في اعلى نقطة هناك.. موقع يطل على اسطنبول كلها ويضعها والبحار التي تتخاصر معها بين يديك.. السيارات نفسها اخذت تئن من عنف الصعود.. والاخ الدكتور (شلبي) يفضل النزول والتوجه الى المدرسة مشياً على الاقدام، على ان يقع المحذور فلا يتاح لزوجته ان تراه مرة أخرى!

رائع هذا الرجل.. انه في لحظات الجد يستطيع ان يبكيك .. ثم ما يلبث ان يخترق جدار الحزن، على حين غفلة، لكي يطرح تعليقاً او يحكي نادرة مما سمعه او وقع له، فيرغمك على ان تضحك.. اليس هو الذي فك لغز الاخوين بهجت وعاشور اذ رآهما يتهالكان على شراء هدايا لزوجتيهما من الملابس الجلدية بالشعار الذي ازال كل غموض (الجلد اوالجَلْد).. بينما هو، ازاء الحاح اشد عنفاً من زوجته يختاره شعاراً آخر.. على التقيض تماماً : (النصر او القبر)!.

ندلف الى المدرسة يتلقانا مديرها الشاب الذي يتقد حيوية ونشاطاً .. يقودنا الى غرفة الادارة المطلة على الوادي.. انها مدرسة العلوم الشرعية – يقول – تتلقى الطلبةمن مختلف البقاع والاعمار فتعلمهم القرآن والعربية وعلوماً اسلامية اخرى، لكي ما يلبثوا انيعودوا الى ديارهم وقد زودوا بما يمكنهم من اداء مهماتهم هناك.. بعضهم من تركيا نفسها وبعضهم الآخر من بلدان آسيا المتناثرة في فجاج الارض.. التقينا المنغولي والتركستاني والاذربيجاني والداغستاني والتركي.. وكان بيننا العراقي والمصري والانكليزي والالماني.. ها هي ذي الامية

الاسلامية التي تجمع احفاد هولاكو الى احفاد الفاتح وابي ايوب في وحدة تنصهر فيها كل حواجز الجغرافيا والتاريخ ولا يتبقى ثمة سوى العقيدة التي نسجت المظلة الكبرى في هذا العالم.. مظلة (لا اله الا اللّه).. المظلة الوحيدة الباقية، المنفسحة، القديرة على مجابهة الأعاصير، حيث تمزقت وتتمزق قبالة اعيننا في كل يوم خيام ومظلات صنعها واقامها اناس ما كان بمقدورهم مطاولة تحديات التفكك والتلاشي والفناء.. لأنهم ما عرفوا اللّه.

ثمة شاب جركسي يرتل آيات من القرآن بصوت عذب قدير على التعبير.. لكأنه يعرف العربية منذ يوم ميلاده.. اي سر هذا في الذين يتعاملون مع كتاب اللّه؟

ويطلب الدكتور (شلبي) من شاب منغولي ان يرتل قليلاً.. يرغمك هذا على ان تتذكر هولاكو، وسقوط الخلافة العباسية، وضياع بغداد.. وان تقارن بين مافعله الاجداد وما يتوق اليه الاحفاد المتحدرون من الصلب نفسه، بقوة هذا الدين وسره المعجز..

يرتل المنغولي بعربية فصيحة ونحن نهمهم: سبحان اللّه، ونمعن النظر فيه بأعجاب.. ويقول المدير الشاب: يعود هؤلاء الى ديارهم لكي يقوموا بأنفسهم بتعليم ابناء شعبهم المتغرّب، المنفي في الابعاد.. شيئاً عن كتاب الله وتعاليم رسوله عليه السلام.. بعدهم نجيئ وجبة أخرى.. ويسأله شلبي: هل انت متزوج؟ يجيب المنغولي الذي كان يبدو كما لو انه لم يتجاوز العشرين من عمره: نعم!

– وهل لديك اطفال؟

– اثناعشر!

– (يا ابن الجنّية)!

لم يدرك المنغـولي نكتـه شلبـي.. لم يدرك ايضـا سـبب ضـحكنا العميق..

بعد لحظات، جاء ثلاثة اطفال في عمر الزهور.. من اصقاع شتى.. وراحـوا ينشدون (طلع البـدر علينا).. لسـت ادري وانا انصت اليـهم لماذا تذكـرت، فجـأة، النصل الحـاد الذي يختـرق جـسدنا في البـوسنة والهرسك هذه اللحظة.. لست ادري لماذا تذكرت كل احزان المسلمين في العـالم.. القـتل.. والذبح.. والجـوع.. والتـغرّب.. والحـصـار.. والعطش؟! لأن احد الاطـفال – ربما – كان بوسنوياً جـيئ به من هناك بعد ان ذبح ابوه وامـه واخوته لكي يحـتضنه الملجـأ؟ ام لأننا جميـعاً.. مـسلمي القـرن العـشرين، نـعـاني من القـتل، والحـصـار، والجـوع، والعطش.. من التـغـرب الذي حـدثنا عنه مـعلمـنا العظيم عليـه افـضل الصلاة والسلام؟

كـافـحـت من اجل الابقـاء على دمـعـتين اطلتـا من عـيني، في مكمنهـمـا.. لم اسـتطع في نهـاية الامر، وانـا انصت للطفل البـوسنوي الذي قطع من شجـرته المتيبسة، هـناك في سراييفوا، وجيـئ به وحيداً، غـريباً، لكي ينشـد في مدرسـة تركـية نائيـة، بعفـوية وصدق وعـذوبة (طلع البدر علينا؟) اي قلب ييملك ذرة من ايمان، بمقدوره ان يحبس

دموعه عن الانطلاق؟!

والتفت الى اخوة الرحلة، فمن عجب ان اراهم يبكون بصمت هم الآخرون.. اتراهم كانوا يتذكرون الشئ نفسه؟

وشلبي الذي اضحكنا قبل لحظات، ها هو الآن ينزل عن كرسيه يجلس على الارض ثم يزحف قليلاً صوب الطفل فيحتضنه ويقبله.. كان شلبي يبكي هو الآخر.. وتذكرت – لست ادري لماذا – كيف ان دموعنا هذه ، قد تكون – رغم عجزنا وقصورنا – جواز سفرنا الى رسول اللّه.. وسيلتنا في ان نقف قبالته يوم الحساب الكبير، فنصرخ مستغيثين: (شفاعة يا رسول اللّه).

النصل حاد.. وهو يغوص في لحمنا حتى العظم.. ويزيدنا عذاباً اننا نرى المذبحة قبالتنا.. فلا نستطيع ان نفعل شيئاً..

في يوم ما.. موغل في التاريخ، زرع العثمانيون الاسلام في اعماق اوربا، قريباً من حافاتها الغربية.. وعندما ما سقطت الخلافة تداعى الصليبيون الجدد لواحدة من ابشع عمليات التصفية العقيدية في التاريخ البشري.. مجزرة اخرى كتلك التي شهدتها الاندلس على يد الكنيسة والسلطة ومحاكم التحقيق.

والآن فان البوسنة والهرسك تتعرضان للسكين نفسها.. ان الغربيين لا يريدون ان يكون في اوربا موطئ قدم لهذا الدين لأنهم يعرفونه جيداً.. عقيدة انتشارية حركية ترفض السكون.. تتأبى على الاسر في الحيّز.. تتحرر من مقولات الجغرافيا والتاريخ وتنطلق لكي تعرّش في

الآفاق.. يدركـون هذا جيداً، لذا فـانهم قد يختلفون في كل شئ الا في هذه.. ولكن – اقول في نفسي متصبراً – ان للبيت رباً يحيمه.

ولقد ظل هذا البيت على تقـلّبات التحديات والاحداث قائماً ففلاً – بارادة الله – حيث تداعت بيوت الآخرين وصارت حطاماً..

نغـادر المدرسة لـكي نقف لحظات عند القـمة الخضـراء المطلة على اسطنبول الاوربية.. والجسر. والبسفور..

واحـدة من اجـمـل بقـاع الارض، وتزيدها لحظات الـغـروب الواني روعة وجـلالاً.. كان قرص الشـمس الذي اصبح الآن برتقـالياً موشـحاً بخطوط حـمـراء بلون الدم، ينـحـدر بهـدؤ خلف البـحـر.. خلف الهضاب الغـربية.. وراء العالـم.. لكي ينغرز في مكان مـا عند حافات اسطنبول.. مانحاً الارض والبحر، والروابي، والاشجار تلويحة الوداع، حيث كـانت تتلامع عن بعد، كالعـادة، مئـآت القبـاب والمنائر التركـية ذات التكوين المعـماري المدهش، متـجذّرة في الارض، شـاخصـة الى السـمـاء.. شاهدة عـلى انه ما من قـوة في الارض قـادرة على ان تجـرد اسطنبول عن وجهها الاسلامي الاصيل.

هنا ، وفي كل مكـان من العـالم، تتكور القـبـاب وترتفـع المنائد الى فوق لكي تقول الشئ نفـسه.. لكن هذه.. هذه التي ترفع الخطاب الى اوربا النصـرانيـة.. هذه التي تتـمـحّض بالنداء لله الواحـد قبـالة الشرك والتـثليث.. هذه التي تحرس وتحـمي اسـلامـية اسطنـبول من ان تصـير اندلساً ثانية.. هذه مسألة أخرى.. من ثم فان ايقاعها المتوافق في فضاء

اسطنبول الذي يستقبل الليل عند الحواشي البعيدة.. فيلتمع بالضوء.. والوعد.. يقول اشياء اكثر بكثير من كل ما تقوله المنائر المبثوثة في الاصقاع النائية من عالم الاسلام.

(٧)

كان يوم افتتاح (المؤتمر) مشهوداً..

ونحن ندلف الى قاعة (مصطفى كمال) في قلب اسطنبول، كنا نشق طريقنا بصعوبة وسط حشود كبيرة من المشاركين كانت تملأ الشوارع الفرعية وتزدحم بها الصالات والممرات المفضية الى القاعة، والتي نصبت فيها اجهزة التلفاز لنقل الوقائع بالصوت والصورة معاً..

القاعة الكبري نفسها، بادوارها كافة، كانت قد غصت بالحضور..

في يوم ليس ببعيد، كان المشاركون في المناسبات الاسلامية، والدينية، لا يتجاوزون العشرات عدداً.. وكان معظمهم يدلف الى الستين او السبعين من العمر. اولئك الذين ظلوا – على تقلبات الزمن – اوفياء لذكرى هذا الدين الذي جعل للأمة التركية مكاناً في العالمين.. بعدهم، وعلى حين غفلة وكالانكسارات الحادة التي تؤول اليها فجأة حافات الجبال العليا.. يجد الانسان نفسه قبالة فراغ مخيف.. جيل الشباب يدير ظهره لما اعتبره ماضياً غير جدير بالالتفات، وييمّم وجهه صوب الغرب.. ما كان احد منهم – بقوة الايحاء اليومي المكثف والمتواصل – يقدر على ان يفصل، او يتصور على الاقل، ان بالامكان فك الارتباط بين عقيدة الاسلام الحركية

الحية، برؤيتها المستقبلية، وقدرتها على التجدد والانبعاث.. وبين التاريخ.

اذا كان سلاطين آل عثمان قد مضوا، فان الاسلام نفسه مضى معهم.. هذه الرؤية المسطّحة للظاهرة الاسلامية التي اريد لها إن تمر الى عقول الاجيال التالية وان تتموضع فيها..

اما الآن.. فما الذي حدث؟

قاعة (مصطفى كمال) وهي تغص بالجيل الشاب نفسه الذي يعود الى الطريق كما يعود الابن الضال الى امه وابيه.. انهم يجدون انفسهم في مكانهم تماماً.. في الحضن الدافئ.. في الوعد المبشر بحياة سعيدة في هذه الدنيا وفي الأبدية.

بعد رحلة تغرب معذبة دامت خمسين عاماً .. ها هم الآن يرجعون.. انظر على عجل – قبل ان اجلس – فتقرّ عيني.. واحدة من اسعد اللحظات في حياتي.. يخفق قلبي كطائر يريد ان يصفق وان ينطلق.. ولكن الى اين؟

اتمتم بيني وبين نفسي: الحمدلله.. واقول لجاري الأخ (اديب): انظر! انهم لا يجدون موطئ قدم! فيرد مشبعاً باليقين: الم اقل لك؟!

عندما كنت في بلدي، ولسنوات طويلة، ربما تتجاوز الاربعين عاماً، كنت اسمع عن تيار شاب يشق طريقه في الاناضول.. ما كنت بقادر على ان اتخيّل حجم التيار.. وان اسبر غوره.. اللحظة ارى.. اسمع.. واسبر.. فتقرّ عيني..

وتتوالى الكلمات.. اضاءات مكثفة لجوانب من المسيرة التي قطعها الاستاذ عبر رحلته المضنية الطويلة.. كان يطلقها من على المنصة، بمواجهة التلامذة تماماً.. قبالتهم.. متحدّثون من شتى البلدان: من امريكا والمانيا وايطاليا ومصر وتركيا.. والعراق..

والآن يجيئ دوري..

ما الذي يستطيع المرء ان يقوله في خمس دقائق عن رجل ما استطاع ان يقول كل ما عنده عبر خمسين عاماً. .ومائة وثلاثين مكتوباً؟!

وللحظات.. عرفت كيف يخرج الانسان من المأزق.. ان يتعامل مع المفاتيح.. مع نقاط الارتكاز في فكر الاستاذ.. ما الذي اراد ان يقوله بصوت عال، وكيف جابه العالم والظواهر والاشياء والتحدّيات..

كنت كمن يعاني من العطش ويحظى بجرعة ماء لا تكاد تروى ظمأه وتبل ريقه.. لست في موضع المحاكمات العقلية، قلت في نفسي، فهذه موعدها المؤتمر نفسه، اما الآن، فان اللحظة المدهشة تتطلب شيئاً آخر.. شيئاً مغايراً تماماً.. ان تنتزع من قلبك الذي يخفق بالحزن والمحبة.. بالعذاب والسعادة.. بالمرارة والعذوبة.. كلمات قد تمتص شيئاً من العناء.. وقد تصل بينك وبين الجمهور فتكهربه، وبذا تفتح الطريق للتيار المحتبس، فيتسرّب الى الكل الذي يصير الآن واحداً، ولأنه كذلك فانه قدير على تلقي السيال والامساك بالكهرباء..

يا سعيد النورسي.. رفعت ندائي.. يا بديع الزمان.. ايها المعلم

والشيخ والاستاذ.. قم!.. قم لترى ما الذي صنعته يداك.. البذار الذي غرسته يشق الارض وينهض مستوياً على سوقه.. يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار.. قم لترى العالم الذي تحدثت عنه طويلاً.. قلعة الالحاد الفكري في الشرق وهي تتهاوى فتصير حطاماً.. وقلعة الفساد الخلقي في الغرب يأكله الايدز، والمورفين.. قم لترى تلامذتك يملأون السهل والجبل.. تغص بهم الطرقات والساحات.. ويملأون مقاعد الدراسة والجامعات.. ويكفيك شرقاً ايها الاستاذ ان تغادر الدنيا والشموع التي اوقدتها في حلكة العالم، لا تزال تشتعل لكي تضئ الطريق للمدلجين في الظلمات..

ونحن نغادر القاعة يتقدم اليّ بعض الشباب مستائلين بعتاب: ماذا فعلت؟ اجفل بعض الشئ.. ولكن احدهم ما يلبث ان يقول: لقد جعلتنا نبكي: فأقول له: انه على اية حال الثمن الذي يتحتم علينا جميعاً ان ندفعه.. فليس في مقدور احد ان يتحمل لمفرده، هذا كله!.

في دار ضيافة (السليمانية) تحلّقنا حول المناضد جماعات جماعات.. تناولنا طعام العشاء.. وجرّتنا الاحاديث الى كل مكان.. ونودي على المشاركين واحداً واحداً، يتسلّم احدنا شعار المؤتمر المنقوش بعناية على النحاس الاصفر.. يلقي كلمة شكر وتقدير ثم ما يلبث ان يرجع لكي يفسح الطريق للذي سيليه. ما يلفت الانتباه ان كلاً منا تسلم شعاراً يحمل اسمه بالذات بابتسامة عذبة مع الأخ الدكتور (فارس قايا) مدير مؤسسة الثقافة والعلوم التي نظمت المؤتمر.

مؤتمرات عديدة شاركتُ فيها، كنا نتسلم شعارها الذي يحفر على

نحاسة عنوان المؤتمر وزمنه، ومكانه.. اما هنا فان اسماء المشاركين انفسهم حفرت على النحاس، جنباً الى جنب مع العنوان والزمن والمكان.. قلت وانا اتسلّم الشعار فتقع عيني على هذه الخصوصية التي يعرف الاخوة في تركيا كيف يعطونها المساحة التي تستحقها: هذه اغلى هدية اتسلمها في حياتي.. وانا بالتالي اعجز عن الشكر! تخونني الكلمات!

دفق المحبة النورسية يغمر المكان.. وثمة نسمات مترعة ببرد الليل القادم تلفح الوجوه بحنان، وموشح تركي يتدفق كالشلال من مكان ما في الدار.. ما الذي بمقدور المرء ان يفعله سوى ان يرتشف لحظات الوفاق الفريد بين الروح والحس والوجدان.. لحظة لحظة.. متخففاً من كل صنوف المعاناة والعذاب.. متحرّراً من كل صيغ التعاسة التي تكاد تغرق الانسان في عالم الفصام النكد بين نداءات الحياة الدنيا واشواق الروح!

(٨)

عذبة رائعة كانت الرحلة الى (بورصة) ليس فقط لأننا اوغلنا اكثر فاكثر في جبال تركيا وبحارها واشجارها وعيونها وروابيها الخضراء، فعقدنا معها، كما فعل (الاستاذ) من قبل، علاقة مودة حميمة لن تفلت من الذاكرة، وصرنا جميعاً اصدقاء للنهر والبحر والشجر والنبع والشلال.. بل لأن الاخوة النورسيين انفسهم الذين جاؤا معنا الى (بورصة) او الذين استقبلونا هناك واصطحبونا ليومين كانوا كالاشجار والعيون والجبال والبحار والانهار، يعلّمونك كيف تتوافق مع نفسك..

مع الاخرين.. مع كل شئ من حولك..

يبدو لي ان (الوفاق) هذا، هو اغلى ما في الوجود، وان (الاسلام) الذي يشتق اسمه ويرسمه من هذا المعنى العزيز نفسه، انما يريد ان يمنحنا هذه الهبة القيمة التي لا تقدر بثمن.. وان الرسول المعلم عليه افضل الصلاة والسلام، ما كان يريد في نهاية عمر حافل بصنوف المشقّة والمرارة والعطاء سوى ان يضع امته، والبشرية كلها، في نهاية الامر، على الطريق الصحيح، منهياً عصر السبل المتفرقة، المعذبة، التي استنزفت الانسان وما تزال!

البداية كانت في حدائق (امركان) عند ضواحي اسطنبول.. كان الصباح مشرقاً جميلاً.. فوجئت وانا ادلف الى المكان انه يضم جناحيه على حشود من الاشجار البرية العالية وان كل واحدة منها تختلف عن الاخريات.. مهرجان مثير لأبداعية الله جل في علاه..

اشجار متفردة، مهندسة بعناية: الاوراق والاغصان والجذوع والالوان السخية المنتشرة عند حافاتها بغير حساب.. بعضها.. كثير منها.. اراه لأول مرة.. لم اجد شبيهاً له في بلدي، او اي مكان آخر من العالم.. في المسافات بين شجرة واخرى كانت يد الانسان قد تدخلت لكي ترتب الحلقات والسنادين المترعة بالازهار، والتي تضفي بعروضها اللونية السخية.. بعبقها الذي يتصاعد مع تصاعد دفء الشمس.. على (امركان) نهكته عذبة لا يتسنى نسيانها بسهولة.

تناولنا الفطور والتقطنا صوراً تذكارية.. ثم ما لبثنا ان عبرنا جسر

البسفور الطويل صوب الضفة الاخرى.. بعد نصف ساعة كنا ندلف الى احد المراكب لكي يجتاز بنا جانباً من « مرمرة » مختصراً الطريق الطويل.. حافات البحر الشرقية تلوح للمسافرين بقراها الانيقة وخضرتها الواعدة، اما الحافات الغربية فتصعب رؤيتها، حيث يمضي البحر بعيداً باتجاه الغرب.

صلّينا الظهر في مسجد انيق، ثم انطلقنا بالسيارات صوب (بورصة).. وصلناها عصراً.. مدينة كبيرة مترامية الاطراف.. لم يكفها ان تلتهم السهل الشرقي حتى مضت غرباً لكي تتسلق التلال والمرتفعات المطلة عليها.. ودائماً يصير الجامع، الموغل في ذكريات العقيدة والتاريخ، المتشكل على يد السلاطين الكبار الذين يحلمون بفتح اوربا ومواصلة الطريق الذي بدأه معاوية وسليمان وهارون الرشيد.. دائماً يكون الجامع هو مركز الثقل في معمار المدن التركية ونقطة الجذب والطرد فيها.. اشار أحد الاخوة ونحن نجتاز المدينة، الى بعض هذه الجوامع: عثمان.. اورخان.. وبايزيد.. تثوى اجسادهم هناك ومن حواليهم اجداث الابناء والاحفاد.. لكأنهم ارادوا ان يبداؤا من الجامع وينتهوا اليه.. متشبّثين في حياتهم ومماتهم بالمكان الذي جعلهم سادة على العالمين.. ومن اجل ان يكونوا اوفياء، جعلوا منطلقهم الى العالم من الجامع، ثم عاد كل واحد منهم، بعد عمر طويل من الجهاد الدامي لكي يثوى هناك!

تذكّرني القبور المزدحمة للابناء والاحفاد.. والمتحلّقة حول قبور الاباء والاجداد، بلوحة سريالية، لا ادري لماذا.. ربما لأنني وجدت

نفسي، بشكل من الاشكال، في حالة حلم من نوع ما.. حلم يتأبّى على التحليل المنطقي ويستعصي على الاسباب!.

(٩)

في صبيحة اليوم التالي نركب (التلفريك) الذي يصعد بنا على السلك الرفيع صوب الاعالي.. ثمة خوف من المرتفعات الشاهقة قادم الي من مغامرة خطرة زمن الطفولة، يجعلني اتشبّث، اكثر فأكثر، بحافة المركبة وهي تئز بثقلها ميممة صوب القمة التالية.. يقول لي احد الاخوة: انظر انها لوحة رائعة.

على مضض احدق الى اسفل.. الوادي العميق اصبح اكثر نأياً، وقعره البعيد لم يعد يرى.. والشئ الذي يسرق النظر، كما يقول الفنانون.. الشئ الذي يضيع معه التوجّس والخوف، هو رؤية اوراق الاشجار الكثيفة من فوق.

برؤية طائر، كما يقول الفنانون ايضاً، اطل على الغور البعيد.. مهرجان لوني لعالم جميل يدلف الى الخريف.. يتداخل في اوراقه الكثيفة وعلى صفحاتها المتشبثة بالبقاء كل ما يعرفه الانسان من درجات لونية تبدأ بالابيض وتنتهي الى الاخضر العميق، مجتازة الاصفر والبرتقالي والناري والاحمر والبني بتداخل مدهش تغيب فيه الفواصل والحدود.

نصعد الى قمة اكثر ارتفاعاً في (تلفريك) اخر.. نغادره بعد قليل.. قمة مستوية تمتد فيها المساحات.. هاهنا ايضاً لا يحار المسلم

اين يصلي.. المسجد الانيق، الذي يتلقى لمساته الأخيرة، يناديك.

اقول للأخوة دهشاً: الدين والدنيا.. اشير الى الجامع الانيق القريب من السماء، والى الارض المفروشة بالزهور والحشائش البرية.. الى الاشجار المتناثرة على غير انتظام، والى العوائل السعيدة.. والاطفال.. والصبيان وهم يتقافزون هنا وهناك.. وثمة روائح الشواء التي تفغم الانوف وتثير الشهية ترتفع من مناقل الفحم المشتعل، والمبعثرة في كل مكان..

بورصة. . واسطنبول قبلها.. علمتنا اشياء كثيرة.. هاهنا، اللحظة اجدني في حالة من الوفاق النقي كالبللور.. الوفاق الذي لا يكدره شئ بين افراح الروح وتوقها للصعود اكثر فأكثر الى فوق.. وبين نداءات الحس التي تجد في القمة العالية القريبة من السماء.. في الخضرة الواعدة.. في الاشجار الينابيع.. في الشمس الوانية والسحب المبعثرة التي تمتص اشعتها بشغف.. في القمم المغطّاة بالثلج.. في الناس.. والحركة.. وبريق الاشياء.. تجد نفسها تماماً فتلتحم بالوجد اكثر فاكثر.. تتعاشق معه، وتصير واياه شيئاً واحداً..

يختار الاخوة مكاناً جميلاً نتحلق فيه على المنضدة التي صفت عليها بعناية اطباق التين والزيتون.. الى قريب منا جيئ بمنقل كبير اشعلت فيه النار.. بعد لحظات كانت رائحة الشواء تختلط بعطر الارض الرطبة، والازهار البرية واوراق الشجر المتساقطة بهدوء.

يريدون، كعادتهم دائماً، وكما علمهم رسول الله عليه السلام ان

يقـول احـدنا شـيئـاً قـبالـة نعـمة الله، ونـحن نوشك على الانتـهـاء من غدائنا.. كـان شلبي واصحابه، قـد رحلوا قبل يومين عـائدين.. يجيئ الدور عليّ هذه المرة، فلا أجد اعذب واجـمل مما كان يقول رسول الله ﷺ إثر كل طعـام مـخاطبـاً المضـيّفين: (اكل طعـامكم الابرار وصلّت عليكم الملائكـة وذكركم الله فيـمن عنده..) دائمـاً ومن خـلال اشـد الممارسات كثـافة وحسية، كان النبي المعلم يذكـرنا كيف تكون المفردة اليومـية.. الملذة المتـوافقـة مع الخلق والتكوين وطبـائع الاشياء.. طـريقاً للصعـود الى فوق.. ليس ثمـة اي تناقض او ارتطام.. الهسـيس القاسي في اعماق النفس البشرية المعذبة، الممزقة، لا تجده هنا.. بينما تصير متع الحس في الاديان المحرفـة خروجاً على النامـوس، فيتـألم الانسان ويوغل في شرايينه الاحساس الآثم بالخطيئة.

هنا.. الدين السمح المتوافق مع كل شئ جميل ممتع عذب في هذا العالم، يقول شيئاً اخر.. يعطي شيئاً آخر.. هاهنا، قبالة المائدة نفسها، تصلّي الملائكة، ويذكر اللّه جل فـي علاه عند الملأ الاعلى، كل اولئك الذين شبعوا، فحمدوا اللّه!

لست ادري ان كـان قـد انتـاب الآخـرين الاحسـاس نفـسـه الذي يمسك بخناقي بين الحين والحين فيعذبني.. هذا التناقض الحـاد بين ما اراد الاسـلام وبين ما تمارسـه كل الاديان المحـرّفة والمذاهب الاخـرى.. هذا التقابل بين الوفاق والتبعثر، بين الانسجام والارتطام.. بين ما يجب ان يكون ومـا هو كـائـن.. يتـشكل في نقطة مـا مـن وجـدان المؤمنين، صوتاً مـعذباً يئزّ في الاعمـاق ثم ما يلبث ان يدّوم مـصعـداً الى فوق،

متحولاً الى صرخة مكبوتة تريد ان تغادر الأسر، ان ترفع شكواها قبالة الكون والعالم والوجود، مذيبة كل عذاباتها، وتمنياتها، في تساؤل طويل مديد: لماذا؟

ينحدر بنا (التلفريك) الى بورصة كرة اخرى.. كنا على موعد معها.. هكذا تبين لي فيما بعد.. فعندما تصير في العنفوان، تنسى بدايات الاشياء ونهاياتها.. تنسى – حتى – المواعيد المضروبة في وقت ما بينك وبين المدن التي احببتها..

اما الان.. اللحظة.. فان السيارات تصعد بنا الى شرايين بورصة الغربية موغلة في المرتفعات، متعرجة متماوجة.. تغيّبك حيناً عن السهل الفسيح الممتد الى ما لا نهاية.. ملاحقاً مشرق الشمس.. ثم ما تلبث ان تطل ثانية على المدى المفروش قبالتك تماماً: بالبيوت والاسواق، والشوارع والناس..

سيارات اخرى كثيرة كانت تصعد هناك.. في الأصيل.. حيث يوم العطلة الذي ينطلق فيه الناس ليروا ويسمعوا ويذوقوا.. لكنها جميعاً لم تكن كسيارتنا.. سيارة الاخ (س) عضو مجلس الشعب في بورصة.. كنت اجلس الى جواره وهو يقود سيارته.. والى الخلف جلس الاخ محمد رشدي.. مكتوب عليه ان يذوب مثلي في الصوت التركي المنبعث من جهاز التسجيل.. شفاعة يا رسول اللّه.. كرة اخرى.. الأخ (س) يعرف ماذا يختار.. اكاد وانا انصت اليها انطوى على عذابات الدنيا.. على تشرّد المسلم وغربته في هذا العالم.. تمنحني وهي تتدفق عذوبة يصعب نقلها للاخرين.. يستعصي وصفها على الكلمات.. لا

تجيئ من قوانين الفيزياء. ومعادلات السلّم الموسيقي.. انها هناك تتدفق من فوق.. من مكان ما لا ادري اين تتشكل بداياته القصية واين تنبجس ينابيعه الاولى.. افي الروح الموغلة في المجاهيل أم في السماوات القصية.. اتذكر من يتوجسون خيفة من الموسيقى.. اعرف تماماً لماذا.. انها في الحالات الاعتيادية تفصلهم عن دفق الايمان.. عن لحنه الباطني المتفرد الذي يرفض ان يشاركه صوت اخر.. عن التوافق العفوي مع السنن والنواميس والاشياء.. وتدخل.. كشيئ نشاز بينهم وبين العالم، لذلك هم يخشونها، ولعلهم ايضاً - يحرّمونها، وهم في هذا محقون..

اما هنا، فان الأمر يختلف، ان الموسيقى نفسها تصير نداءاً يضعك في قلب التوافق بين الظواهر والاقطاب.. تمنحك مكاناً يعلو على الاشياء العابرة المنصرمة.. تسلمك مفاتيح الطريق الى الكون، حيث ينصهر كل شئ في هذا الوجود في ايقاع متوحّد.. في نبض يخفق بايمان من نوع صاف كالبللور.. يشع بالحزن والفرح.. بالمحبة والثورة.. بالعطش والارتواء.. وبكل الثنائيات التي تنسجم هاهنا، وتتناغم لكي ما تلبث ان تخرج صوتاً عذباً متوحّداً ينطوي على كل النداءات المستفزة للوجدان الايماني في هذا العالم.

والشريط يدور.. والصوت العذب ينادى الله الواحد جل في علاه.. والسيارة تمضي مصعدة، مجتازة الطرق المتعرجة والمنحنيات الصعبة.. تقف لدقائق عند شجرة حور عمرها مئات السنين.. جذعها الهائل يغور في طبقات الارض، واغصانها المتعرّجة الممتدة بعيداً..

بعيداً جداً.. تغطي مساحة واسعة من الفضاء فلا تنكسر ولا تميل.. معجزة الخلق هذه الشجرة، نتعلم منها كيف يكون التوازن العجيب وكيف تمضي السدم والنجوم في رحيلها الكوني دون ان تقع احداها على الاخرى..

ما كنت ادري ان كان (محمد رشدي) يكافح الدموع بصمت مثلي.. فانا اعرفه جيداً لا يطيق الصبر.. وهو كلما سمع تأوّه الناي، صرخ: انه يحترق.. ولكنني استطيع ان اجزم اننا سوية ازاء النداء الملتاع للصوت وهو يدوّم مصعّداً باتجاه نقطة ما في الملكوت.. صارخاً: شفاعة يا رسول اللّه.. اجزم انه كان يبكي – وبصمت – مثلي..

للحظات خشيت ان يراني الاخ (س).. ولقد رآني فعلاً.. ولكني اقول في نفسي: لا بأس فهو الآخر يعرف جيداً.. هو الآخر اكتوى قبلي وقبل رشدي بالنار.. ونحن جميعاً وأي مؤمن في الدنيا، عندما يضعه الصوت المتلّوي الحزين المصعّد من اعمق غور في الوجدان البشري، قبالة النبي المعلّم، صارخاً: شفاعة يا رسول اللّه.. لابد ان يبكي..

ان يوم الحساب عسير.. وخطايانا كثيرة كالجبال.. وقلوبنا اكسدتها الاحزان فعلاها الصدأ.. وهي اللحظة تنتفض كعصفور بلله القطر، متشبثة، في يوم الهول الآتي، باذيال النبي، منادية اياه بلهفة وتوجّع: شفاعة يا رسول اللّه!

(١٠)

الدمع هو المطهر

ورعدة الحزن الموغل في الروح جواز السفر اليك

يا نبيّ المنفيين والمعذبين والغرباء

الدمع يذيب الآثام والخطايا

يزيل الحواجز ويلغي المسافات بيننا وبينك

فنهتف، متوحّدين، منتظرين اليوم الذي سنهرع فيه اليك

لكي نرفع نداء التوسل بين يديك

شفاعة يا رسول الله!

***

عشرات السنين التي عشتها تبدو الآن وكأنها هباء

محبتك تعمر قلبي.. تسري في اوصالي.. فتمنحني الحياة

ينتفض العقل والقلب والحس والوجدان كما لو أنها تبعث اللحظة

الآن.. الآن فقط.. احس انني احيا

انت الذي تمنحي الدفء والفرح

تأخذ بيدي من شدّ الارض وعتمة الطين صوب الاعالي

حيث تقطر السماوات بالنور فتسكر الروح منتشية وهي تتلقى

الدفق الاتي من فوق

اتواجد يا رسول اللّه

انتفض عشقاً واكاد اذوب

اضع هذا كله.. اصهره في نداء ينزف من القلب المثخن بالجراح:

شفاعة يا رسول اللّه!

***

في اسطنبول .. في بورصة.. وانا استمع موشحاً تركيا

قبالة شجرة الچنار الباسقة

ازاء كل الاشياء الجميلة في هذا العالم

نهض (النورسي) لكي يقف قبالتي

لم استطع ان اتبينه للوهلة الاولى

شيئاً فشيئاً.. اتلقى صوته المتهدج، يتماوج عميقاً مؤثّراً

يشير بكلتا يديه الى الانهار والينابيع والشلاّلات والجبال

اللغة التي كان يحكي بها ما كانت تركية ولا عربية

ايقاع متفرّد عجيب كان يجتاز غشاء القلب ويمضي الى الاعماق

تبيّن لي وهو يشعل النار هناك

انه كان يجأر ملتاعاً: شفاعة يا رسول اللّه!

***

في جوامع الفاتح واحمد وسليمان

يتعالى النداء نفسه.. الوعد نفسه.. العشق نفسه!

هذه الاصوات التي تذوب وتذيب

آه من العشق الكوني الذي تعلمته هناك

ان تصير والورد والشجر شيئاً واحداً

ان تتعاشق مع الانهار، والبحار ، والوديان والجبال..

وتسبّح معها بحمد اللّه..

سأحملكِ معي يا اسطنبول واهديك لبلدي

ليس ثمة اغلى من هذا يمكن ان يقدمه العشاق لمن يحبّون!

احمل معك كل ما انطبع على غشاء القلب واوغل في مسارب لروح والوجدان

اشياء كثيرة عرّشك هناك

ولكن ليس ابداً كذلك الصوت العذب

الصوت المتلهّف، المترع حزناً وهو يتلوّى متوجّعاً في موشّح تركي:

شفاعة يا رسول اللّه!

***

اعطيتموني المحبة ايها النورسيون

فماذا اعطيكم؟

كل ما سأقدّمه لكم لن يكون كفاء ما اعطيتموني، فماذا اعطيكم؟

في الطريق الى (كوزلجة) استمعت لأول مرة اليه..

بعدها ونحن نتسلّق روابي (بورصة) سمعته مرة اخرى.. فبكيت

لن يكون بمقدور احد يملك قلباً الا ان يبكي..

يهتز وجداً وهو يتلقى لوعة الصوت المتشكي المصعّد من اعماق الروح

فما يلبث ان يتصادى في الفضاء الكوني الذي لا بدء له ولا انتهاء..

ان يدوّم مع الشمس والقمر والنجوم.. ويتماوج في دورة الافلاك الكبرى

هناك في الاماكن القصية وهو يردّد:

شفاعة يا رسول اللّه!

***

رجعت الى داري فلم تعرفني زوجتي ولا اهلي ولا اولادي!

كنت قد هزلت.. شحبت كثيراً..

الوجد كان قد اكلني.. المحبة اعتصرتني..

الحـزن العمـيق طرد من قلبي كل تعلّق بالاشـيـاء.. والرغبـات والموجودات..

كن يؤلمني انني لا استطيع ان اقول لهم ما بي..

ما يضنيني اكبر من ان تحمله اليهم الكلمات..

لقد ذوّبني العشق.. انظروا..

ها هو ذا يحيلني شبحاً لا يكاد يرى..

فاهتف: لقد برّحني الوجد كما لم يبرّحني شئ في هذا العالم..

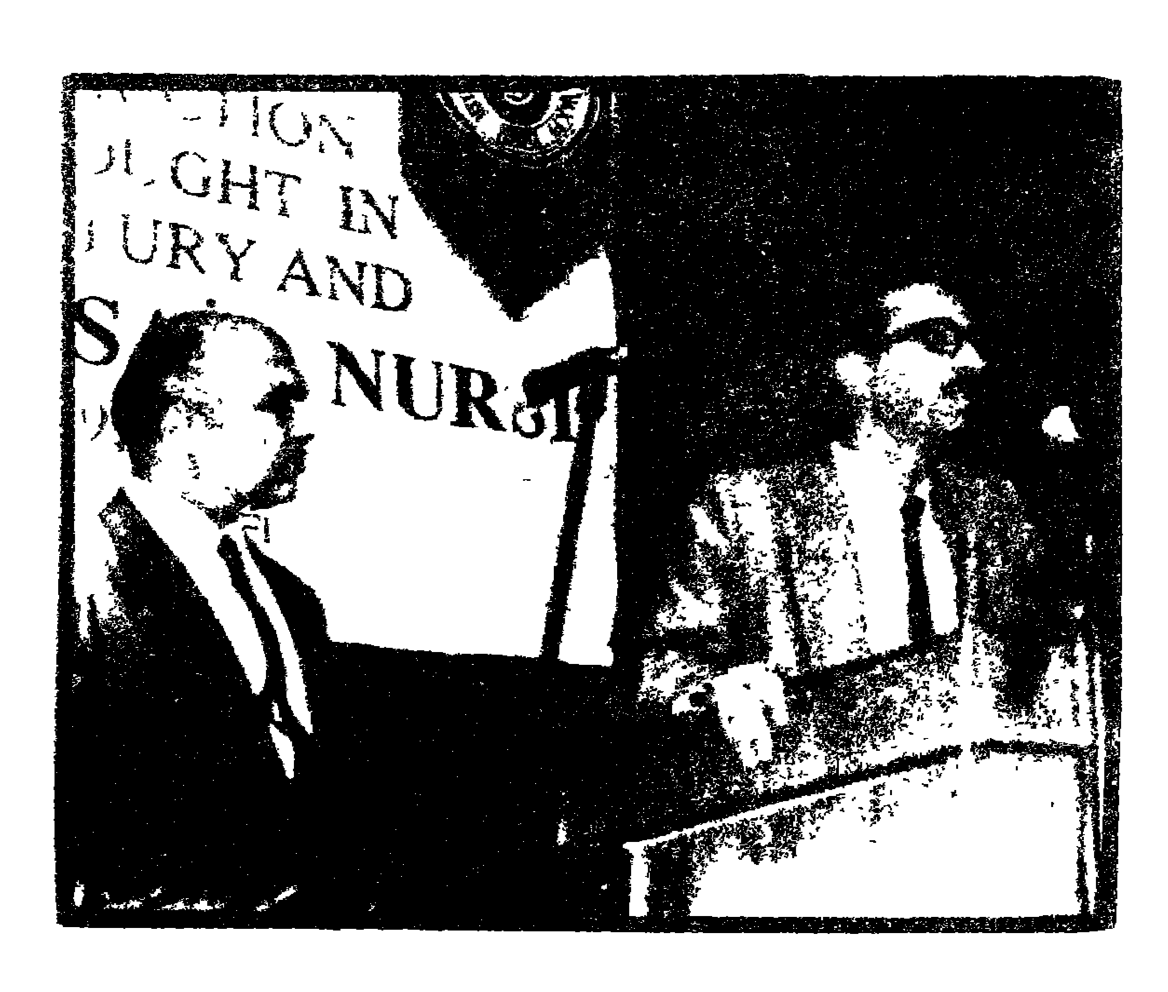
تُرى .. هل سالتقيكِ مرة اخرى؟

المحتويات

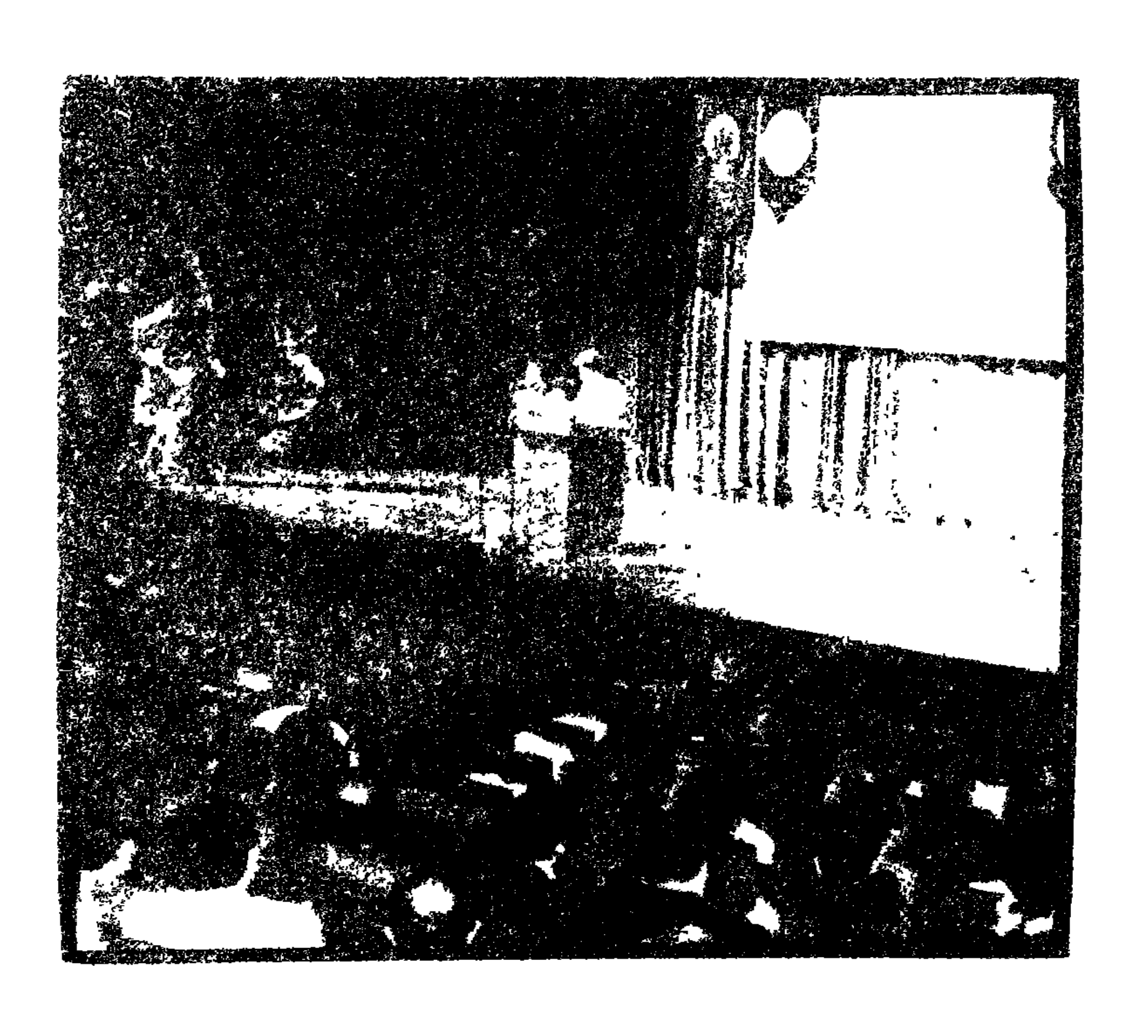


الدكتور عبد الودود شلبي يلقي كلمته والاستاذ الدكتور سعاد يلدرم

يؤدي مهمة الترجمة



أ. د. عماد الدين خليل يلقي كلمته في الافتتاح وأ. د. سعاد يلدرم يترجمها.



الدكتور كولن تورنر (انكلترا) يلقي كلمته والكاتب [illegible]

يترجمها الى التركيه